علي ناصر محمد

القطار ...

رحـلة إلى الغرب

مقدمة

تقديم علي محسن حميد

طاف الرئيس علي ناصر محمد رئيس جمهورية اليمن الديمقراطية (1980 – 1986) بالنيابة عن القارئ بجزء مهم من العالم يسميه البعض بالقارة العجوز و أَحَبّ أن يشرك معه القراء بماخطه قلمه أولا بأول وبما حفظته ذاكرته عن رحلات قام بأغلبها بالقطار في بعض دول اوربا ابتداء بالاتحاد السوفيتي عندما كان بكامل عافيته.بدأ المؤلف رحلته من عدن عروسة الجزيرة والخليج وقبلتهما قبل أن يصيبهما شيئ من النهوض بكشفه عن تاريخ مجهول لأول قطار في الجزيرة العربية عندما كانت الريادة لعدن على كل ماعداها من دول ومحميات في دول الجوار وكانت الأولى في كل مجال ، في العمران والتعليم والرياضة والفن والخدمات والإعلام المقروء والمسموع و المرئي والإنسانية و مكانا لتعايش أعراق وديانات وملاذا شبه آمن للأحرار اليمنيين ومن ينجو بنفسه من البؤس الشامل في شمال اليمن وبالأخص محافظة تعز . للكتاب رسالة لاتخفى موجهة لليمنيين لاستنهاض هممهم للخروج من سباتهم وتناحرهم وهذا بيّن في ثنايا الكتاب بمقارنات المؤلف حينا وبالنقد حينا آخر وبالتمني حينا ثالثا وبالأسف والحسرة على ماوصلوا إليه حينا رابعا. ربما كان قطار عدن هو الملهم لعنوان الكتاب. كان ذلك القطار في الخدمة في الفترة من 1915 وحتى 1929 وقد يكون قطار عدن هو الوحيد في العالم الذي كان عمره قصيرا جدا وأجبرت محركاته على الصمت ليس بسبب منافسة السيارة وحدهالأن من كانوا قادرين على اقتنائها في عدن ولحج كانوا نخبة اجتماعية وتجارية محدود جدا وإنما لأن البريطانيين كأي مستعمِر،يأخذ أكثر بكثير مما يعطي، فهم لم يهتموا بتنمية الجنوب اليمني المحتل كي يتساوق تطوره في المواصلات الحديثة مع مسارات تنموية أخرى تنموونتوسع مع مرور الوقت وفق رؤية استرتيجية تنموية تخدم المستعمَر والمستعمِر معا وكل قطاع فيها

يخدم الآخرلأن القطار لم يخترع قط لكي يصبح وسيلة مواصلات وإنما لخدمة شاملة للاقتصاد والأمن القومي(نقل الجنود والسلاح والحيوانات كما حدث في الحرب العالمية الأولى). وإذا اقتصر دوره على نقل المسافرين فهذا حكم بالموت على هدفه التجاري وهو الأساس ومن ثم يكون مآله الحتمي هو التقاعد السريع.الاقتصاد المتنوع في كل الدول هو الرئة التي يتنفس منها القطارويستمد منه اكسجينه المتجدد لتمكينه من البقاء والتمدد .لقد قضى التخلف الشامل في معظم الجنوب ، باستثناء عدن،وفي كل الشمال على مستقبل القطار الذي كان في ظل نمو معقول مشروعا قابلا للتوسع لايربط فقط مدينة عدن بمدينة لحج وإنما يمتد إلى شمال اليمن الذي كان مرشحا في السنوات الأخيرة من عمر الدولة العلية العثمانية لأن يكون آخر محطة لقطار الحجاز. ولاشك أن تخلف الشمال(المملكة المتوكلية اليمنية 1918 –1962) لعب دورا في صرف قطار عدن المبكر من الخدمة لأن التنمية كالصفائح المتحركة تغذي بعضها بعضا. الكتاب فتح نوافذ للقارئ للتعرف على دول وثقافات ومناخات أخرى وعلى جمال الطبيعة ورقي الإنسان في عالم لسنا منه أو على هامشه بالأحرى.وللكتاب بعد معرفي ومغزى سياسي سيدركه القارئ في أكثر من عنوان.والطوّاف/الكاتب/ رجل عادي وغيرعادي ورجل دولة ويعد من السياسيين اليمنيين القلائل الذين يدونون أولا بأول مذكراتهم وليس لتمضية وقت فائض بعد سنوات من ترك السلطة أو باستخراج – قسري أحيانا– لما اختزنته الذاكرة المعرضة للنسيان وخذلان صاحبها لإغواء الانحياز والا نتقاء أو المحاباة أو كرد فعل لما كتبه البعض من أرباع الحقائق بأرباع حقائق أخرى أو لاختلاق أدوار من العدم توهما بضعف ذاكرة الآخرين.الطواف/ الكاتب/ كمقاتل شارك في الكفاح المسلح الذي خاضته الجبهة القومية لتحرير الجنوب اليمني المحتل وكسياسي وكمثقف وملتزم بقضية الوطن اليمني في التقدم وبحق المواطن اليمني في حكم رشيد لاتمييز فيه بين منطقة وأخرى وبين الرجل والمرأة لم يكل ولم يمل من الاهتمام

بالشأنين العامين اليمني والعربي ومتابعة التطورات والنكسات فيهما عن كثب بروح الشاب العربي المفعم بالأمل بغد يمني وعربي مختلف وأفضل .وحتى اليوم لم يختراستراحة المحارب أو يلوذ بالقنوط واليأس من إصلاح الأحوال المعوجة والانكسارات المتوالية أنه يعي أن دوره لم ينته بل مطلوب لأن اليمنيين لم يحققوا تطلعاتهم المنشودة. وهو منحاز للتغيير كما عبرت عنه الثورة الشبابية السلمية في الأغلبية الساحقة من المحافظات اليمنية عام 2011 واستمرت في الميادين والساحات لعام كامل واختتمت نضالها ضد الحكم العائلي بمسيرة الحياة الشبابية النسائية والرجالية من تعز إلى صنعاء في ديسمبر 2011 التي جوبهت بنيران قوات الأمن المركزي لمنعها من الوصول إلى صنعاء،وبالحوار الوطني الشامل الذي تآمرت أطراف داخلية وخارجية عديدة عليه قبل الاتفاق على مخرجاته وبعضها يقاتل اليوم تحت رايات ومسميات شتى لوأد المخرجات باسمها.الرئيس علي ناصر كان ولايزال منحازا للشعب صاحب المصلحة الحقيقية في منجزات ثورتي سبتمبر واكتوبر وفي وحدة مبنية على أسس واقعية ومدروسة ومقبولة شعبيا تحقق الخير للناس وليس لأقلية تصحح وحدة 22 مايو1990 التي تحققت على الورق فقط. وللأدب والعلم نصيب في الكتاب فالمتنبي وأبو فراس الحمداني والجواهري وومضات مشعة من ماضينا حاضرون معه في كوبنهاجن وبراغ وحلب وغيرها كشهود قدامى وجدد على تراجعنا في أكثر من مجال. الكتاب يتضمن إشارات نقدية للأحوال اليمنية والعربية ويكشف عن هوة واسعة ومفجعة تفصلنا عنه بعد تغلبه بخمسة عناصر على قهرأنظمة العصور الوسطى التي يرشحها البعض مستقبلا لناوهي : 1-التعليم والبحث العلمي. 2- التصنيع.3- حكم القانون 4- تمكين المرأة. 5- المواطنة المتساوية. هذه العوامل مجتمعة جعلت الاستقرار في الدول الصناعية من الثوابت والفقراء أقلية بينما هم في غيرها أغلبية وأحيانا أغلبية ساحقة. مصداقية الكاتب وصراحته لم تمنعه من القول بأن الدول الصناعية تبزنا حتى في مجال السلوك والقيم والأخلاق. وفي كل

محطات الرحلة يتنهد الطوّاف / الكاتب / ويتألم على أوضاعنا التي لاأفقا مرئيا لتغييرها إلى الأفضل في الأمد المنظور. وسيشارك القارئ الطواف/ الكاتب/ الحسرة على ما نحن فيه من بؤس وتخلف تبرره قناعة ضالة ومُساومة تخلق وهماً كاذباً عن رضا عاماً مزعوم تسوقه، ومنجزات يخجل أي صاحب عقل رشيد أن يذكرها وهو يعي ما لدى الآخر من تقدم مهول وشامل وصامت. هذه الجماعة تتاجر ببضاعة منتهية الصلاحية.الطوّاف / الكاتب / يقارن بين بيئتنا وطبيعتنا البكر بما شاهده في بلدان ذات جمال باذخ كما يسميه يسابق أهلها الزمن. وفي الوقت الذي لم تفارقه الدهشة يتمنى أن نبدأ بداية صحيحة لنحذو حذوهم.عند كل محطة تثير الانبهار لا ينسى دثينة مسقط رأسه وحجة والحديدة والتواءات وضيق طريق الحديدة – صنعاء ومثيلتها طريق صنعاء – حجة وهوفي طريقه إلى جزيرة كوا بايطاليا. لقد بيّن أحوال عالمنا العربي وأحوال عالم آخر يعيشان في نفس الزمن عند وصوله إلى ميناء اوسلو قادما من الدنمارك بحرا وذَكّرنا بفايكنج اليمن قائلا "فيما الحضارة روضت الفايكنج سكان البلاد الأصليين – القبائل – الذين كانوا قراصنة وغزاة عانت من هجماتهم كثير من الدول ، هاهم ينعمون اليوم بخيرات بلادهم ، بينما لم تستطع الحضارة بكل منجزاتها ولا المال ترويض أقوامنا الذين يصرون على البقاء على طبيعتهم وممارسة نفس وظيفتهم".

الطوّاف /الكاتب/ اهتم بتفاصيل لاتبعث على الملل لأن من غاياته أن يعيشها القارئ وأن يتفاعل معه وأن يضخ الكتاب شحنة معرفية للتفاعل مع الآخر الذي انحاز لإيجابياته ومنجزاته ولتشجيعه على السفر الذي ذكر وهو على حق أنه ليس في ثقافتنا إما لضيق ذات اليد أو لشحنات كراهية، ترى في الآخر شيطانا رجيما يجب الابتعاد عنه والتعامل معه في حدود الضرورات وحدها .يقول تراثنا العربي أن في السفر سبع فوائد ولكننا نردد هذه المقولة كما نردد كل صحيح ديني أو غير ديني بدون العمل بهما. يتحول القلم إلى آلة تصوير كما هو الحال في

الوصف التفصيلي للشاب الالماني الذي دخل مقصورة القطارغير آبه بأحد وكأنه وحده الراكب وهيئته ليست بعيدة عن هيئة كثير من شباب اوربا ولكن هناك ليست العبرة بالمظهر أبدا وهناك أيضا لايتدخل أحدا بالمرة فيما يلبس الشاب أو الشابة أو في شكل قصة شعرها وتلك من أسس وبديهيات الحرية الشخصية، الشرط الأساس للتطور والتقدم والإبداع. لقد نقلنا الطوّاف /الكاتب/ إلى بلدان عديدة حضارتها وقيمها واحدة وألقى الضوء على سكان من أصل واحد يتحدثون لغة واحدة ويعيشون ويتعايشون في دولتين أو دولة ثلاثية القوميات واللغات وهم في غاية الانسجام والتآلف اللذان سمحا بوضع هذا البلد أو ذاك ضمن الدول المتقدمة والمرتفعة الدخل الخ... إن الديمقراطية هي الدواء الذي يقضي على المشاكل المستعصية والخلافات والعصبيات وصحيح هنا تماما شعار أوترويسة صحيفة الواشنطن بوست أن" الديمقراطية تموت في الظلام "democracy dies in darkness" وفي الهند يؤمن غالبية الهنود أنه طالما أن الهند الاتحادية ديمقراطية وعلمانية فالاتحاد سيبقى ويزدهر. وليس من المستغرب أن مسلمي الهند هم أكثر الأقليات تمسكا بتطبيق العلمانية. من سوء حظنا أن لا أحد في اليمن وخاصة بعد الوحدة أدرك سر مفتاح تقدم الشعوب واستقرارها وظل سادرا في غيه لا يفكر خارج صندوق القبيلة والمنطقة والمذهب والأسرة والمعدة وضرع بقرة الدولة. لقد كان المتوقع أن تستفيد الأنظمة العربية كلها من سقوط النظام السوفيتي وأنظمة حلفائه ولكن لادرس ينفع ولا عبرة للتغيير تشفع ولاحياة لمن تنادي. لا شيئ غير الديمقراطية والمواطنة المتساوية والحريات كفيلة بمحو الصراعات الجهوية والعرقية أوالتخفيف منها وتهذيبها وفتح مسارات سلمية لحلها. إن سلوك الأنظمة العربية لم يتغير بل ظل متوارثا وكأننا في محل من الكمال ولاتوجد تجارب مختلفة وناجحة يمكننا الاستفادة منها. في ورطة الطواف /الكاتب/ على الحدود الالمانية – التشيكية عندما ركب القطار متجها إلى براغ بدون جواز سفره عَرّفنا أن المؤسسة الغربية والالمانية كعينة منها لا

تصدق فورا وخاصة مع كابوس الإرهاب ماتقول لأنك ملون ولكن ماإن يثبت لها صدق قولك تعتذر وتقدم تعويضا رمزيا في شكل استضافة في فندق وهو ما لن يحدث عندنا، وكل ماقد يقدم هو سيجارة أو فنجان قهوة. ولم ينس الطواف / الكاتب وهو في نشوته قضية القات، أم الكوارث في اليمن،الذي يجهض أي أمل وأي جهد لإحداث تغيير محسوس في البنية الاجتماعية والاقتصادية ومحاربة الفساد وبناء نظام سياسي شفّاف. القات لعنة اليمنيين الأزلية وما لم يرشدوا استهلاكه مرحليا وصولا إلى اجتثاثه فلا أمل بتغيير حقيقي. وبرغم قساوة حياتنا فإن الكتاب يُقطّر أملا في أناس لم يخبو الأمل عندهم.وفي اوسلو كشف عن كنز معلوماتي حول بدايات مفاوضات اوسلو وفي سويسرا قام بما لم يقم به عربي قبله حتى من الذين أقاموا إقامة طويلة فيها أو عملوا فيها لسنوات وبعضه كان يمثّل مؤسسات قومية عربية عندما "تيهود"وزار مقر المؤتمر الصهيوني الأول بمدينة بازل عام 1897 بقيادة الصهيوني تيودورهرتزل. أما اليمن فكانت في وجدانه حتى وهو في قمة لحظات السعادة والانشراح. وهو القائل بدون مزايدة" أنا أضع الوطن في حدقات عيني وفي فؤادي ولا أفرق بين شمال وجنوب".

علي محسن حميد

قطار عدن

بدأت رحلتي الى الغرب من دمشق.. مروراً بباريس والشاطيء اللازوردي في كان ونيس وشمال ايطاليا.. ثم الى باريس مرة اخرى ومنها الى المانيا والدول الاسكندنافية وسويسرا وبراغ وانتهت بدمشق. قطعت المسافات بكل وسائل النقل المُتاحة.. كان هدفي من الرحلة بالدرجة الأولى القيام بجولة حول أوروبا والاطلاع على ما فيها من نهضة وحضارة وعلى نمط الحياة فيها.. ويكفي الشعور بأنك تتمكن من الذهاب من بلد إلى بلد من دون أن تدرك ذلك فالاوروبيون بالرغم من تعدد لغاتهم وتنوع أنماط حياتهم صنعوا وحدتهم وألغوا الحدود فيما بينهم.. وهذا برأيي إنجاز عظيم.. إن الطائرة تحرمك في كثير من الأحيان من الإستمتاع بجمال الرحلة بين البلدان ومشاهدة الطبيعة وهي تمر أمامك مسرعة .. أما القطار فيغوي بالسفر، خاصة إن كان سيحملك في رحلة عبر أوروبا... حلم لطالما راود الكثيرون ممن سمعوا عن القطار ورحلته الجميلة وخاصة إذا كانت الرحلة في اوروبا تلك القارة "العجوز" التي تعزى إليها نهضة العصر الحديث والتي استعمرت شتى قارات وشعوب العالم، بما في ذلك القارة الأميركية ومصر وفلسطين والجنوب اليمني الذي رزخ تحت الاحتلال البريطاني لأكثر من قرن وربع القرن (1839 – 1967م).

كنت أحلم بالقيام بهذه الرحلة وركوب القطار منذ أن كنا نسمع الموسيقار محمد عبد الوهاب وهو يغني "يا وابور قلي رايح على فين..؟ ".

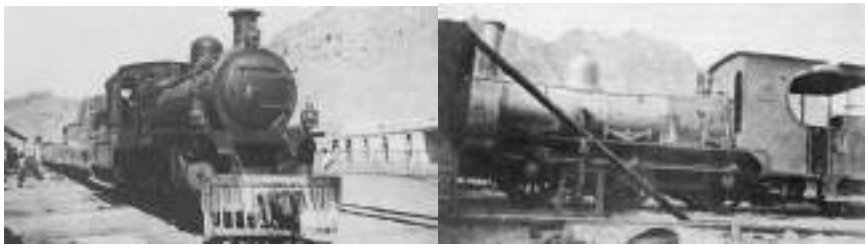

صورة نادرة لقطارعدن

قطار عدن في لحج

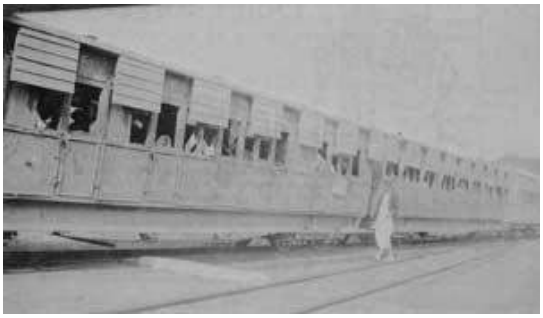

عندما دخلت عدن[1] لأول مرة في حياتي قادماً إليها من إحدى قرى دثينة[2] التي تبعد عنها حوالي (200 كم) ، كان قطار عدن قد توقف عن الحركة وهو أول قطار في الجزيرة العربية والخليج

---

[1]- **عدن:** كانت الحاضرة العربية الوحيدة ي الجزيرة والخليج العربي وهي عاصمة جمهورية اليمن الجنوبية الشعبيةمنذ 1967 ثم جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبيةوحتى الوحدة اليمنية 1990، تقع على بعد 170 كيلومترا إلى الشرق من باب المندب وعلى بعد 380 كيلومترا عن العاصمة صنعاء .يتكلم أهل عدن لهجة يمنية تعرف بـ اللهجة العدنية .تعتبر عدن العاصمة الاقتصادية والتجارية لليمن.تقع مدينة عدن على فوهة بركان خامد وكانت اشبه بجزيرة. حيث تكون ميناء عدن التاريخي بفعل تعاقب عملية طغيان البحر وانحساره وبتوالي عمليات التعرية المختلفة على فوهة البركان لتكون برزخ(خورمكسر) ولتصبح عدن شبه جزيرة.كان أول من استخدم هذا الميناء الطبيعي مملكة أوسانما بين القرن السادس إلى السابع قبل الميلاد. يبلغ عدد سكان مدينة عدن حالياً حوالي 800,000 نسمة وتعطي عدن اسمها لخليج عدن.تتكون عدن من عدة مديريات تشكل أسماء مدنها وهي:عدن (كريتر)ويوجد فيها الميناء التاريخي في خليج صيرة، المعلاوبها الميناء الحديث الذي بناه الاستعمار البريطاني ، التواهي والمعروفة بـ (Steamer Point) في أيام الاستعمار البريطاني ويوجد بها الشاطئ الجميل الساحل الذهبي (جولدمور)، خورمكسر الواقعة على البرزخ الذي يربط عدن مع اليابسة وتشمل المدينة البعثات الدبلوماسية والمكاتب وجامعة عدن ومطار عدن الدولي، وفي منطقة البر الرئيسية تقع المناطق التالية: الشيخ عثمان التي كانت عبارة عن واحة اشترى أراضيها الإنجليز من سلطان لحج وبنوا فيها مدينة حديثة لتخفيف الضغط السكاني على عدن.المنصورةمدينة خططها وبناها الإنجليز في الفترة من 1958 إلى 1962 .دار سعد وتعني دار الأمير وكانت في فترة الاحتلال البريطاني أقصى نقطة حدودية لمستعمرة عدن من جهة الشمال باتجاه سلطنة لحج .وقد أطلق عليها هذا الاسم نسبة إلى أحد الأمراء العبادلة الذي بني فيها قصرا قبل الاحتلال.مدينة الشعب(مدينة الاتحاد سابقاً) وكانت عاصمة اتحاد الجنوب العربي وهي الأن مقر لبعض كليات جامعة عدن ويوجد بها محطة الكهرباء الرئيسية للمدينة عدن.عدن الصغرى أو البريقة .. الجانب الشرقي من عدن يشكل أراضي واسعة تسمى منطقة عدن الصغرى بالإنجليزيةLittle Aden : وتضم ميناء طبيعي أخر في شبه جزيرة بركانية وتشكل تقريبا صورة طبق الأصل للميناء الرئيسي في الغرب. أصبحت عدن الصغرى موقع مصفاة للنفط وميناء للتزود بالوقود لشركة بريتيش بتروليم (BP)إلى أن تم تسليمها إلى الحكومة اليمنية الجنوبية عام 1977... بدأ بث (التلفاز) في عدن عام 1963م ويعتبر من أقدم المرائي (التلفزيونات)العربية ويوجد في عدن أقدم نادٍ رياضي في شبه الجزيرة العربية والوطن العربي وهو نادي التلال الذي تأسس عام 1905م وكان اسمه نادي التضامن المحمدي

وقد بدأ تشغيله في 15 مايو/ 1915 وتوقف عن العمل بشكل كامل في سنة 1929م .... عندما كانت عدن تحت الاحتلال البريطاني، وكانت الشركة المنفذة لمشروع القطار في عدن تسمى (شركة حديد البنجاب الشمالية الهندية)... وأهل عدن يتذكرون القطار بمقولة (زمن الريل) من الكلمة الانكليزية (RAILWAY) والتي تعني السكة الحديدية للدلالة على زمن كان ينطلق فيه قطار عدن من المعلا إلى محطته الأخيرة في الخداد شمال الحوطة في سلطنة لحج وسط كثافة من الاشجار بين الشيخ عثمان والحوطة التي تصحرت مع الزمن.

كان هذا القطار يتكون من عشر عربات ركاب عاملة، وأربعين عربة نقل حمولة احتياطية وصلت في بعض المراحل إلى ستين، تلحق به عند الضرورة، وتبلغ سعة كل عربة نقل للركاب إلى ستين شخصاً.

لقد توقف القطار عن الانطلاق لأسباب غير معروفة.. قيل أنها مالية، و قيل أنها بسبب عدم قدرته على المنافسة والصمود أمام دخول السيارات إلى عدن كوسيلة مواصلات جديدة حلت تدريجياً محل القطار، ومحل الأحصنة والجمال والحمير التي كانت وسيلة المواصلات والتنقل بين عدن والمحميات. وبين جنوب وشمال اليمن وهو أمر طبيعي حدث مثله في أوروبا صاحبة اختراع القطار، حيث بدأت خطوط السكك الحديدية في فقد الكثير من الأعمال بسبب ظهور السيارات، وكان ذلك مصير قطار الحجاز الذي توقف بعد الحرب العالمية الأولى والذي كان من المفترض أن يصل إلى مدينة الحديدة.

جنون السكك الحديدية[3]

منذ ظهورها في انجلترا لأول مرة في منتصف القرن السادس عشر الميلادي، مرت السكك الحديدية بعدة مراحل، من المرحلة الخشبية في مناطق المناجم التي سرعان ما انتشرت في اوربا، إلى مرحلة خطوط الحديد الزهر منذ العام 1738م، الى مرحلة وضع (أول خط) يشبه ما يستخدم حالياً في الخدمة في العام 1786م على يد البريطاني وليم جيكوب، وهو نفسه سيكون مسؤولاً عام 1803م عن بناء أول سكة حديد في العالم لنقل البضائع، لكن أول خط حديد تم

---

[2]– دثينة أو جمهورية دثينة: في محافظة أبين جنوب اليمن، كانت تحدها سلطنة الفضلي وسلطنة العوذلي وسلطنة العوالق العليا وسلطنة العوالق السفلى. وهناك أسباب سياسية بحتة أدت لظهورها .تعد جمهورية دثينة أول جمهورية في الجزيرة العربيةثم تحول أسمها من جمهورية الى ولاية دثينة وكان لها برلمان..

[33] - أتاح لي الاطلاع على شبكة الأنترنت معرفة تاريخ القطارات في العالم منذ بداية استخدامها في انكلترا ثم انتشارها في بقية العالم.

افتتاحه كان في عام 1825م بتخطيط من الانكليزي جورج ستيفنسون[4] صاحب مناجم كلينجورث الشهيرة التي كانت تقع غرب مدينة نيو كاسل، وكانت تلك مرحلة استخدام (الخيول) في جر ذلك الخط بسهولة لتظهر بعدها مباشرة مرحلة استخدام (المحركات) الثابتة التي يمكن استخدامها في قطر العربات على الخطوط الصاعدة الصعبة باستخدام الجنازير والبكرات ليتحول القطار من نقل البضائع فقط الى نقل الركاب ايضاً، وفي عام 1828م قام ستينفسون وولده روبرت بتشغيل قاطرتهما البخارية التي سحبت قطاراً وزنه 20 طناً لمسافة 56 كم في ساعتين لتبدأ بذلك (المرحلة البخارية)، وشكل هذا الحدث بداية عصر السكك الحديدية الذي انتقل من انكلترا إلى أوروبا والهند ومصر والعديد من بلدان العالم، حتى أطلق على فترة الثلاثينيات والأربعينيات من القرن التاسع عشر "عصر جنون السكك الحديدية!" ...

قامت العديد من الشركات بتقديم تصاميم قد تعتبر ثورية بمقاييس ذلك الزمن لكن الحكومة البريطانية رفضت معظمها بعض الفحص، وفقد الكثير من المستثمرين المتهورين ثرواتهم، ولكن ذلك لا يمنع أن الكثيرين جنوا ثروات طائلة من السكك الحديدية، مثل ملك السكك الحديدية جورج هدسون[5] الذي صار غنياً نتيجة حركة السكك الحديدية ولكنه أفلس بعد ذلك، وقد نظم هدسون دمج السكك الحديدية الصغيرة وانتهى به الأمر الى أن أصبح المتحكم في السكك الحديدية في شمال شرقي انجلترا، وبحلول عام 1850م ومن خلال وصل الخطوط الحديدية معاً، تم وصل الخط الحديدي الذي يربط بين لندن واسكتلندا وبلغت أطوال شبكتها في المملكة المتحدة في منتصف القرن التاسع عشر 9600 كم، تدير معظمها شركات خاصة.

---

[4]- **جورج ستيفنسون:** 9 يونيو 1781 / 12 اغسطس 1848 مهندس إنجليزي قام بإنشاء أول خط سكك حديدية في العالم يستخدم القطارات البخارية .كما أنه مصمم مقياس السكك الحديدية المستخدم عالميا وهو 1435 مم، ويعرف أحيانا باسم مقياس ستيفنسون.

[5]- **جورج هدسون**(1800–1871) رجل أعمال وسياسي بريطاني اشتهر في بريطانيا باسم ملك السكك الحديدية ويرجع ذلك لملكيته الخاصة للسكك الحديدية. واستطاع في فترة زمنية أن يسيطر على أكثر من 1,600كم من طرق السكك الحديدية. ثم بدأ يعمل في المضاربة في السكك الحديدية في عام (1828م)، بعد أن ورث 30,000 جنيه إسترليني. وفي منتصف أربعينيات القرن التاسع عشر، اشترى خطين حديديين كانا سببًا في خسارته المالية. وسرعان ما تعرضت كل سككه الحديدية للمشاكل ثم أشهر إفلاسه في عام 1848م. ولد هدسون بالقرب من يورك. ولثلاث مرات اعتلى منصب عمدة يورك، ثم أخذ يقدم خدماته عضوًا في البرلمان ممثلا عن سندرلاند.

لقد اشترت معظم شركات السكك الحديدية في الدول الأوروبية قاطراتها الأولى من عائلة ستيفنسون في بريطانيا، كما أمدت تلك العائلة كندا بأول خط حديدي في مقاطعة كويبك عام 1836م .

أما فرنسا فقد افتتح أول خط سكك حديدية فيها عام 1832م وفي نفس العام أنشئ أول خط سكة حديدية في بلجيكا، في حين كان عام 1835م بداية عهد السكك الحديدية في ألمانيا.. ومع تقدم استخدامات السكك الحديدية وظهور أهميتها الاقتصادية والعسكرية (أحياناً) سيطرت حكومات الدول على معظم شركات السكك الحديدية، وانتشرت السكك الحديدية في روسيا وايطاليا وسويسرا والدنمارك في أربعينيات القرن التاسع عشر بينما امتلكتها السويد والنرويج والبرتغال في الخمسينيات وتركيا واليونان في الستينيات من القرن التاسع عشر ومصر 1848 والهند 1853...

أما عبر المحيط الاطلسي فقد كان تطور السكك الحديدية سريعاً في الولايات المتحدة الأمريكية ففي حلول عام 1835م بلغ طول شبكتها الحديدية 1600كم، ونظراً لأن معظم الأجزاء الداخلية في أمريكا كانت موحشة ومقفرة في ذلك الوقت، فقد قدمت الحكومة الأمريكية منحاً مالية ضخمة وكذلك قدمت الأرض مجاناً لشركات السكك الحديدية لتشجيعها على إنشاء الخطوط. وساعد على الإسراع في بنائها فائدتها العسكرية للأمريكيين الشماليين (أو الحكومة الامريكية المركزية) في حربها ضد الجنوب (الحكومة الكونفدرالية) أثناء الحرب الأهلية في الولايات المتحدة الأمريكية1861-1865م..

ومن المثير للاهتمام أن عمال شركة الباسفيك التي كلفها الرئيس الأمريكي أبراهام لنكولن ببناء خطوط السكك الحديدية الشرقية من ساكرامنتو في كاليفورنيا كانوا في أغلبهم من اصول صينية وكانوا يعدون بالآلاف حتى أنهم أسسوا مجتمعاتهم في المناطق التي مرت بها السكة الحديدية مثل سان فرانسيسكو (وفيها أكبر تجمع للصينين خارج الصين حتى اليوم في منطقة تسمى الحي الصيني وهي من المعالم السياحية الهامة في سان فرانسيسكو)، وكان يتحتم على العمال العمل في ظروف صعبة جداً فمن صحراء نيفادا الى جبال سييرانيفادا تمتد رقعة الاراضي التي امتدت فيها السكة الحديدية الشرقية في الولايات المتحدة بين صحراء وجبل وسهل وبحيرات، أما في الشرق فكان معظم العمال من المهاجرين الايرلنديين، وكان لا بد من بناء الخطوط عبر جبال الروكي، وقد تقابل الخطان في جبال يوتا في عام1869م، وهكذا اكتمل أول خط سكة حديدية عبر الولايات المتحدة، ومع تقدم التطويرات في القاطرات تحسنت بصورة ملحوظة قدرتها وأصبح بمقدورها السفر بسرعة تتراوح بين 80 و100كم/ساعة، وزاد اختراع

المهندس الأمريكي جورج وستنجهاوس للفرامل الهوائية سنه 1867م من تشغيل قطارات أكثر أمناً.

هامبورغ الطائر

فتحت السكك الحديدية أجزاء كثيرة من العالم أمام حركة الركاب والتجارة، وبحلول عام 1870م أُنجزت معظم خطوط السكك الحديدية الأوروبية الرئيسية، وتطلب إنشاء عدد من هذه الخطوط بناء العديد من الأنفاق ونسف أجزاء من جبال الألب للربط بين كل من فرنسا وسويسرا وايطاليا.. أما في روسيا فقد بدأ العمل على خط سكك الحديد عبر سيبيريا عام 1891م وأكمل عام 1916م وبإنجازه يكون قد أُسس أطول خط سكك حديدية مستمرة في العالم إذ يبلغ طوله 9515 كم.. ومع بداية ظهور السيارات بدأت خطوط السكك الحديدية تواجه تحدياً حقيقياً حيث فقدت من 1914م إلى 1939م الكثير من الأعمال وخاصة في أوروبا وأميركا الشمالية، ولكنها ردت على هذا التحدي باختراع تقنيات جديدة للحفاظ على مكانتها... وذلك باستخدام قوة سحب الديزل... وقد بدأت ألمانيا عام 1932م استخدام هذه القوة الجديدة في قطار من عربتين بين برلين وهامبورغ سمي بـ "هامبورغ الطائر"، وكان يعمل بمتوسط سرعة 124 كم / ساعة.. وفي الولايات المتحدة الأميركية ظهر قطار "بيرلنجتون نفير" وهو قطار ديزل سريع قطع عام 1943م مسافة 1627 كم بين دنفر وشيكاغو بمتوسط سرعة 124 كم / ساعة, وعلى الرغم من السرعة العالية لقطارات الديزل إلا إن القطارات البخارية الممثلة في قطارات هيواتا العاملة على خط سكة ميلووكي في مدينة شيكاغو تحدت التقنية الجديدة ووصلت إلى أقصى سرعة منتظمة في عصر البخار160 كم / ساعة ، وفي عام 1938م تطورت القاطرات البخارية وأصبح لها اشكال اكثر انسيابية وعرفت باسم "مالارد" وسجلت رقماً قياسياً في سرعتها مقدارها 203 كم/ ساعة ، ولكن بالرغم من هذا التقدم في قاطرات البخار وتطورها، إلا أن قوة محركات الديزل أخذت تتطور لتحل سريعاً محل القطارات البخارية، ومنذ بداية 1963م أُغلق الكثير من خطوط السكك الحديدية الصغيرة، وانتهى في الخمسينيات من القرن العشرين عصر القطارات البخارية في معظم دول العالم، وبنيت آخر قاطرة بخارية "نجمة المساء" عام 1960م وسحبت أخر قاطرة بخارية من خدمة السكك الحديدية البريطانية عام 1968م.

لكن الإنسان التواق إلى التطور لم يكتف بما وصل إليه من سرعة في سير القطارات باستخدام قوة الديزل، فظهرت في الوقت نفسه تقريباً عملية الكهربة الكاملة للسكك الحديدية،

واستخدم الفرنسيون الكهرباء في عملية سحب القطارات بكفاءة عالية، وذلك باستخدام كهرباء جهدها 25 كيلوفولت متردداً بدلاً من التيار المستمر، كما كان متبعاً من قبل، ومنذ عام 1957م استطاعت القطارات السريعة عبر أوروبا منافسة الخطوط الجوية في جذب الركاب، ونجحت في توفير قطارات يومية عالية الجودة والدرجة، واستكملت بريطانيا التي يعود الفضل إليها في اختراع السكك الحديدية في كهربة الخطوط المعلقة لخطوط السكك الحديدية من لندن إلى كل من برمنغهام وليفربول ومانشستر سنة 1966م وقدمت الخطوط الحديدية البريطانية في السبعينيات من القرن العشرين قطارات تصل سرعتها إلى 200 كم / ساعة.

وفي تسعينيات نفس القرن حدث تطور هائل في تقنية السكك الحديدية، واستطاعت فرنسا أن تسجل أرقاماً قياسية في سرعة قطاراتها الـTGV (والذي بلغ سرعة هائلة تقدر ب 574 كم/سا).. واخيراً (وليس اخراً) القطار المسمى "بالماجليفMaglev" وهو قطار يعمل بتقنية الرفع المغناطيسي[6] وهو من تطوير ألماني ياباني وبلغ سرعة تقدر 581 كم/سا)..

اول قطار في الوطن العربي

تعد سكك حديد مصر هي أول خطوط سكك حديد يتم إنشاؤها في الوطن العربي، والثانية على مستوى العالم بعد المملكة المتحدة، حيث بدأ إنشاؤها في اربعينيات القرن التاسع عشر حيث تمتد عبر محافظات مصر من شمالها إلى جنوبها. بدأ إنشاء أول خط حديدي في مصر يوم 12 يوليو عام 1851م. وبدأ التشغيل إبان الاحتفالات بافتتاح قناة السويس عام 1854 في عهد الخديوى[7] إسماعيل باشا[8] ومما يذكر أن المشرف على مشروع بناء السكك

---

[6] – القطار المغناطيسي المعلق بالإنجليزية Magnetically levitating train : أو ما يعرف اختصارا بالماجليف "Maglev" هو قطار يعمل بقوة الرفع المغناطيسية .يتميز هذا القطار على القطارات العادية بكونه لا يمس السكة التي يسير عليها وإنما يطفو فوقها، بسبب قوى التنافر المغناطيسية. وهذا ما يخفض من قوة الإحتكاك ويجعل ذلك الأمر منه صامتاً وسريعاً بشكل كاف (نظرياً يمكن أن تبلغ سرعته 1700 كلم\س)

[7] –كلمة **خيديوي** مشتقة من الفارسية khidiw أو أمير المشتق من "خودا khuda "وتعني السيد أو الأمير. استخدم هذا اللقب لأول مرة من قبل محمد علي باشا والي مصر ومؤسس الأسرة العلوية المالكة التي حكمت مصر والسودان من بعده حتى العام 1952. والخديوي إسماعيل أحد أشهر من حملوا لقب خديوي في مصر على الإطلاق. هذا اللقب حمله حصرا حكام مصر والسودان من أسرة

الحديدية المصرية آنذاك كان المهندس الانجليزى روبرت ستيفنسون وهو ابن مخترع القاطرة الشهير جورج ستيفنسون. يبلغ طول الشبكة الحديدية في مصر حوالي 6700 كم منها حوالي 4872 كم تشكل مجموع اطوال الخطوط الطولية ويبلغ عدد المحطات والمواقف (الهلتات) ونقط البلوك على الشبكة أكثر من 820 محطة, منها عشرون محطة رئيسية في عواصم المحافظات في الدلتا والقناة والوجه القبلي, وبذلك تربط شبكة السكك الحديدية الوادي من أقصاه إلى أدناه على طول أكثر من 1000 كيلو متر, وتصل الخطوط الحديدية بين معظم المراكز العمرانية والاقتصادية في البلاد مثل الموانئ على البحرين الأحمر والأبيض المتوسط، ومراكز الشحن الخام والمصانع، فضلاً عن جميع المدن والمراكز الأخرى، في شبكة هائلة ومتسعة من الطرق الحديدية الحديثة المجهزة لتشغيل جميع أنواع القطارات ذات السرعات العالية عليها.

قطار الحجاز
من دمشق الى المدينة المنورة

قطار الحجاز اثناء العمل فيه بمد السكة الحديدية وصورة لأول عربة من قطاراته

محمد علي بدءا من إسماعيل باشا وهو كان اول خديوى لمصر، تم تسجيله بالإنجليزية في 1867، واستمدت عبر الفرنسية khédive وعبر التركية khidiv،

[8]– ولد الخديوي إسماعيل 31 ديسمبر 1830 وتوفى في 2 مارس 1892 وهو خامس حكام مصر من الأسرة العلوية من 18 يناير 1863إلى أن خلعته إنجلترا عن العرش في 24 يونيو 1879 وخلال حكمه أعطى مصر دفعة قوية للتحديث على النمط الأوروبي ، وطلب منه ان يرحل على المحروسة من ميناء اسكندرية الى نابولي وقد تكرر مثل هذا مع الملك فاروق عام 1952م اخر حاكم من الاسر العلوية

أسس خط حديد الحجاز[9] السلطان عبد الحميد الثاني[10] سنة 1900م بهدف تسهيل رحلة الحج على الحجاج من تركيا الى مكة المكرمة والمدينة المنورة، انطلقت الرحلة الأولى من دمشق في 22 أب / اغسطس 1908م، إلى المدينة المنورة وكانت مدة الرحلة 5أيام، يبدأ الخط من دمشق وينتهي في المدينة المنورة، طول الخط 1320كم عرض السكة 1050مم المحطات الرئيسية محطة الحجاز في دمشق – درعا – نابلس– الزرقاء –عمان – حيفا – معان – تبوك –مدائن صالح– المدينة المنورة. ولقد ظل القطار في الخدمة لتسعة سنوات.. وقد تعرض هذا الخط لسلسة من التفجيرات من قبل قوات الثورة العربية الكبرى التي قادها الشريف حسين بمساعدة لورانس العرب (ضابط الاستخبارات الانكليزي المشهور) مما أدى الى توقفه عن العمل بعد الحرب العالمية الأولى وانتهاء الحكم العثماني لبلاد الشام والحجاز.. وكانت تركيا تنوي أن يمتد هذا الخط إلى مدينة الحديدة التي تقع على البحر الاحمر في اليمن وقد نقلت بعض قضبانه إليها ولكن العمل لم يبدأ بسبب الحرب العالمية الأولى.

قطار شركة الهند الشرقية

بدأت شركة الهند الشرقية EAST INDIAN COMPANY عام 1850م ببناء السكك الحديدية، وهذه الشركة سيطرت اقتصادياً وتجارياً على الهند قبل استعمارها كلياً من قبل بريطانيا عام 1858م بعد انتفاضة عام 1857م كما عرفت في الادبيات السياسية التي قمعها البريطانيون بقسوة لاسابقة لها في تاريخهم الاستعماري وانتهت بسقوط الامبراطورية المغولية

[9]– بوشر بالعمل في بناء خط سكة حديد الحجاز عام 1900م من منطقة المزيريب في حوران في سورية، واعتمد في مساره على طريق الحج البري من دمشق عبر مدينة درعا وصولاً إلى المدينة المنورة، حيث استطاع الحجاج من الشام وآسيا والأناضول قطع المسافة من دمشق إلى المدينة المنورة في خمسة أيام فقط بدلاً من أربعين يوماً، وكان والي دمشق هو أمير الحج باستثناء فترة بسيطة تولى فيها حاكم نابلس هذه المهمة.

[10]– هو عبد الحميد بن عبد المجيد الأول السلطان الرابع والثلاثون من سلاطين الدولة العثمانية، وآخر من امتلك سلطة فعلية منهم. يعرفه البعض، بـ "أولو خاقان" أي "الملك العظيم" وعرف في الغرب باسم "السلطان الأحمر"، أو "القاتل الكبير" بسبب مذابح الأرمن التي وقعت عام 1915م في فترة توليه منصبه. ولد عبد الحميد في 21 سبتمبر 1842 م، وتولى الحكم عام 1876، وخلع بعد سلطنة طويلة عام 1909م ووضع تحت الإقامة الجبرية حتى وفاته في 10فبراير 1918م.

ونفي (بهادور شاه ظفر الثاني) آخر أمبراطور الى بورما (مانيمار حالياً) رافقها وتلاها نهب غير مسبوق لثروات الهند الطبيعية، ويعتبر انشاء السكك الحديدية في الهند انجازاً استراتيجياً واقتصادياً هاماً، وبدونها ما كان يمكن لبريطانيا أن تسيطر على قارة أو شبه قارة بكاملها، وأن توحد هذا الكيان متعدد الثقافات، والاعراق، والديانات واللغات.

السكك الحديدية الأن متصلة بحياة الانسان ورفاهيته وأمنه، فهي تفك العزلة وتوفر وسيلة مواصلات للمنتجات الزراعية والصناعية وتسهم في تسهيل حركة الصادرات والواردات العابرة للدول وبدونها لا يمكن تصور التطور الصناعي والزراعي الكبير (صناعة الصلب مثلاً).

باختصار... "لا تصنيع بدون سكك حديدية"... وسياسياً كما كانت السكك الحديدية وسيلة استعمارية كان لها دورها في الاستقلال والحرية، وفي الهند اسهمت السكك الحديدية بنقل المواد الخام الهندية التي كانت تحتاجها المصانع البريطانية وبنقل السلع البريطانية المصنعة في بريطانيا الى الهند، ومعلوم أن بريطانيا قضت قضاء مبرماً على الصناعات الهندية المتطورة.

لقد كانت الهند طبقاً للعديد من الكتاب الغربيين ومنهم سيال فيرجسون ووليم دار ليمبل عند استعمارها أكثر تطوراً وغنى من بريطانيا، وينطبق هذا الوضع على الصين بمقارنتها بـ بريطانيا قبل أن تستسلم للسيطرة الغربية، ففي عام 1853م افتتح أول خط يربط بين مومباي وتانا وكان طوله 32 كم، ثم تلاه خط طويل يربط كاكوتا في غرب الهند بجنوبها في مدراس، وكان البريطانيون يملكون أكثر من 90% من أسهم الحكومة الهندية (أي حكومة الاستعمار البريطاني) المالك والمسيطر وتمتلك الهند رابع خطوط سكك الحديد في العالم، ولكن اذا ما قسمنا نصيب الفرد منها نجد أن البرازيل تفوقها بنسبة اضعاف وروسيا واليابان بثلاثة اضعاف، ولقد لعبت السك الحديدية في الهند دوراً هاماً في دعم المجهود الحربي البريطاني في نقل المعدات والمؤن والافراد والحيوانات خلال الحربين العالمية الأولى والثانية.

عصر النهضة في اوروبا
والثورات الكبرى في العالم

كانت أوروبا مهداً للكثير من المخترعات العلمية والصناعية والتقنية فعصر النهضة الاوروبي والغربي بدأ منها.. والثورات الكبرى في العالم (الفرنسية والروسية) انطلقت منها، وكذلك بدأت منها الطباعة والنشر الأمر الذي أسس لنقل أغلب أفكار الفلسفة الحديثة وكبار المفكرين.. ومنها انطلقت الثورة الصناعية التي غيرت مفهوم الحياة الإنسانية والعالم بأجمعه.. وجاء منها كبار العلماء الذين غزوا العالم بأفكارهم فمن ليوناردو ديفينشي وروائعه التي أسست لعصر النهضة وغاليليو وكوبرنيكس اللذان غيرا مفهوم الناس للكون.. الى "نيوتن" الذي صاغ قانون الجاذبية.. و"أديسون" الذي اخترع المصباح الكهربائي، في القرن التاسع عشر، "وغراهام بل" الذي اخترع الهاتف.. و"اينشتاين" الذي وضع نظرية النسبية.. وباستير الذي أكتشف عملية البسترة وغيرهم الكثير. وفي العصر الحديث كان بيل غيتس الأمريكي هو من اخترع نظام ويندوز الذي سهل الوصول الى المعرفة المعلوماتية لأغلب الناس بشكل مبسط.. وكان لستيفن جوبز[11] (مدير شركة أبل) السوري الأصل الفضل الأكبر بتغيير نظرتنا للتكنولوجيا الرقمية بتطويره (الأي فون) IPHONE.. كل الاكتشافات والاختراعات الحديثة هى من صنع هذا الغرب.. الكهرباء.. الهاتف.. الراديو.. التلفاز.. السيارة.. القطار... الطائرة.. سفن الفضاء... الكمبيوتر...الخ.

ستيفن جوبز

[11] - ستيفن جوبز، مدير شركة أبل APPEL، مخترع وأحد أقطاب الأعمال في الولايات المتحدة. عُرف بأنه المؤسس والمدير التنفيذي السابق ثم رئيس مجلس إدارة شركة أبل ، والده الحقيقي هو عبد الفتاح الجندلي سوري الجنسية، ولد ستيف بول جوبز في سان فرانسيسكو في24 فبراير1955 لأبوين غير متزوجين كانا حينها طالبين في الجامعة، وعرضه والداه وهما عبد الفتاح الجندلي، سوري من مدينة حمص، وجوان شيبل للتبني، بعدما رفضت أسرة شيبل زواجها من غير كاثوليكي، فتبنياه زوجان من كاليفورنيا هما بول وكلارا جوبز، وهما من عائلة أرمنية - بولندية، ما ترك أثراً في حياة ستيف الذي لا يذكر عبد الفتاح إلا مع استخدام صفة الوالد البيولوجي.

وتعتبر سيارة كونيوت الفرنسي التي اخترعها عام 1869م من أوائل السيارات في التاريخ، وكانت تعمل بالبخار، ثم اخترع كارل بنز سيارة تعمل بوقود البنزين في المانيا عام 1885م وسجل براءة اختراعها عام 1886م وإليه يعود الفضل في اختراع السيارة الحديثة وسيارة مرسيدس.

والقطار كما سبق هو اختراع بريطاني منذ القرن السادس عشر الميلادي...

والطائرة اخترعها الأخوان الأمريكيان ولبور وأورفيل رايت اللذان قادا أول تجربة طيران ناجحة في التاريخ سنة 1903 م، وفى العام ذاته أكمل قسطنطين تسيولكوفسكي، وهو مدرس روسي، أول مقالة علمية حول استخدام الصواريخ للانطلاق إلى الفضاء، وبعد بضع سنوات، نجح كل من روبرت "هنشينجر جودارد" من الولايات المتحدة الأمريكية "وهرمان اوبرت" من ألمانيا، في إيقاظ الاهتمام العلمي برحلات الفضاء وعملا بصورة مستقلة على دراسة الصعوبات التقنية في أبحاث علم الصواريخ ورحلات الفضاء، وحصل كل منهما على لقب أبو طيران الفضاء.

أما أول رائد فضاء في العالم هو السوفيتي "يوري جاجارين" الذي حلق بمركبته الفضائية حول العالم سنة 1961 م وأول من هبط على سطح القمر هو الأمريكي أرمسترونغ عام 1969 م.

ولعل وسائل الاتصال الحديثة ومواقع التواصل الاجتماعي كالفيس بوك والتويتر والواتس اب والفايبر وغيره سوف تسهم في سد هذه الفجوة المعرفية بين العالمين الاول والثالث ذات يوم.. وآمل أن يكون ذلك غير بعيد ... ! ولكن هذا يتطلب أن نتوقف عن أن نكون مستهلكين للتكنولوجيا ونهتم بالبحث العلمي والتصنيع وتطوير التعليم وأن لا نغفل قيمة وفاعلية الحكم الرشيد في هذا الأمر.

كل ما سبق ليس ألا تمهيداً رأيته ضرورياً كي أُعطي فكرة واضحة عن الجهود الجبارة التي بذلت كي استطيع أن أمضي أنا وغيري في هذه الرحلة الجميلة والمفيدة.. فأنا لم اعايش قطار عدن حتى تتاح لي فرصة ركوبه، إذ كان القطار قد توقف عن الدوران بعد الحرب العالمية الأولى بقليل.. لكن الحلم بركوب القطار لم يبارح مخيلتي.. وقد اثار اهتمامي أكثر بالقطارات ما كنا نشاهده في الأفلام عن رحلات القطارات ومحطاتها وحركة الحياة فيها..

توقف القطار .. لكن حركة الحياة لم تتوقف في "زهرة البركان".. عدن تلك المدينة البُركانية التي تجثو وترقد على ضفاف البحر وتستمتع برذاذ الماء ونسيم البحر وتقع عند أقدام جبال آسرة

وساحرة تأخذ بعقل ووجدان كل من يراها.. و التي تستمد حياتها وازدهارها من البحر، وكانت ثالث ميناء في العالم في فترة الاحتلال البريطاني لعدن[12]..

[12]– كانت عدن همزة وصل بين مستعمرات الشرق والغرب لدى الانكليز.. ومنذ القدم كانت همزة وصل بين الشرق والغرب ومعبراً تجارياً وحضارياً أساسياً في منطقة جنوب اسيا والجزيرة العربية وشرق افريقيا ولقد ورد أسمها في النقوش المسندية و في المصادر التاريخية القديمة اليونانية والرومانية كما ورد ذكرها في الكتب المقدسة كالتوراة وخاصة في سفر(حزقيال) وفي الانجيل أيضا.. وبعد دخول الإسلام إلى اليمن غدت أحد مصادر اشعاع الحضارة الإسلامية في مرحلتها المبكرة باعتبارها ميناءً هاماً، وسوقاً تجارياً الأمر الذي جعلها على الدوام محط أطماع القوى الاستعمارية من برتغاليين وأتراك وهولنديين و فرنسيين وأخيرا البريطانيين الذين أحتلوا عدن وجنوب اليمن لمدة تزيد عن 120 عام..

الرحلة الاولى

قطار موسكو

كانت المرة الأولى التي استقليت فيها القطار من مدينة موسكو إلى لينينغراد (سان بطرسبورج)[13] عام 1971م, بعد المشاركة في مؤتمر الحزب الشيوعي السوفييتي الرابع والعشرين (30 مارس– 9 أبريل).. رافقني في القطار عشرات الوفود من شتى قارات العالم قدموا مثلي من بلدانهم للمشاركة في هذه المناسبة الهامة.. وكانت وجهتنا جميعاً لينينغراد بعد أن قضينا عدة أيام في موسكو.. ارتبطت لينينغراد في أذهان ثوار وشعوب العالم بثورة أكتوبر الاشتراكية العظمى، كذلك اكتسبت اسمها الجديد تيمناً بقائد الثورة البلشفية لينين[14].. بدلاً من اسمها القديم (سان بطرسبورغ)

13– سانت بطرسبرغ (بالروسية: Санкт–Петербу́рг)، عرفت سابقاً باسم لينينغراد (Ленингра́д في1924–1991) وباسم بيتروغراد (Петрогра́д في 1914–1924)، تقع في شمال غرب روسيا، وتعتبر أحد أكبر مراكز أوروبا الثقافية، وقد حملت هذا الاسم تخليدا لمؤسسها القيصر بطرس أو بيتر الأول. وكانت عاصمة البلاد لاكثر من قرنين (1712–1732 / 1732–1918)، في أثناء قيام الامبراطورية الروسية حتى 1918. وسميت المدينة في الماضي بأسماء عديدة: بتروجراد(1914–1924)/ لينينغراد أي مدينة لينين أول زعيم سوفييتي. من مدينة سانت بطرسبرغ انطلقت قذائف البارجة أفرورا باتجاه قصر الشتاء معلنة بدء الثورة الروسية عام 1917. أسس المدينة القيصر بطرس الأول في 27 مايو، 1703 "كنافذة مطلة على أوروبا" ببناء قلعة ضخمة على نهر نيفا الكبير وسرعان ما تحولت إلى ميناء عسكري تجاري كبير وفتحت آفاق اتصال واسع مع الحضارة الأوربية وفي سانت بطرس بورغ تتم سنويا في فصل الصيف احتفالات ما يسمى بالليالي البيضاء والتي تستمر عشرة أيام حيث لا تغرب الشمس عن المدينة إلا قليلا دون أن يحل ظلام دامس وتجري في هذه الليالي حفلات موسيقية غنائية متنوعة لأكبر الفنانين والفرق الروسية والأجنبية الشهيرة. وفي هذه المدينة العديد من الجسور الضخمة المتحركة والتي تنفتح آليا وفق جدول زمني محدد لدى اقتراب السفن الكبيرة وهي تعبر نهر نيفا نحو بحر البلطيق أو بالعكس. وهناك عددا من كبار المسؤولين الروس جاؤوا من مدينة سانت بطرسبورغ إلى السلطة بمن فيهم الرئيس الروسي دميتري ميدفيدف والرئيس فلاديمير بوتن ويطلق عليهم اصطلاحا مجموعة بطرسبورغ السياسية.

14– فلاديمير البيتش أوليانوف المعروف بـ (لينين) 22ابريل1870م إلى 21يناير1924م.. ولد في مدينة سيمبرسك (تعرف اليوم باسم أوليانوفسك.. ثوري روسي، كان قائد الحزب البلشفي والثورة البلشفية، كما أسس المذهب اللينيني السياسي. لينين رفع شعار "الأرض والخبز والسلام".. خلال ثورة عام 1905 في روسيا. عاد لينين إلى وطنه ليشارك في التمرد ضد الحكومة. وفي عام 1908 توجه مرة

نسبة إلى مؤسسها القيصر الروسي بطرس الأكبر الذي عاش جزءً من حياته فيها.. ومنها قاد لينين الثورة .. ومنها وجهت الطراد (أفرورا) أولى طلقاتها نحو قصر الشتاء[15] (متحف الارميتاج) إيذاناً ببدء ثورة أكتوبر العظمى التي هزت عرش القيصر وقوضت إمبراطورية "آل رومانوف" الذين حكموا روسيا منذ العام 1613م.. وألف عنها الكاتب الأمريكي (جون ريد) كتابه ذائع الصيت (عشرة أيام هزت العالم)..

قصر الشتاء – سان بطرس برغ

الطراد السوفيتي افرورا

أخرى إلى سويسراوبعد ذلك سافر إلى باريس. وفي عام 1903م، بعد انقسام شهده حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي الروسي ترأس لينين الحزب البلشفي. ومع نشوب الحرب العالمية الأولى دعا لينين إلى تحويل الحرب العالمية إلى حروب أهلية ضد الحكومات الرأسمالية في الدول الأوروبية..بعد انتهاء الحكم القيصري في روسيا بانتصار ثورة 1917 وتولي الحكومة المؤقتة السلطة في البلد سمحت ألمانيا للينين مع مجموعة من أنصاره بالعودة إلى روسيا. وفي أكتوبر عام 1917 قاد لينين ثورة أدت إلى تولي الحزب البلشفي السلطة في البلد ونشوء الحرب الأهلية الروسية. وبعد هذه الاحداث وتكوين الدولة السوفيتية واجه لينين خطر الغزو الألماني ووقع اتفاقية سلام مع برلين. وفي عام 1918 تعرض لينين لمحاولة اغتيال من قبل "فانيا كابلان" التي كانت تنتمي لأحد الأحزاب المعارضة للينين، حيث اصابته بـ 3 رصاصات استقرت في كتفه ورئتيه لكن الموت لم يدركه .. ولكن سرعان ما أخذت محاولة الاغتيال وهموم إدارة الدولة نصيبها من صحة لينين فأصيب بالعديد من الجلطات القلبية التي أفقدته القدرة على النطق فابعدته عن أضواء السياسة. وبعدها عن أضواء الحياة وذلك في عام 1924. لينين من القادة التاريخيين الذين أثروا وغيروا العالم و مفهوم الحكم في العالم المعاصر وهو من أوصل العمال والفلاحين إلى السلطة لأول مرة في التاريخ المعاصر.

[15]– قصر الشتاء متحف الارميتاج: تعود ولادة متحف الارميتاج في سان بطرسبرج إلى النصف الثاني من القرن الثامن عشر، في عهد ازدهار الإمبراطورية الروسية في زمن القيصرة الشهيرة كاترين الثانية. يحتل متحف الارميتاج في سجل غينيس منزلة أكبر متحف للوحات في العالم، 1764م ويعتبر من أشهر متاحف العالم بتكوينه المعماري ومحتوياته الفريدة حيث يحتوي على قرابة ثلاثة ملايين لوحة فنية لكبار الفنانين الروس والأجانب إلى جانب موجودات وتحف متنوعة من الحلي وأوان وأدوات وتيجان القياصرة والأحجار الكريمة والأيقونات ولقيات وهدايا وتحف من كل مكان.

ارتبطت لينينغراد في أذهان العالم بثورة أكتوبر الاشتراكية العظمى، وبعدها بحصار لينينغراد خلال الحرب العالمية الثانية وبهزيمة القوات النازية بفضل صمودها الأسطوري[16].. إلا أن لينينغراد في أساسها مدينة الفنون المعمارية والمتاحف الجميلة.. فهي تحفة معمارية تتمتع بمستوى رفيع من فن العمارة الذي أنجزه مهندسون و بناءون يتمتعون بقدر عال من الذوق و الحس الجمالي..فشوارعها متحف مفتوح ومبهر لكل من يسير فيها.. وليست مثل المدن أو العواصم الحديثة الإسمنتية التي تغلب عليها الأعمال التجارية الفقيرة من أي بصمة جمالية. كانت الوفود تنتقل من عربة إلى عربة بقصد التعارف وإجراء الحوارات التي لم تستطع إجراءها في موسكو بسبب صرامة وزحمة البرنامج المعد، وعدم توفر الوقت الكافي حيث لم نكن نحظى إلا بوقت قصير إما لتناول الطعام أو للنوم في آخر نهار مرهق ومتعب وحافل بالعمل وقيود المراسيم.. وكان علينا الآن استغلال زمن الرحلة لتعويض ما فاتنا.

خلال تلك الرحلة تعرفت إلى الزعيم لويس كرفلان (الأمين العام للحزب الشيوعي التشيلي)[17] وكنا في طريقنا إلى لينينغراد في أطول رحلة بالقطار استمرت لساعات وجرى خلالها حوار مطول معه يعتبر أطول حوار في القطار تحدثنا فيه عن اليمن وتشيلي وعن حركات التحرر العربية والافريقية واللاتينية، وكنت أعتقد بأنه قد اطلع واقتنع بما حدثته عن التجربة في جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية وفي نهاية الحوار قال "**معلوماتي عن اليمن ليست كذلك، فأنتم حلفاء السعودية والرجعية والامبريالية**"[18] ومن الواضح انه لم يكن يميز بين وجود دولتين في اليمن حينها أحدهما في الشمال والأخرى في الجنوب والتي كنت رئيس وزرائها ووزير الدفاع فيها أنذاك، وكنا على علاقات ممتازة مع المعسكر الاشتراكي بينما كانت الشمال حليفاً للسعودية والغرب، فصعقت لتلك النظرة ولضياع وقتي سدى، وقد حاولت أن اوضح له مرة اخرى ولكن بعد ضياع الوقت والرحلة في هذا الكلام بينما كان الآخرون يلتقون ويتحدثون ويأكلون ويسمعون

---

[16]– استمر الحصار لمدة 872 يوماً وزادت الخسائر البشرية فيه عن مليون ونصف مليون قتيل وأكثر من 800 ألف جريح

[17]– واذكر هنا ان الدكتاتور التشيلي بينوشيه عندما أطاح بحكومة الليندي في 10 سبتمبر من العام 1973م، نعت أعضاء الحكومة الشعبية اليسارية المنتخبة، بأنهم «ليسوا من الشعب»، ما دعا الأمين العام للحزب الشيوعي التشيلي لويس كرفلان إلى كتابة مذكراته الشهيرة في السجن "شيء من حياتي"التي حاول فيها ان يثبت أنهم من عامة الناس ولم يأتوا من الفضاء الخارجي من دون أن يتحدث في السياسة، لتصبح هذه المذكرات برنامجاً سياسياً في تشيلي التي استردت عافيتها بعودة الحياة الديمقراطية إليها، فيما كانت العدالة تطارد بينوشيه داخل سانتياغو العاصمة، وخارج حدود تشيلي قبل وفاته كنتيجة طبيعية لكل دكتاتور يأتي إلى السلطة دون أن يفرح به أحد، ويغادر السلطة دون أن يحزن عليه أحد.

[18] - وكان البعض يخلط بين النظامين السياسيين في شطري اليمن قبل توحدهما وهنا اتذكر -مفارقة- ما كان قاله الرئيس التونسي الحبيب بورقيبه وهو يحذرني من الشيوعيين في الجنوب.

الموسيقى في اجنحتهم الخاصة، يذكرني هذا الموقف بما جرى بين الرئيس حافظ الاسد ووزير الخارجية الاميركي هنري كيسنجر بعد حرب عام 1973م بعد وقف حرب اكتوبر مباشرة لاجراء عملية تسوية، حينها حاول كيسنجر اقناع الاسد بضرورة حضور سوريا مؤتمر جنيف للسلام مع مصر واسرائيل، وعندما وجده مصراً كان رد الاسد: "**اذا كان الامر كذلك فنحن لا نمانع أن تلتقوا** "وفي نهاية اللقاء قال كيسنجر: **إلى اللقاء في جنيف** فكان رد الاسد "**إننا لم نتفق على المشاركة وانا اخبرتك أننا لا نمانع أن تلتقوا لكننا لم نقل أننا موافقون على الحضور**" وطلب كيسنجر مواصلة الحديث (واتفقوا على أن لا يتفقوا) وذلك بعد لقاء مطول استمر لساعات بين الرجلين. ومن المعروف أن الرئيس حافظ الاسد كان معروفاً بحنكته وذكائه وثقافته الواسعة ومشهوراً بلقاءاته المطولة مع المسؤولين العرب والأجانب الذين يلتقيهم ونذكر هنا محادثته الشهيرة مع وزير الخارجية الأميركي جيمس بيكر التي استمرت لأكثر من تسع ساعات كاملة، اصيب خلالها السفير الأميركي بالارهاق وطلب الانسحاب لاجراء محادثة مع الادارة الاميركية بينما في الحقيقة ذهب الى الحمام لقضاء حاجته لكن ذلك لم ينطل على الرئيس الاسد الذي قال لجيمس بيكر هل تود اجراء محادثة أنت الآخر مع البيت الأبيض وابتسم بيكر وواصلا الحديث.

كان الاسد معروفاً بمهارته البالغة وصبره في لقاءاته وحواراته.. وخاصة مع من يهم وطنه أمرهم... وبالنسبة لي لا اتذكر في تاريخ علاقتي الشخصية والرسمية مع الرئيس حافظ الاسد أنه حدد موعداً لي وبعده موعداً لشخص آخر، فقد سألني ذات لقاء بعد أن نظرت الى ساعتي بقلق بعد مرور ستة ساعات من اللقاء وهو يبتسم وقال هل انت مشغول: أجبته لا ، ولكنني أخشى أن لديكم التزامات كثيرة قال : عليك أن تعرف أنني عندما احدد لك موعداً لا ارتبط بموعد آخر !

لويس كرفلان

رحلة لينينغراد كانت رحلة رسمية أكثر منها ترفيهية، لذلك استغرق وقت الرحلة في التعرف على عدد من زعماء العالم الذين كانوا على متن القطار، وفي إجراء الحوارات معهم أكثر منه في الاستمتاع بمناظر الطبيعة وجمالها الأخاذ.. كنت ولازلت أؤمن بأن الحوار البناء مع الآخرين بهدوء وروية هو الأساس في تمتين العلاقات السياسية والاجتماعية ليس على صعيد الأفراد بل أيضاً على صعيد الدول..

أجمل ما في السفر بالقطار أنه يقطع بك مسافات الزمن وأنت غارق في مقعدك محدقاً عبر نافذته، وهو سائر قدماً بسرعة دون رجوع، في جمال الطبيعة وثوبها الباذخ يطوي مهاد الأرض وتضاريسها.. جبال.. وديان.. أنهار وبحار.. غابات وبساط أخضر.. وكل ما يتراقص أمامك من قرى.. بلدات.. مدن.. أراض بكل وكامل مكوناتها وقاطنيها من بشر وحيوان.. ولو كانت النافذة مفتوحة لربما شممت عبق الأشجار والأزهار.. ورائحة عطرها الممزوج برائحة الأرض.. وربما لفحتك نسمة هواء محملة برائحتها المعطرة.. تترك أثراً خاصاً مختلف الرائحة.

هذا ما أحسست به وعشته في رحلتي الجديدة قاطعاً بلدان أعرفها وأخرى جديدة.. مدناً زرتها وأخرى أَدخلها للمرة الأولى.. بدأتها من دمشق وانتهت بي في براغ قطعت فيها مسافات طويلة بالقطارات والسيارات.. أكثر من 5000 ألاف كيلومتر قطعت معظمها بالقطار الذي حملني في أرجاء القارة العجوز عمرا والمتجددة دوما من مدينة الى أُخرى في رحلة ساحرة وغنية..

من مدينة السحر الخالد الى مدينة النور

كانت بداية الرحلة من دمشق مدينة السحر الخالد التي لا يشيخ ولا يفت من جمالها تقادم السنين، أقدم عاصمة مأهولة في التاريخ.. يقول عنها آندريه بارو مدير متحف اللوفر الشهير بباريس: "لكل إنسان وطنان... الوطن الذي ولد فيه... وسورية"

(المال وطن من لا وطن له) كما يقول رجل الأعمال اليمني عبد الكريم بازرعة الذي يقيم في دمشق منذ حوالي 30 عاماً... ولكن هذا لم يكن حالي يوماً.. لأنني ارتبطت ومنذ زمن بعيد بعلاقة أخوة وصداقة مع شعبها ورئيسها الراحل حافظ الأسد ورئيسها الحالي بشار الأسد، في سوريا كنت في وطني.. وسوريا كانت دوماً وطناً لكل العرب.

من منزلي في يعفور إحدى ضواحي ريف دمشق الجميل أقلتني السيارة إلى المطار، لألحق بموعد رحلتي المتجهة إلى باريس بعد أن استيقظت في الساعة الخامسة والنصف صباحاً حتى لا يفوتني موعد الإقلاع.. امضيت وقت الانتظار في صالة التشريفات بسبب تأخر الطائرة عن موعدها لعطل فني أصاب "أجهزة الكمبيوتر" فيها.. هكذا قيل لنا..

هذه هي المرة الأولى التي أسافر فيها على متن "أيرفرانس"... لعل ما أغراني بذلك سمعة "الفرنسية" كواحدةٍ من أرقى شركات الطيران المدني في العالم.. لكن هذه لم تكن رحلتي الأولى إلى باريس..

تقلع الطائرة.. في الساعة التاسعة وخمس دقائق من صباح الأول من آب – أغسطس 2010 م.. اقلعت وحملتني إلى باريس...، وقضت قرابة خمس ساعات ونصف من الطيران حتى هبطت بي في مطار شارل ديجول. كانت الرحلة مريحة بصفة عامة.. لم نتعرض خلالها لمطبات هوائية إلا عندما حَلقت الطائرة على ارتفاع منخفض فوق جبال الألب قبل الهبوط بقليل...

كم مررت بتجارب في هذا المجال..؟ سافرت كثيراً في الجو... منها تجارب قاسية كيوم توقف المحرك الاول والثاني للطائرة الاميركية DC 6 ذات المحركات الاربعة ونحن في طريقنا

من لاهور في باكستان الى عدن عام 1974م ونحن في أجواء خليج عمان التي لم تكن تربطنا بها علاقات دبلوماسية انذاك، كابتن الطائرة قال لي انهم سيعملون على اصلاح العطل أو سنهبط في اي مطار خليجي لاصلاحها، ولكن هذا الخيار كان مستحيلاً فعلاقاتنا كانت مقطوعة مع الخليج وحدودنا مع عمان بعيدة ، ومطاراتنا في المهرة وحضرموت غير مجهزة لاستقبال الطائرات ليلاً، والطائرة تعمل بمحركين ما كان امامنا الا محاولة اصلاح الخلل أمرت بعدم اخبار أحد بالأمر.. وبقينا على أعصابنا... الى أن تمكن طاقم الطائرة من اصلاح الخلل .. تنفست الصعداء.. وانا التفت مبتسما إلى افراد الوفد المرافق خلفي... كانوا يضحكون ويتحدثون.. لم يعرفوا أننا جميعا كنا نواجه الموت.

وتكرر مثل هذا الموقف ونحن في طريقنا الى كوبا عام 1982م عندما هبطت الطائرة البوينغ 707 في مطار جزيرة سانت ماريا للتزود بالوقود لعبور المحيط الأطلسي الى الكاريبي، ثم اضطرت بعد اقلاعها الى الهبوط مرة اخرى بسبب وجود عطل منعها من مواصلة رحلتها الى هافانا التي ستستمر لمدة 6 ساعات . وهذه الحوادث كانت تتكرر بسبب عدم قدرة الدولة على شراء احدث الطائرات او حتى اصلاحها نظرا للحصار الذي كان يفرضه علينا الغرب ويرتاح له بعض العرب، يومها انتظرنا ساعات حتى تم اصلاح الخلل.. ثم تابعنا رحلتنا.

وبعد ساعة من الانتظار في مطار شارل ديجول تابعنا رحلتنا الى نيس ،وبعد نحو ساعتين من الطيران، هبطت بنا الطائرة في مطار "نيس" وكانت وجهتنا مدينة "كان"[19] جنوب فرنسا، على شاطئ المتوسط.. زمن قياسي.. حيث اختصرت الطائرات الزمن..

في مطار "نيس" كان في استقبالنا محمد علي أحمد.. الذي نقلنا الى فندق "نوفوتيل" الواقع وسط جبل يطل على مدينة "كان" المملوك لرجل الأعمال العُماني اليمني الأصل الصديق الشيخ أحمد فريد الصريمة[20].. وقد اشتراه في عام 1990 م من ثري عُماني.. وعملاً بشعاره الدائم الذي

---

[19]– **كان:** (Canne) مدينة فرنسية تطل على البحر الأبيض المتوسط تقع في الجنوب بالقرب من مدينة نيس، يبلغ عدد سكانها حوالي 70 ألف. عرفت كان بكونها مركزاً سياحياً للطبقات الراقية بالإضافة لاستضافتها سنويا" مهرجان كان السينمائي "خلال شهر مايو من كل عام، وفيها جوائز خاصة بالبرامج التلفزيونية مثل ميب تي في ميليا, MIPTV FEATURING MILIA في أبريل من كل عام وميبكوم MIPCOM في أكتوبر في كل عام، واستضافتها لكثير من المعارض والمهرجانات الأخرى.

[20] – احمد فريد الصريمة، عين الشيخ احمد فريد الصريمة محافظاً لمحافظة شبوة في جنوب اليمن وذلك بعد اعلان علي سالم البيض (نائب رئيس مجلس الرئاسة وامين عام الحزب الاشتراكي اليمني) الانفصال بتاريخ 1994/5/21م وسمي حينها بـ مونتغمري اليمن.

سمعته منه: "العقار هو الابن البار!" اشترى شقة في عمارة كان يسكنها رشاد فرعون وكمال أدهم وبن لادن على شاطيء مدينة "كان" بمليون دولار.. وفي خلال عشر سنوات فقط ارتفع سعرها إلى 8 مليون دولار، وهذا دليل على حسن اختياره ونجاح فلسفته.. يملك الشيخ الصريمة فيما يملك فندق "حياة ريجنسي" في عُمان، وعدة شقق في لندن.. "المهم أن تعرف كيف تختار الموقع ثم الموقع.. هكذا قال أيضاً.. وله أنشطة أخرى كشق وتعبيد الطرقات..

الصريمة.. رجل كَّون ثروته بالاعتماد على ذاته وعلى علاقاته المتعددة والمتنوعة التي اكسبته حنكة وسمعة طيبة واسعة في أُوساط الحكام والمواطنين ورجال الأعمال في اليمن والمنطقة.. وهو رجل كريم لا يبخل بتقديم المساعدات لكل محتاج من المرضى وطلاب العلم والفقراء وأُسر الشهداء.. وهو شجاع.. ومغامر لا يهاب الموت ولا الخسارة، ولا يخشى كثيراً على فقد المال، أو يحسب له حساباً بعد أن تعددت مصادر ثرائه وأرباحه وصار في مأمن من تقلبات الزمن على المال.. والعيال..

وفي احد لقاءاتي الخاصة مع الشيخ احمد الصريمة في كان، قال لي : انه بعدما انتقل من معسكرات الشرورة الى عمان لمحاربة النظام "الشيوعي" في عدن، حسب قوله، الذي يدعم جبهة تحرير ظفار استعين به من قبل السلطات والسلطان بالرد على احد العمليات العسكرية التي قام بها نظام عدن بتفجير احد القلاع على الحدود والتي كانت تتخذ كمقر عسكري، وهنا طلب منه أن يقوم برد مماثل ضد قواتنا على الحدود وحددوا له احد قلاعنا العسكرية في المناطق الحدودية مع السلطنة.

وقام مع احد خبراء المتفجرات البريطانين بتلك المهمة حيث فخخوا القلعة وفجروها وتم تصوير تلك العملية ونقلها الى السلطان في مسقط هناك الذي ابدى ارتياحه لنجاحها، وكانت هذه العملية بداية الانطلاق في حياته السياسية والتجارية، واصبح يحظى باهتمام واحترام كافة المسؤولين في السلطنة ومنح الجنسية العمانية، كما منح علي سالم البيض واولاده الجنسية العمانية في عام 1994م .

وهنا اذكر أيضاً حادثة مشهورة عن الصريمة كما حدثني.. فقد تناهى اليه خبر وجود سفينة محملة بالريالات السعودية المصنوعة من الفضة ((المكتوب عليها : ريال عربي سعودي واحد

ضرب في مكة المكرمة 1354هـ)) وكانت في طريقها الى السعودية عندما غرقت ابان الحرب العالمية الثانية في خليج عُمان وتمكن من حصاد حمولتها وهذا دليل على جرأة نادرة وروح مغامرة لانه وظف ذكاؤه وجرأته اعتماداً على مصادر شفهية وليس عن بحث ميداني..

مع الشيخ احمد فريد الصريمة في مكتبه في فندق غراند حياة مسقط، واهداني كتاباً الفه حول السفينة U S S BARRY DDG 52 – التي غامر بماله ليستخرج كنوزها المدفونة في قاع البحر بخليج عمان وفي الصورة السفير حسين الفضلي

نموذج من كنوز السفينة : ريال عربي سعودي واحد ضرب في مكة المكرمة 1354هـ

واخبرنا الشيخ احمد فريد في لقاء معه ان سفينة الحرية "جون باري" التي تعود ملكيتها للأخوة لايك، قد استأجرتها منهم البحرية الاميركية اثناء الحرب العالمية الثانية، وقد ابحرت "جون باري" بتاريخ 24 يوليو 1944م بقيادة القبطان "جوزيف ايلر وولد" من ميناء نورفلك في الولايات المتحدة الاميركية متجهة الى ميناء رأس التنورة في السعودية وكانت محملة بالريالات الفضية التي قدرت حينها بـ 26 مليون دولار وتزن 1200 طن من الفضة اضافة الى معدات حربية، إلا أن الوثائق تظهر وجود 3 مليون ريال بوزن 27 طن فقط، واثناء مرورها في بحر العرب تعرضت لهجوم بتاريخ 28 اغسطس 1944م من قبل غواصة المانية (U 859) واصابها طروبيد مما ادى الى غرقها في خليج عمان.

وفي عام 1990م تمكنت مجموعة "أوشن" المملوكة من الشيخ احمد فريد ونيابة عن حكومة سلطنة عُمان بالحصول على حق الانقاذ، وتم التواصل مع السيد كيث جيوب الذي سبق وان تمكن من استخراج الذهب من الباخرة ادنبره في العام 1981م للاستفادة من خبراته، وكانت أول مهمة هي تحديد موقع حطام السفينة التي تبعد مئات الاميال عن اقرب ميناء وبعمق 2600 متر، وتم اخذ كافة العوامل الطبيعية التي قد تغير مكان الحطام كالرياح الموسمية التي تهب في الفترة اكتوبر – مايو من كل عام وحركة المياه، وفي نوفمبر من العام 1994م تكللت الجهود التي جمعت بين التكنولوجيا المتطورة والتنظيم والموارد المالية بالنجاح حين ونجح الفريق في استخراج 1.600.000 قطعة فضية فيما تمثل 50 % من الشحنة.

ولأن الشيء بالشيء يذكر فقد اكتشف في محافظة ابين جنوب اليمن كنز من الذهب عندما كان احد الفلاحين يحرث ارضه بالحراثة من نوع (ماسي فيرغسون) المشهورة انذاك، وقد كشفت الرياح هذا الكنز من الذهب الذي صك في ايام الدولة الفاطمية في مدينة عدن وعندما علم الفلاحون والمواطنون ذلك، هرعوا اليه وجمعوا مئات من القطع الذهبية وبعضهم استخدم المنخل/ الغربال للبحث عن المزيد منها وقد قامت الدولة بارسال فريق من وزارة الثقافة والاثار لزيارة

الموقع ووضع الحراسة عليه وتم جمع ما تبقى من هذا الكنز واستعادة ما نهب من قبل بعض المواطنين وتعويض بعضهم وجمع الفريق اكثر من 1000 قطعة اودعت في المتحف ولكن لا أحد يعرف مصيرها بعد الحروب التي تعرض لها الجنوب بعد حربي 1994م و2015م.

فندق "نوفوتيل"[21] الذي أقمنا فيه عدد غرفه نحو الـ 200 ويعج بالسواح الذين يأتون إلى كان من جميع أنحاء العالم..

فندق نوفوتيل / مدينة كان

مدينة الأحلام

"كان".. مدينة الأحلام.. الشواطئ الجميلة على الضفة الأخرى للمتوسط.. كل شيء فيها جميل وساحر.. الفنادق.. المطاعم.. الساحات.. النساء.. الطرقات.. الطرقات الخاصة بالسيارات، والأخرى الخاصة بالمشاة.. الآلاف من مختلف الجنسيات، عربية.. أجنبية.. ومن الفرنسيين أبناء البلد يسيرون على الكورنيش باسترخاء.. الكل في إجازة.. تركوا بيوتهم.. مدنهم.. بلدانهم بحثاً عن الراحة والمتعة بعيداً عن متاعب حياتهم اليومية إن وجدت.

[21] Novotel Cannes Montfleury فندق ذو 4 نجوم يقع قرب منطقة Parc Montfleury السكنية، ويقع على مسافة 10 دقائق من شاطئ.Croisette، ويملكه رجل الاعمال الشيخ احمد فريد الصريمه

"كان" أكبر موقع سياحي في فرنسا يختصر الاجناس، العالم، الرجال، النساء، الأزياء، الموضة، السينما، الفن، في "كان" لا تسمع أحاديث في السياسة، وتعقيدات الواقع، وكأن الجميع قد اتفق على أنه لا أحاديث جادة، وأن "كان" خلقت للمتعة وللترويج وليس لوجع القلوب بالسياسة.

في كل مكان لا تسمع سوى الضحكات.. الحديث الهامس.. المرح.. الموسيقى.. الأغاني.. السواح موجودون هنا بكثرة، بمن فيهم السياح العرب الذين تسمع اصواتهم المرتفعة .. أغلبهم من الأثرياء ومشاهير الفنانين وغيرهم . ولا تستطيع أن تميز بينهم وبين الأجانب إلا بالعطور و البخور[22] . والذي يصدر معظمه الى مناطق الخليج العربي واليمن من مناطق شرق آسيا وخاصة فيتنام وإندونيسيا والهند وكمبوديا وتايلند وهذه البلدان تنتج البخور ونحن نستخدمه كما هو الحال في العطور الفرنسية وغيرها التي تنتج في اوروبا وتستخدم في المنطقة العربية ... ويقدر ماينفق على العطور والبخور بحوالي 10 مليار دولار سنويا في الخليج واليمن.

الشاطيء أينما مددت نظرك مليءٌ باليخوت.. القوارب السريعة، التي تجوب المتوسط، مثلما هي مليئة بالفتيات اللواتي يرتدين الـ "هوت شورت".. وحتى بعض الشواطئ الرملية الجميلة التي تكتظ بالالاف من السواح من كل الجنسيات ومن كل انحاء العالم للاستمتاع بالشمس والرمل والبحر الدافيء.. يفترشون هذه الشطئان بالمايوهات وأحياناً بدونها..

وليالي "كان" متميزة، فالمطاعم والمقاهي.. والطرق والشواطيء دائماً مزدحمة يمتزج فيها الضحك بالموسيقى.. بالرقص. إنها مكان يلجأ إليه الأغنياء والمشاهير للاستمتاع بلحظات متعة بعيداً عن صخب المدن والتلوث إلى بحر وسماء أقرب إلى الجنة! لكنها جنة مدفوعة الثمن ومكلفة..

[22]– توقع تقرير عام 2013 للجمعية العربية للعطور زيادة سوق العطور بالشرق الأوسط الى عشرة مليارات دولار بحلول عام 2015 مع بلوغ متوسط قيمة استهلاك الفرد في المنطقة من العطور سنويا بما يقدر بمبلغ 380 دولار.

لكن ليس على أمثال هؤلاء.. في النتيجة أنت في "كان".. قطعة من السحر والضوء.. من فرنسا.. بقعة سياحية تسترخي على ضفاف المتوسط.

هؤلاء الناس يأتون الى كان كي ينسوا همومهم الشخصية أو مشاكلهم العائلية.. ويعودون الى أعمالهم وبيوتهم وهم أكثر نشاطاً وصحة وتفاؤلاً بغدٍ أفضل وفي انتظار العطلة التالية.. إن أغلب الذي يسافرون للسياحة خارج بلادهم يعيشون في أمان نسبي.. تتوفر فيه شروط الحياة المرفهة والناعمة بعيداً عن هموم السياسة والحكم والحكام وبعيداً عن عيون مواطنيهم.. ربما لأن بلادهم تدار بديموقراطية بعيداً عن الفساد والدكتاتورية.. وسرقة ثروات بلدانهم إلى خزانات بنوك العالم من دون رقيب أو حسيب.. أما نحن فلا يمكن أن يجتمع يمنيان على طاولة، أو في مجلس دون أن يكون حديثهم سياسيا عن هموم وطنهم.. قضايا شعبهم، وما يعصف بهما من أزمات إلى حد يصعب السكوت عنه. وعن مصدر متاعب الوطن والمواطن فما بالنا إذا كان المجتمعون جميعهم من السياسيين، وجميعهم خارج وطنهم!!..

مهرجان كان السينمائي :

اثناء زيارتنا لكان، زرنا اهم معالمها التاريخية والسياحية والثقافية ومنها قصر المهرجانات في شارع لاروازييت الشهير في منطقة خليج كان حيث يقام فيه سنوياً مهرجان كان السينمائي وهو أحد أهم المهرجانات السينمائية عبر العالم. ويرجع تأسيسه إلى سنة 1939 ويقام كل عام عادة في شهر مايو، ويتميز المهرجان بالحضور السينمائي الكبير والمتنوع ويلتقي هذا الكم من السينمائيين من جميع أنحاء العالم في وقت واحد. ويتميز المهرجان بالتجديد والقدرة على مواكبة الموجات الفنية الجديدة، بل ودعمها، وربما خلقها في رحم المهرجان وأروقة الدورات، كما يتميز المهرجان كذلك بتنوع جوائزه من عام لآخر مع استقرار الجوائز الأصلية للمهرجان ، ويحضره عدد كبير من النجوم والمشاهير الذين يشاركون ضمن برنامج حافل بين عروض لنخبة من الأفلام العالميّة وجلسات تصوير ومؤتمرات صحافيّة وسهرات تجمع بين أهمّ الشخصيات السينمائيّة في العالم، اضافة الى تنافس النجمات في استعراض جمالهن واناقتهن وازيائهن التي

يصممها اشهر المصممين ونشاهدها من خلال الصور التي تلتقطها عدسات التصوير اثناء مرورهم على السجادة الحمراء.

اليمن...في كان

لم ننس اليمن حتى ونحن في "كان" كان حديثنا في مجمله عن اليمن..الأزمة التي تمسك بتلابيبه والتي بلغت أقصى حدودها.. في طبيعة الأزمة، وما تسببه من معاناة شديدة على الناس والتداعيات و المخاطر التي يمكن أن تؤدي إليها إذا ما استمرت دونما حل.. تناقشنا في حلول للخروج منها وبالطبع ألقت القضية الجنوبية بظلالها على حوارنا وعلى حياتنا في كان بكل

ما تشكله من أهمية وأولوية وما يحيط بها من صعوبات وعراقيل ومن هموم إنسانية تطال شعبنا هناك ومن تعسفٍ وتمييز وأمور أخرى كرسها اللا نظام منذ حرب صيف 1994م.

من الطبيعي في وضع كهذا أن تعلو أصواتنا من غير شعور.. طريقة حديثنا تدل على أننا ننتمي إلى ثقافة أخرى فيما الآخرون يتكلمون فيما يشبه الهمس إلى درجة لا تسمع لهم صوتاً.. بما يعطي الانطباع بأننا جديدون على "كان".. على المكان بهذا السلوك.. بعض العيون تحملق بنا، إما مستهجنة، أوفي فضول لتستكشف من أين نحن؟ ربما لم يفهموا شيئاً مما كنا نقوله، لكنهم خمنوا من سحناتنا السمراء أننا ننتمي إلى المنطقة العربية.. إلى ثقافة أخرى.. إلى جزء من ذلك العالم الذي يسمى تهذباً بالعالم الثالث.. ولا يتحرج البعض من تسميته بالمتخلف والمضطرب سياسياً وأمنياً ولكنهم ولو عرفوا حجم مأساتنا ومعاناتنا لعذرونا.. نحن ننتمي إلى هذا العالم في نهاية المطاف.. ربما أثر الأوروبيون جزئيا في نمط حياتنا عبر عقود طويلة من الاستعمار لبلداننا وشعوبنا، بما أدخلوه من أفكار ومجموعة قيم وعادات تختلف جذرياً عن عاداتنا وتقاليدنا.. لكن ليس إلى حد كبير.. لأنه يظل في نفوسنا... وسلوكنا أشياء غير قابلة للتكيف.. شيء له علاقة باختلاف القيم... الثقافة... الحضارة... ومستوى التطور... وبالإرث الإجتماعي... العادات والتقاليد المكتسبة.. وربما الجينات وتكوين أجسامنا وطريقة تعاملنا مع الطبيعة التي تختلف أختلافا جذرياً عما الفوه وورثوه.

في حين كان الأوروبيون يتحدثون بصوت هامس إلى بعضهم سواء أثناء السير، أو خلال تناول الطعام في مطعم الفندق، بلباقة وطلاقة، ولكن بهدوء وروية.. علت أصواتنا في المطعم الذي كنا نتناول فيه طعامنا في أول يوم لنا في مدينة كان.. فعكرنا بأصواتنا المرتفعة.. وفي تلقي المكالمات الهاتفية، والرد عليها بأصواتنا العالية صفو ذلك المطعم الفرنسي الهادئ، وزبائنه دون أن نقصد.. وهو أمر له علاقة على ما أعتقد بالسلوك المكتسب وباختلاف طبيعة كل منا عن الآخر..

لم يكن عددنا يزيد عن أربعة .. حيدر العطاس، والشيخ أحمد الصريمة، ومحمد علي أحمد، وكاتب هذه الذكريات.. ما كان يشغلنا هو ما يحدث هناك في بلدنا.. فلم ننتبه إلى طبيعة المكان، أو ما يمكن أن يكَّونه الآخرون عنا من انطباعات.. لم تكن الكياسة هي ما ينقصنا.. كنا تحت ضغط الهم الذي كنا تحت تأثيرهُ وابعدنا عن آداب حديث ناس العالم الأول!

لم تكن اللقاءات والمشاركات التي أجريناها في "كان" هي الأولى، فقد أجرينا مثلها في عدة عواصم عربية كدمشق والقاهرة وبيروت ودبي خلال الفترة الأخيرة، لتعذر إجراء مثلها في داخل الوطن... وتمخض عنها لاحقا برنامج للتغيير اتفقت عليه كافة الأطراف في الداخل والخارج .

ربما يسألني البعض لماذا الاستفاضة في شرح ما يحدث لكن هذا الشرح ليس سوى المدخل للحوار وللتجربة التي مر بها اليمن منذ الوحدة وحتى ساعة اجتماعنا في كان الذي تمخض عنه الاتفاق على مشروع لحل القضية الجنوبية حلا عادلا يرتضي به شعب الجنوب والذي أرسل لعلي سالم البيض الذي كان يقيم في النمسا حيث اقترحنا عليه حينها اللقاء لمناقشة هذا المشروع، ولكنه رفض الفكرة والمشروع بكامله كما هي عادته وأي التزامات مالية تجاه دعم الحراك الجنوبي وأُسر الشهداء والمتضررين من الأحداث التي كانت تجري في الجنوب ..!! وكان الشيخ احمد الصريمة قد اقترح مبلغ 25 مليون دولار لدعم الحراك يدفع علي البيض منها 15 مليون دولار وهو يلتزم بدفع مبلغ 10 مليون دولار ولكنه رفض، وهذه الأموال ليست من أموالهم الشخصية ولكنها من أموال الحرب التي دفعتها دول الخليج من أجل انفصال الجنوب عن شماله قدرت بمليارين دولار عام 1994م وجرى اقتسامها بين قادتها أو كما يسميهم البعض حمراء العيون[23] والشعب هو من دفع الثمن. وبعد هذه اللقاءات في كان غادر كل من الشيخ أحمد فريد الصريمة ومحمد علي أحمد إلى لندن.. وألتحق بهما حيدر العطاس.. للقاء رئيس مجلس الحوار الوطني الاستاذ محمد سالم باسندوة.

[23] كان علي سالم البيض رئيساً في حكومة الانفصال وحيدر العطاس رئيساً للوزراء ومحمد علي أحمد وزيراً للداخلية وأحمد الصريمة محافظاً لشبوة.

كما جاءت توكل كرمان الى كان بدعوة من الشيخ احمد الصريمة لأنها كانت تتعاطف حينها مع الحراك الجنوبي.. وفي اللقاءات التي اجريناها معها أكدت على أهمية نقل الحراك السلمي من الجنوب إلى الشمال لأسقاط النظام في صنعاء التي انطلقت منها لاحقا ثورة التغيير في عام 2011 كما كانت تتعاطف مع المهمشين من "الجعاشن"[24] الهاربين من ظلم الشيخ محمد أحمد منصور في محافظة "إب" وكانت قضيتهم الانسانية من أحد العوامل التي نالت بسببها جائزة نوبل للسلام بالتشارك مع سيدتين افريقتين وقدم الشيخ أحمد الصريمة الدعم لها لمواصلة نشاطها السياسي والاجتماعي. وبعد ذلك توكلت توكل كرمان الى صنعاء.

لا براميل ... لا حدود

بعد لقاءات "كان" غادرت إلى مدينة "سان ريمو" الإيطالية القريبة من الحدود الفرنسية.. بناء على نصيحة أحد الأخوة .. ذهبنا بالسيارة عبر شبكة من الانفاق والجسور التي لولاها لاحتاج المرء إلى عدة ساعات لقطع هذه المسافة بين المدينتين فيما الرحلة كلها لم تستغرق منا سوى 30 دقيقة فقط..

الجبال التي كانت تبدو غامضة.. عصية.. غريبة كأنما تخفي أسراراً ضبابية، لم تعد أمام الانسان بتلك القسوة، ولابنفس الغموض.. تكونت بينها وبين الإنسان علاقة وطيدة.. لم تعد صامتة لاتشي بما تخفيه من أسرار..

هكذا هو الإنسان يصنع في كل يوم معجزة جديدة للسيطرة على ما أمكنه من الطبيعة، فهو طاقة كامنة لايمكن معرفة حدودها ويختزل الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه قدرة ومكانة الإنسان بقوله:

---

[24] - **مهجري الجعاشن** : حيث حصلت قبل سنوات عملية تهجير قسري لعدد من ابناء الجعاشن مديرية "ذي سفال"، وكان سبب التهجير هو الاضطهاد الذي قام الشيخ احمد محمد منصور النافذ في هذة المنطقة من اضطهاد واهدار لكرامة الانسان هناك كما قام بمطاردة المواطنيين الذين لا يخضعون لسلطتة وقبض على البعض منهم واودعهم سجون خاصة، وكل ماحصل للمواطنين في الجعاشن كان بعلم الدولة التي لم تقم باي إجراء لمنع البطش الذي تعرض له المواطنين هناك بل ربما وفرت الدولة والرئيس علي عبدالله صالح شخصيا الذي كان يوفر للشيخ السلاح والحماية الغطاء اللازم ليمارس هذا البطش ضد المواطنين، كل ذالك كان هو سبب النزوح لأبناء الجعاشن. ومع الأسف أن قضيتهم الانسانية هذه استخدمت من أجل معارك اعلامية وسياسية ولم ينالوا أي حقوق بعد ثورة فبراير عام 2011 مثلهم مثل الحراك الجنوبي السلمي والقضية الجنوبية وقضية صعدة في هذه القضية لعبت توكل دورا محمودا في خلق وعي وطن لمحنتهم.

كل شيء في هذه الجبال فاتن، تنتابني مشاعر فرح ودهشة واعجاب بهذه الجسور المعلقة.. شعور سعادة من يراها لأول مرة ويحتاج إلى وقت لكي يستوعبها ويتعودها.

الطريق تبدو مثل لعبة محكمة.. بين تسلق الجسور المعلقة ونزول الأنفاق المحفورة داخل الجبال، حيث تغيب في الأسفل وأنت معجبٌ بهذا العمل المتقن الذي يختصر المسافات بين المدن والبلدان.. المسافات التي تبدو بعيدة، أو لا يمكن الوصول إليها إلا بشق الأنفس صارت قريبة وسهلة الوصول بفضل إرادة الإنسان وإبداعه..

ألغى الأوروبيون الحدود بين بلدانهم.. لا نقاط حدودية.. لا جمارك.. لا جوازات.. لا تفتيش.. ولا جنود أو درك.. ولا رشوات ولا ابتزاز ولا اهانات ولا تهريب لجنود وضباط واداريي الجمارك على النقاط الحدودية.. لاخشب ولا براميل كما كان الحال في اليمن قبل الوحدة وبعدها .. والتي استبدلها النظام بعد الوحدة وبعد علم 1994م بمئات نقاط التفتيش وحواجز الاسمنت والأطقم العسكرية بين كل محافظة وأخرى.. وكل مدينة وأخرى.. وكثيراً داخل المدينة الواحدة بصورة أسوأ من البراميل في "الشريجة" و"كرش".. الأسوأ من هذا أنه زرع الحدود في النفوس بين أبناء الشعب بخلق أقلية ثرية مصت ضرع الدولة حتى نضب وفي الجنوب قصدا.. بسياسة الاقصاء والتميز والتهميش والطائفية واستقطاب الفاسدين من الموالين للنظام.

الحال ليس أفضل بين الدول العربية التي تفصل بينها حدود لا يمكن تجاوزها.. دونما عراقيل وصعوبات واجراءات.. فرجال الجمارك وحرس الحدود لك بالمرصاد حتى لو كنت تحمل تأشيرة دخول.. يدققون في هويتك.. وجهك.. صورتك على الجواز.. يفتشون في حقائبك وعيونهم على جيوبك.. على أغراضك.. أوراقك.. ولا مانع لديهم أن يستولوا على بعض ما تملك حتى يأذنوا لك بالدخول بدون عراقيل.. أو بدون " سين" و"جيم" إضافة إلى الروتين وضياع الوقت وفتح الأبواب أمام الرشوة.. الفساد.. والتهريب.. أنها حالة مستعصية تدعو إلى الغضب والحزن.. لا يمكن تحقيق تقارب بين الدول العربية بدون انتقال حر وآمن للناس والبضائع والأفكار، ناهيك عن تحقيق الوحدة بينها.. أقصى ما يحلم به العرب اليوم هو تحقيق الحد الأدنى من التضامن العربي بعد أن تراجع الحديث عن الوحدة العربية إلى أدنى المستويات، بعكس

الأوروبيين الذين استطاعوا تحقيق وحدتهم الإقتصادية وقدر كبير من سياستهم الخارجية، ووحدة العملة "اليورو" والغاء التأشيرات والحدود بينهم وتسخير الإمكانات المادية والبشرية والتشريعات القانونية لصالح الإنسان الاوروبي ورفاهيته.

بينما العربي لا يدخل بعض البلدان العربية الا بتأشيرة دخول (الفيزا) واذا كان البعض من العرب يحمل جنسية اجنبية فيدخل بدون تأشيرة او تفتيش حتى وان كانوا اخوان فاصبح معظم العرب يحلمون بالحصول على جواز سفر اجنبي والبعض منهم يرسلون زوجاتهم لتلدن في اوروبا او اميركا وكندا أو أجوائها حتى يحمل جنسية هذه الدول التي ستنزل خيرا عليه وتفتح أمامه الابواب من الحدود حتى فرص العمل.

مدينة الزهور....

وصلنا إلى "سان ريمو" قاطعين الحدود بين فرنسا وإيطاليا دون أن يوقفنا أحد ولم نعرف ذلك إلا عبر رقم الموبايل الإماراتي الذي تصلنا رسائل عبره بالترحيب وأننا دخلنا من بلد إلى آخر... كل ما يفصل بينهما أمكن اختزاله إما بجسر أو نفق بعد أن ألغى الاتحاد الاوروبية كل الاجراءات من هذا النوع بين بلدان القارة الاوروبية.. وأنا أرى هذا كنت أتحسر على أوضاع بلادي العربية، وأنشد لها الهداية..!!

لم يكن أمامنا إلا وقت قصير للمكوث في "سان ريمو"[25] وهي مدينة ايطالية جميلة تحتضن المتوسط بشاطئ جميل لها طابع فرنسي اكثر منه ايطالي نظرا لقربها من فرنسا ويرتادها الألاف

[25]– **سان ريمو (Sanremoأو San Remo)**, مدينة شمال غرب إيطاليا، في غرب إقليم ليغوريا وهي رابع أكبر مدن الاقليم بعد جنوة ولا سبيتسياوسافونا، وتقع ضمن مقاطعة إمبيريا قريباً من الحدود الفرنسية وتبعد عن مدينة إمبيريا 24 كم، تقع بين ساحل خليج صغيرة في البحر المتوسط والجبال، يعود تاريخها إلى العصر الروماني، تشتهر بالسياحة على ساحل الرفييرا وزراعة الزهور، كما تستقبل العديد من المهرجانات الثقافية السنوية أهمها مهرجان الأغنية الإيطالية، ومهرجان الزهور (Sanremo in Fiore) ومنه جاء لقب مدينة الزهور (Città dei Fiori)، كما تسضيف جولة من بطولة العالم لسيارات الرالي، عدد سكانها 57.120 نسمة ويوجد بها معهد القانون الدولي الإنساني الذي يستقبل الدارسين العسكريين والمدنيين من جميع أنحاء العالم كما توجد بها فيلا (الفريد نوبل) مكتشف الديناميت وصاحب الجائزة العالمية الشهيرة (جائزة نوبل).

من السواح الفرنسيين والاجانب.. تناولنا وجبة غداء كانت رائعة جداُ من السمك تحت شجرة كبيرة في احد مطاعمها الجميلة والهادئة واغتنمنا الباقي من الوقت للتجوال في شوارع المدينة.. كل ما فيها جميل جداً.. ترفل بالخضرة.. الجمال.. النظافة.. الترتيب.. والحضارة ويستطيع المرء التآلف معها بسرعة وسهولة، ومع محيطها الإنساني والمعماري والطبيعي.. سحرها مميز.. وقعها منعش للقلب والعين.. وهو ما كنت احتاجه بعد الاقامة في مكان واحد أكثر من اسبوع، والانهماك في اللقاءات.. المناقشات المطولة، حول تعقيدات الأزمة اليمنية المستفحلة، وسبل الخروج منها وأعتقد أننا استطعنا عبر هذه اللقاءات، وأخرى قبلها بلورة رؤية محددة لإحداث التغيير المنشود.. ولكنه جرى الالتفاف بعد ذلك على الحراك في الجنوب وعلى ثورة التغيير في صنعاء.

ميناء سان ريمو

موناكو... جنة الأثرياء..

إمارة موناكو.. أو مونت كارلو[26] التي عدنا عبرها إلى فرنسا هي مدينة الأغنياء.. يقصدها الملوك.. الأمراء.. والأثرياء من جميع أنحاء العالم، فهي منتجعهم السياحي. طبيعتها جبلية تحاذي الرفييرا الفرنسية والحدود الإيطالة الغربية. تبعد نحو 18 ميلاً عن "نيس"، كما تقع تحديداً عند بداية هضاب جبال الألب.. أعلى مرتفعاتها يبلغ 1400 متراً، وتشتهر إلى جانب ثرائها الفاحش بوجود كاميرات مراقبة (رادارات) في شوارعها، وفي كل مكان تقريباً، وهي ثاني أصغر دولة في العالم بعد "الفاتيكان".

مونتي كارلو عند الغروب

ونحن نهبط بداية جبال الألب، لاحت لنا موناكو بقصورها الفاخرة.. فيلاتها المزروعة التي تربض هادئة فوق الهضاب الكثيرة في سلسلة جبال الألب في تحد واضح لكتل الصخر.... تكشف لنا عن نفسها تدريجياً.. عن بذخها.. ثرائها الفاحش الذي يعكس مستوى غنى ملاكها من الملوك.. الأمراء.. وأصحاب المال فهي منتجع سياحي يأتي إليه الملايين من الناس من كل أنحاء العالم، على اختلاف جنسياتهم.. أديانهم.. ألوانهم.. لغاتهم فأنت تسمع فيها كل اللغات تقريباً، لكن الفرنسية، والانجليزية، والايطالية هي السائدة أو الطاغية..

---

[26]– **مونت كارلو** هي إحدى المناطق الإدارية الموجودة في إمارة موناكو على ساحل البحر المتوسط. العاصمة الرسمية لموناكو هي (موناكو فيل) . "Monaco–Ville"مدينة موناكو، تأسست مونت كارلو في العام 1866 ومعنى الاسم بالإيطالية "جبل كارلو" والذي سمي تيمنا باسم شارل الثالث أمير موناكو بين عامي 1856 – 1889. والجبل يقع على حافة سلسلة جبال الألب البحرية حيث تقع المدينة.. تعتبر مونت كارلو واحدة من أهم وأفخم المنتجعات السياحية العالمية. وتشتهر مونت كارلو بكازينوهاتها الشهيرة، كما تعرف بالقمار وكذلك بالحياة المترفة، وتوافد الأثرياء والمشاهير إليها من أماكن مختلفة حول العالم. وبما انني اكتب عن القطارات فان مونت كارلو كانت متصلة بشبكة الترمواي بمدينة نيس القريبة من العام 1900م الى العام1955م. تبلغ مساحتها 0.7 ميل مربع وعدد سكانها 30837 نسمة.

توقفت بنا السيارة بالقرب من كازينو مونت كارلو.. ترجلنا منها وأخذنا نلقي نظرة عليه، وعلى دار الأوبرا.. أمام الكازينو وحوله مئات السيارات من أحدث الموديلات.. أفخمها، وأغلاها سعراً مما يعكس ثراء أصحابها.. "الفراري"، "البورش"، "بوجاتي"، "مرسيدس"، "B M W"، "ليكزس" وغيرها من آخر ما انتجته مصانع السيارات في الولايات المتحدة وأوربا والتي لا يقدر على اقتنائها غير أمثال هؤلاء الموجودين في الداخل يمارسون متعهم في لعب القمار.. احتساء الخمور الغالية.. البحث عن الحسناوات.. وما خفي كان أعظم!

كازينو مونتي كارلو الشهير

الإنسان بطبعه شديد الحب للمال.. وللجمال. لا أحد يعرف سر هذا التوله بهما... ربما هو شيء فطري يخلق معه. لا يختلف الأمر في قديم الزمان عنه في عصرنا الراهن! وحتى في العهود الإسلامية التي فتحت العالم تحت راية الإسلام كان الوله بالمال والجمال حاضرا ولعل قصور الدولتين الأموية والعباسية وبلاد الاندلس وتاريخ أمرائها أكبر شاهد على ذلك.

المشهد الذي رأيته دليل على هذه الحالة المتجددة عبر العصور والازمان.. عشرات الشباب من الجنسين يلتفون باعجاب، (وربما بمزيج من الدهشة والفضول والحسد) حول تلك السيارات الفارهة.. يصورونها.. يتصورون معها، وفي النفس حسرة! على الأقل إذا كان ليس بوسعهم شراء مثلها، فعلى الأقل يستطيعون أخذ صور معها للذكرى أو الحلم بامتلاك مثلها في يوم ما ..!

الطبيعة وحدها تعيد اليك حالة التوازن التي تحتاجها. الملايين التي تبذر هنا في مثل هذه الملاهي بسفه، وفي غيرها من المنتجعات السياحية في أوروبا وفي تايلند (بانكوك) وسواهما، منهوبة من عرق الفقراء أبناء شعوبنا العربية، وشعوب أخرى يموت الملايين منهم من الفقر والمرض والجوع ! وتعيش أكوام من البشر في المقابر وعلى صفائح لاتقيهم حر الصيف ولا برد الشتاء .. ومن ينجو يموت بسبب الحروب وما اكثرها في بلادنا العربية.

شعرت بأنني غريب عن هذا العالم.. عن كل ما فيه.. أتفرج عليه من بعيد.. القصور الفارهة.. السيارات الباذخة.. الناس.. الشبان.. الفتيات، في انطلاقتهم.. وتخففهم من الملابس.. أسلط أضواء خفية على أمزجتهم المرحة، دون أن أشاركهم في شيء، لم أكن أملك سوى متعة

النظر المجانية والتأمل والمقارنة. دونما عناء كبير، أدركت التباين الزماني /زمني وزمنهم/ والمكاني والحضاري والقيمة بيننا وبين هؤلاء القوم الذين نشيد بهم في السر والعلن.

علقت بالطبيعة في موناكو، لعلها تمنحني الروحانية وسلام النفس وسط هذا العالم المادي.. يغمرني احساس الفرح والبهجة، اسرح في تلك الرؤية وتموجات الألوان.. لا شيء أكثر سحراً وروعة من طبيعة جميلة.. وحدها يمكن أن تعيد إلينا الحقيقة وأصلنا الإنساني.. جئنا منها، وذاهبون إليها في نهاية الأمر دون أن نأخذ منها شيئاً!!.. لا قصور ولا مال ! ولكننا خلال ذلك نعيش حياتنا كيفما كانت، وكلما تقدمنا في الحضارة ننسى أصولنا.. من نحن؟ ومن أين أتينا؟ المهم في كل الأحوال هو محاولة إيجاد توازن بين الإنسان والطبيعة..

الفتيات ما زلن هناك لا تنقصهن الحشمة.. يتأملن السيارات الفارهة بهوس.. يخلقن تعاطفاً مع واجهاتها الأمامية والخلفية.. يتأملن زجاجها الشفاف.. يلتقطن الصور لها ومعها، وهن يقفن في أوضاع مصطنعة، تبرز مفاتنهن بنعومة بالغة.. فتحتار أيهما الأجمل.. الصبايا.. أم الفراري، البورش، الأودي، أو المارسيدس؟! لكنك لن تحتار في الحكم على أن كل الناس هنا ليسوا من الأثرياء برغم أن الجينز قد ردم الفجوة بين الاغنياء والفقراء في المظهر فقط.

مئات الفتيات يتجولن في شوارع موناكو.. وأمام فندق "دي باري" الذي يقطنه كبار الأثرياء.. الملوك.. الأمراء.. الزعماء.. رجال المال والأعمال.. ومشاهير الفنانين، لعلهن، أو بعضهن على الأقل يحظين بصحبة بعض هؤلاء فتنفتح لهن طاقة القدر كما يقال!

بجانب فندق "دي باري" عمارة أخبرني أحد المرافقين أن قيمة الشقة الواحدة فيها يبلغ 200 مليون جنيه استرليني.. ومالكاها هما الأخوان "كاندي" وهي من أغلى الشقق في العالم.

يعد شارع أو جادة "الأميرة غريس" في موناكو أغلى شارع في العالم، ويصل سعر المتر المربع إلى 200 ألف دولار تقريباً.. وثمن البنتهاوس the Penthouse المؤلف من أربع غرف نوم في نفس الشارع يصل إلى 50 مليون دولار..

البنت هاوس

في حين يصعب الحصول على عقارات للبيع في شارع "شين دي سينت هو سبيس"، الذي لا يبعد أكثر من 30 ميلاً عن موناكو، بسبب قلتها، وهو من الشوارع المرغوبة بالنسبة للكثير من الأغنياء لموقعه الهام على البحر الأبيض المتوسط.

في إمارة كهذه, سعر الشقة الواحدة فيها هكذا، ماعليك سوى أن تفتح فاك وتصاب بالدهشة.. أو بالصمت الصاعق.. وأن تشرب القهوة مثلي في "كافيه دي باري".. هذا وحده المتاح لنا في هذه الإمارة الباذخة الثراء التي لم تخلق لأبناء العالم الثالث الفقراء، أو من متوسطي الدخل فيه بمقاييس هذا العالم وليس عالم موناكو... موناكو ديس لا غنى عنه في أهمية العدالة الاجتماعية لأن ليس كل من فيها كسب ثروته بعرق جبينه.

في زحام المقهى أخذنا نبحث عن كراسي شاغرة.. في مكان ما رأينا أحد الأصدقاء، نهض من مقعده، أسرع للسلام علينا وقدم لنا فتاة قال أنها ابنته.. ولكنه نسي أو تعمد أن لا يعرفنا إلى الحسناء الأخرى التي كانت برفقتهما. بدون أن أسأله، أخبرني أنه قدم إلى موناكو برفقة أحد الأثرياء العرب.. وأنهم يمضون نهارهم في مونت كارلو، ويقضون الليل في "كان" ثم ينتقلون إلى اليخت الذي يملكه ذلك الثري مع بقية الحاشية لإكمال بقية السهرة والنوم!!

لربما كان يتبادر إلى ذهني، كما على ذهن البعض، أن هذا الذي يقال وينشر هو من باب الكيد السياسي من بعض خصوم بعض الأثرياء العرب، لكن فنان اليمن الكبير المرحوم محمد مرشد ناجي أخبرني أنه زار مدينة "ماربيا" الأسبانية ذات يوم من عام 1981م بصحبة أحد الأثرياء العرب، قال لي: كنا نسهر حتى الفجر مع عدد من الفنانين والفنانات والصحفيين والصحفيات

العرب.. كان ليلهم نهاراً ونهارهم ليلاً... جاؤا جميعا من كل الوطن العربي كي يستمتع هذا الشخص بأحدث وأجمل الأَغاني العربية من كل الأقطار.. أمتدت الأيام بهم في "ماربيا" إلى نحو ثلاثة أسابيع.. من الطرب.. الرقص.. والسهر حتى ساعات الصباح الباكر..

وقد أقسم لي المرشدي الفنان الذي احترمه وأصدق روايته لمسيرته الفنية والوطنية ونزاهته الشخصية التي هي محل تقدير الكل، أن ما رواه لي صحيح وأنه يشعر بعقدة الذنب وعذاب الضمير لتلبية دعوة ذلك الشخص خلال تلك الرحلة.. التي ندم عليها أشد الندم لأنها لا تتسق مع طبيعته المتزنة وتدينه ووقاره المعروف.

ولقد قرأت في صحيفة "الحياة" اللندنية خبراً يحكي قصة أحد الأثرياء العرب الذي جاء مع صديقته إلى أحد محلات الملابس الراقية في لندن التي تملكه إمرأة من أصول إيرانية وطلب شراء معطف من الفرو لصديقته هذه ولكنه أختلف مع صاحبة المحل حول سعره فغادر المحل غاضباً... وبعد ساعة كلف من يقوم بشراء المحل كله ودفع أكثر من ثمنه، وعند تسليم ثمن المحل دخل هذا الثري مع صديقته وأخذ المعطف ومضى في طريقه إلى "مونت كارلو" وعرض الوسيط الذي أشترى المحل لصالح الثري العربي على المرأة صاحبة المحل أن يعيده لها بأقل من السعر الذي أشتراه بـ (200 ألف جنيه أسترليني) واستعادته بالفعل. هذه الصفقة العجيبة تمت فقط أرضاء لنزوته ونزوة صديقته التي كانت ترافقه.. وكأنه انتصر على هذه المرأة التي رفضت أن تبيعه المعطف بالسعر الذي يريده.. ومثل هذه التصرفات التي أشرنا إليها تسيء الى سمعة العرب وتظهرهم بمظهر المُبذرين الذين لا يتعبون في الحصول على المال..!!

أحد الفرنسيين قال لنا أن الأمراء والأغنياء يتناولون طعامهم في "كيدز ارتست" وهو مطعم فخم يواجه الميناء والجبل والبحر والبنايات الجميلة المزروعة في قلب الجبال.. وسط غابات مونت كارلو حيث اشترى ملاكون أثرياء من سائر أنحاء العالم الأراضي، وأقاموا قصورهم ومرابعهم الخاصة بعيداً عن أعين شعوب وفقراء بلدانهم وحسد الحاسدين !

ونحن نغادر جنة الأغنياء هذه الدنيوية التي يعظنا رجال دينهم بأنها زائلة وبخسة كانت أضواء المغيب تلقي بمزيد من السحر على ليل الإمارة الحالمة.. وعلى قصر أمير موناكو المطل على المدينة الغافية بين الجبل والبحر، تبهرنا ألوانها الرائعة، مضيفة إليها مزيجاً فريداً من

الأبعاد والغموض، لكنها لم تتح لنا فرصة أن نرى شيئاً من أسلوب حياتها في الليل الذي اعتادته خلال الصيف، الاجازات، والسهرات التي تستمر حتى ساعات الصباح الأولى.. فهي تخبئه في عمق سريرتها، لكن يمكن أن تجده متداولاً في الصباح في أخبار وفضائح الأغنياء وأثرياء العرب، وأسلوب الحياة الصاخبة التي يعيشونها، ويصرفون بها الملايين من الدولارات على موائد القمار، وعلى الليالي الحمراء.. فيمايعيش أغلبية السكان في بلدانهم في الحروب الفقر والعوز.. دون أن يحسوا بالمعاناة الاقتصادية للملايين.. أو يعملوا على تحسين مستوى شعوبهم..

وأنا أغادر موناكو راودتني الكثير من الذكريات والمشاعر نحو الفطرة والطفولة، ومشاهد الجبال تحت وهج الشمس.. ربما لأن الطبيعة في دثينة كانت تعطيني حينها سعادة وسلاماً أكثر بالرغم من فقرها وقسوتها، غير أنها لم تكن مع ذلك تخلو من الدهشة والجمال والتحليق عبر المدى اللا متناهي.

ما يزال لها في النفس نكهة خاصة.. غافية.. مرتبطة بالهوية والانتماء الوطني.

أما عدن فوقعها ينعش القلب والعين، ويوقظ الروح.. تلك المدينة الناهضة على ضفاف البحر، والرابضة تحت أقدام الجبال البركانية السوداء والذرى وجبل شمسان الشامخ.. جمالها لا يزال يلامس العقل والوجدان.. أينما ذهبت أحملها معي.. أتنفس هواءها ممتزجة بروحي.. وأجد نفسي في حال حنين دائم إليها أينما كنت في المعمورة.. حتى وأن كنت في "مونتي كارلو"

مالفت نظري خلال زيارتي هذه لكان ومونت كارلو، أن "الروس" أخذو يستنسخون هذا الجنون، فهم موجودون هنا بكثرة، يرتادون أفخر المطاعم ويسكنون أفخم فنادقها ويشترون أغلى عقاراتها ويبحرون على متن أجمل اليخوت.. ويعيشون حياة اللهو.. كنت استطيع ببساطة أن أميزهم من لغتهم الروسية من بين بقية اللغات. علمت من مرافقي أنهم صاروا ينافسون أمراء النفط العرب والأفارقة في الثراء.. وفي إمتلاك أفخم القصور، واليخوت، والطائرات الخاصة.. وفي الترف والليالي الحمراء بعد حكم الميدان الاحمر، وينافسونهم على مؤائد القمار، وعلى نزواتهم الشخصية وأغلب هؤلاء من الأثرياء الجدد nouveau riche، ومن المافيا الروسية الذين اغتنوا فجأة، وصارت ثرواتهم تقدر بالمليارات المنهوبة من ثروات شعوب الاتحاد السوفيتي عقب انهياره بعد أن جرى خصخصة القطاع العام لصالح هذه المافيات من رجال ونساء

يمتلكون المليارات في روسيا وفي معظم بلدان العالم ومن ابرز النساء زوجة محافظ موسكو وغيرها[27]. فيما كان هؤلاء فقراء حتى العدم حتى عام 1991م عشية سقوط الاتحاد السوفييتي. وكان البعض منهم قبل ذلك التاريخ لا يتظاهرون بثرواتهم ولا بشراء البيوت في بلدانهم وكانت حدودهم في أن يحصل المسؤول والمواطن على قضاء اجازة سنوية في منتجعاتهم السياحية على البحر الأسود وغيرها ، وكانوا يحلمون بشراء ساعة أو ولاعة رونسون أو جهاز راديو ترانسستور حديث أو تلفاز ملون حديث ولهذا فقد كان البعض منهم يتسابقون في الحصول على الهدايا من الدول التي يزورونها وأتذكر أنني كنت في احد المنتجعات السياحية في سوتشي على البحر الأسود وكان احدهم يراقب علبة السجائر الذهبية التي كنت اضعها على طاولة الطعام وقال لي ما رأيك أن تهديها لي بعد أن تفرغ من السجائر للاحتفاظ بها للذكرى لأننا لأول مرة نشاهد مثل هذه السجائر فقلت له خذها من الأن... أما الشخص الاخر فقد أهديته الولاعة الرونسن وأنا على وشك السفر في طريقي إلى عدن وهذه الملاحظات لا تعني الاساءة للشعب الروسي وشعوب الاتحاد السوفييتي السابق فهم أول من غزا الفضاء وهم أيضاً بناة السدّ العالي وسدّ الفرات والسدود في اليمن الجنوبي وغيرها، وهم أيضا الذين كانوا يقدمون المساعدات ويوفدون عشرات الخبرات سنويا إلى الدول النامية في العالم دون مقابل واحياناً على حساب حاجات شعوبهم ويستقبلون عشرات الآلاف من الطلاب سنويا للدراسة في جامعاتهم مجانا.

شهدت موناكو وغيرها من المدن الأغلى في العالم هجمة شرسة من الأغنياء الروس لشراء العقارات، بل أن موجة الغلاء وصلت إلى سوق العقار في موسكو التي كانت تعد قبل ثلاثة عقود من ارخص المدن في العالم، حيث وصل سعر المتر المربع الواحد في عام 2010م في شارع "اوستوزينكا" إلى 35 ألف دولار كما جاء في تقرير لمؤسسة "سافلينر" العقارية، واحتلت موسكو بهذا المرتبة التاسعة من بين أغلى عشر مدن في العالم.

ها نحن نعود إلى"كان" في نفس اليوم وها هي السيارة التي أقلتنا من موناكو تمر بنا عبر سلسلة جبلية جميلة ترتصف الشطئان حولها وتخترق مدينة كان وشوارعها لتصل بنا الى فندق "نوفيتيل" مكان اقامتنا.. لنلبي نداء النوم كأجمل ما يكون..

---

[27]– يلينا باتورينا زوجة محافظ موسكو السابق يوري لوجكوف وكذلك أول بليونيرة اول غازيغوفيفاالتي تعد أغنى سيدة في روسيا (من مواليد 1971) لم يكن عمرها تجاوز الثلاثين سنة عندما حملت دفتر شيكات فيه رصيد عدد أصفاره سبعة.

قمة عز (Eze)

نصحنا الصديق يوسف المدفعي (ابو محمد) سفير الامارات السابق بدمشق بزياة قرية Eze التاريخية والتي يقال أنها آخر رحلة المسلمين في فتحهم لجنوب فرنسا وقد حكموا هذه المدينة لمدة 80 عام لاهميتها الاستراتيجية وهم من اطلقوا عليها هذا الاسم (عز)، وهي قرية صغيرة جدا تبعد عن نيس 8 كلم باتجاه الشرق في الطريق الى امارة موناكو، وتمتد من شاطئ البحر صعوداً الى قمة الجبل حيث تقع القرية القديمة، يطلق على القرية عش الصقر "eagle's nest" بسبب موقعها المرتفع والمميز، تتميز القرية بمحافظتها على ازقتها القديمة وبيوتها المبنية من الحجر والمسقوفة بالقرميد الاحمر الفاتح، تجولنا بالمدينة مشياً على الاقدام في طرقاتها المرصوفة بالحجارة والمتعرجة بين بيوتها وفي القمة تتمركز كنيسة رومانية قديمة، وتشتهر القرية بالمناظر الخلابة فمن جهة تطل على البحر الابيض المتوسط ومن الجهة الاخرى تطل على سلاسل جبال الالب البيضاء، وشاهدت في احيائها وازقتها العديد من المحلات لبيع التحف والتذكارات وبعض صالونات الرسم اضافة الى عدد من المحلات التي تعتني بالصناعات الحرفية التراثية.

احد احياء مدينة Eze

كنت اتجول في المدينة وأتذكر الاندلس28 التي فتحها المسلمون بقيادة القائد طارق بن زياد عام 92هـ/711م حيث جعلوها جزءاً من الدولة الإسلامية ويعتبر عبد الرحمن الداخل (صقر قريش) المؤسس للدولة الأندلسية سنة 750 التي كانت مستقلة عن الدولة العباسية، واعتبرت الأندلس امتدادا لدولة بني أمية التي قضى عليها العباسيون في مهدها عام 132هـ. أو قضى العباسيون على جناحها الشرقي وفي سنة 756 بنى عبد الرحمن الناصر (الثالث) مدينة قرطبة والتي أصبحت عاصمة الأندلس واعتبرت المدينة المنافسة لبغداد عاصمة العباسيين.

و كانت الأندلس قد تجزأت إلى عدة دول صغيرة ومتنازعة بعد سقوط الدولة الأموية عام 399هـ سميت دويلات ملوك الطوائف وابرز هذه الدويلات وأكبرها كانت دويلة بنو عباد في اشبيلية ودويلة بني هود في سرقسطة ودويلة بنو الأفطس في بطليوس ودويلة بنو ذي النون في طليطلة وقد توسعت الممالك الإسبانية الكاثوليكيه على حساب هذه الدويلات الإسبانية المسلمة مستغلة تنازعها وفي النهاية سقطت طليطلة في ايدي جيوش الفونسو السادس ملك قشتالة القوي والملكة ايزابيلا الأولى مما اضطر ملوك الطوائف للاستنجاد بالمرابطين الذين كانوا قد اقاموا دولة قوية في شمال أفريقيا والذين عبروا إلى الاندلس لنجدة أخوانهم في الدين الأندلسيين وهزموا الإسبانيين الكاثوليك في معركة الزلاقة ودولة الموحدين ومملكة غرناطة.

[28] - الأندلس : تعود التسمية لما يسمى اليوم شبه الجزيرة الأيبيرية (جزيرة الأندلس) في الفترة ما بين أعوام 711 و1492 التي حكمها المسلمون. تأسست في البداية كإمارة في ظل الدولة الأموية في الشام، التي بدأت بنجاح من قبل الوليد بن عبد الملك-711) (750، بعدها تولتها دولة بني أمية في الأندلس بقيادة صقر قريس عبد الرحمن الداخل وبعد سقوط دولة بني أمية تولت الأندلس ممالك غير موحدة عرفوا بملوك الطوائف، ثم وحدها المرابطون والموحدون قبل أن تنقسم إلى ملوك طوائف مرة أخرى وزالت بصورة نهائية بدخول فرناندو الثاني ملك الإسبان مملكة غرناطة في 2يناير1492 .

كنت أتجول في تلك الأزقة واشاهد هذه الحضارات، وأتذكر زيارتي لمدريد وطليطلة عام 1993م حيث زرت أهم المعالم الاثرية والسياحية في تلك المنطقة التي كانت في يوم من الايام تحت حكم العرب وتألمت على حال امتنا اليوم وما صرنا اليه بعد أن كنا نحكم الشرق والغرب من الصين شرقاً الى اسبانياً غرباً وتذكرت ما قالته قبل اكثر من خمسة قرون، والدة آخر ملوك غرناطة أبو عبدالله الصغير، وهو يبكي ويتحسر، واقفا على هضبة «البادول»، المطلة على قصر الحمراء: أجل فلتبكِ كالنساء مُلكاً لم تستطع أن تدافع عنه كالرجال.

صورة تخيلية للقائد عبد الرحمن الغافقي في معركة "بلاط الشهداء (2 رمضان 114 هـ الموافق 26 أكتوبر 732م)

ومن بين من تذكرت القائد عبد الرحمن الغافقي والذي يعود بنسبه الى قبيلة الزرانيق الازدية المعروفة في منطقة تهامة في اليمن، حيث كان رجلاً شجاعاً وعادلاً في رعيته ونجح في إعادة الوئام بين العرب المضرية واليمانية وجمع كلمتهم، حتى عده المؤرخون أعظم ولاة الأندلس وظهرت قدراته العسكرية والحربية ومهاراته الإدارية في كثير من المواقع التي ادار فيها معاركه وفتح بلاد الفرنجة حيث جمع جيشًا يعد من أكبر الجيوش وعبر به البيرينيه، واستولى على ليون ومنها الى عاصمة الفرنجة، وفي اخر معركة له وهي (معركة البلاط) سقط صريعًا بسهم أودى بحياته، فازداد اضطراب جيش المسلمين وانهزموا وانسحبوا وكانت وفاته في 27 شعبان 114 هـ/21 أكتوبر 732 م.

"بحيرة كوا "

الثالث عشر من آب – أغسطس 2010م.. الوقت صباحاً.. الساعة تشير إلى الحادية عشرة.. والسيارة التي تقلنا إلى "بحيرة كوا" على بعد مائة كيلومتر من مدينة "كان" تتسلق بنا جبالاً شاهقة.. ذات منعطفات خطرة.. وممرات ضيقة، بالكاد تتسع لعبور سيارتين في وقت واحد. وإذا صادف مرور باص، وعادة ما يحدث هذا فإنه يسد الطريق.. وعلى العربة التي تسير بالإتجاه المعاكس أن تتوقف لبرهة حتى تفسح المجال لمروره.. إن لم يفعل ذلك فإن النهاية تكون مأساوية.. وماسيحدث –لاقدر الله– ليس مجرد صدام عادي بين سيارتين بل الاستقرار في هاوية سحيقة بعد أن تتقلب السيارات أو احداها عشرات المرات، وتستقر في الهاوية كومة من الحديد المضغوط! أما الركاب فلا يصلون إلى هناك إلأ أشلاء ولا يعثر رجال الإنقاذ على أثر لهم.. في مثل هذه الحالات، تكون غلطة السائق بألف غلطة!

فوق أجنحة الخوف.. السائقون يقودون سياراتهم ببطء وبحذر شديد.. ويحرصون ألا تتجاوز سرعتهم 30 كيلو متراً في الساعة.. وفي حالات نادرة يتجاوزونها إلى 45 كلم/س، فقط عندما يطمئنون إلى خلو الطريق من السيارات.. فهم حريصون على حياتهم وعلى أرواح الآخرين وعلى احترام والتزام النظام.. يعرفون قيمة الإنسان.. يقدسون الحياة حقاً، ويحاولون أن يعيشوها، والاستمتاع بها حتى آخر دقيقة.. ثانية من أعمارهم، ولا يودون بها إلى التهلكة، بعكس أغلبية الناس في بلداننا العربية وفي بلدان العالم الثالث عموما حيث لا قيمة للإنسان ولا قداسة للحياة..

تذكرني هذه المنعطفات.. والمنزلقات الحادة، بالطريق في مناخة في شمال اليمن، حيث شق الصينيون في عهد الإمام أحمد بن يحيى حميد الدين عام 1961م تلك الطريق فوق جبال اليمن الأزلية الوعرة من صنعاء على ارتفاع 2150 متراً فوق سطح البحر، إلى الحديدة على البحر الأحمر بطول 231 كيلومتراً لتوصل بين عاصمة المملكة المتوكلية اليمنية وميناءها ومنفذها على البحر بصورة لم يعرفها سكان البلاد من قبل. كان شق طريق من هذا النوع في ذلك الوقت يعتبر معجزة بكل المقاييس في اليمن المتوكلي التي حرص الإمام أن تبقى في عزلة تامة ليس عن العالم الخارجي فقط، بل وبين بعضه البعض...

طريق طويلة ضيقة بالكاد تتسع لعبور سيارتين... حين أنشئت كان عدد السيارات محدوداً جداً.. بضع سيارات نقل بضائع فقط.. لكن بعد ثورة عام 1962م ارتفع عدد السيارات التي تستخدمها بالمئات ومن ثم بالالاف حتى ضاقت بها، ولم تعد تتسع لكل تلك الأعداد الآخذة في الازدياد عاماً بعد عام، المشكلة لا تكمن في ذلك، وفي ضيق الطريق وصعوبتها فقط، بل بالسرعة التي يجتاز بها السائقون الطريق وهم تحت تأثير "القات"... جلهم لم يخضع لتدريب كاف على قيادة السيارات ولا يملكون على الأغلب رخصة قيادة، لكنهم مع الوقت تحولوا إلى سائقين مهرة وبعضهم مغامرون من الدرجة الأولى... مستهترون بالحياة إلى درجة كبيرة ولا يقيمون لها وزناً بما في ذلك حياتهم بالذات.. فالحياة عندهم لا قيمة لها.. بقدر تفضيلهم للزلط (النقود) التي تلعب بحمران العيون.. والنتيجة أن حوادث السير على طريق مناخة وطريق حجة الذي شقه الصينيون وطريق عقبة ثرة الذي بدأ العمل فيه في الستينيات بإشراف المهندس البريطاني (شيبي) أودت بحياة كثيرين..

وأتذكر بهذه المناسبة سقوط إحدى سيارات المرسيدس التي كانت ضمن موكبنا عند زيارتي لحجة في شهر آب–أغسطس 1983م، وهي تنحدر في أحد المنعطفات العالية الشاهقة على طريق صنعاء حجة وكنا نشاهدها وهي تهوي باتجاه السيارة التي كنت استقلها مع الرئيس علي عبد الله صالح والفقيد عبد العزيز عبد الغني حيث توقف الموكب، لنشاهد ما حدث للسيارة، والمرافقين الذين كانوا يحاولون الخروج من السيارة التي كانت تتدحرج وكانت الأبواب تفتح واحداً تلو الآخر والضباط والحرس يخرجون منها واحداً بعد الآخر أيضاً ولم يبق فيها إلا السائق الذي تم انتشاله بصعوبة بعد أن رفع الجنود السيارة ليخرج منها بعد أن اصيبوا بجروح في هذا

الحادث، وتطاير كل ما فيها بما في ذلك حقيبتي " السمسونايت " التي كانت معهم التي تحتوي على وثائق هامة، وحين شعر الرئيس باهتمامي بالحقيبة وبالأوراق التي كانت تتطاير في الهواء والكل يركض نحوها قال لي: نقتسم ما فيها مناصفة! ، فقلت له : موافق إذا وافقت على اقتسام مافي حقيبتك وضحكنا .....وانطلقنا الى مدينة حجة لتناول الغداء والسلتة والقات.

طريق حجة الجبلي الذي يربط العاصمة صنعاء بمحافظة حجة وحتى البحر الأحمر

طريق عقبة ثرة الجبلي الذي يربط محافظة ابين بمحافظة البيضاء بشمال اليمن

الحقيقة أن الموت في اليمن يعتبر مسألة عادية جداً، وأحياناً نوعاً من البطولة أو البسالة ، فقد يتسبب شجار بين اثنين على قطعة أرض، أو على ما هو أتفه من ذلك بزهق أرواح كثيرين.. يعتقد اليمني أنه بذلك لا يفقد شيئاً سوى حياته التعسة التي حرره منها الموت! وأهله وأقاربه جاهزون بالبكاء والحزن عليه، ولكن ذلك لا يكون إلا للوقت القصير الكافي لتكفينه والصلاة عليه ودفنه، لتبدأ بعدها مراحل العزاء، وذبح الذبائح، ومد الولائم للمعزين الذين يأتون ركضاً ليس لتقديم التعازي فقط، بل للفوز بنصيبهم من اللحوم والشحوم والمرق! وبعد أن تمتليء بطونهم بالطعام والشراب، تبدأ فترة "تخزين" القات فتمتليء أشداقهم بأوراقه الخضراء.. وإذا كان المرحوم من اصحاب الجاه والمال يدبجون الأحاديث عن كرمه وشجاعته، وكيف أنه ذبح ذات مرة عشرات الخرفان، أو الأبقار في ضيافة فلان من الشيوخ المشهورين! وعلى سبيل المثال فإن 500 خروف ذبحت في لحظة فيما يشبه المجزرة الحيوانية عند زيارة أحد مشائخ اليمن الكبار! ويرجع المناضل والشهيد جار الله عمر استهانة اليمني بحياته وحياة غيره إلى طبيعة العنف التي تتزايد في سلوكه اليومي مع تزايد الصعوبات في حياته الاقتصادية وانتشار السلاح. حقيقة أن العنف بداخل اليمني وجزء من ثقافة شرائح من سكانه. وقد استشهد وهو يتحدث عن العنف والعنف المضاد في 28 ديسمبر 2002م.

أظن أن مثل هذه التصرفات، لا علاقة لها بالكرم المعروف عن اليمنيين والعرب عموماً، بقدر ماله علاقة بالبذخ والإسراف والمباهاة، خاصة بعد ان أثرى بعض مشائخ اليمن من أموال الدول النفطية الخليجية وغير الخليجية ومن المال العام.

استرجعت هذه الصور عن اليمن في رأسي ونحن في طريقنا إلى قمة الجبل.. وأظن أن كل الجبال تنتهي بقرية عند قمتها.. لا يمكن معرفة كيف وجدت، لكن في كل جبال الدنيا يمكن أن نعثر فيها على أماكن مناسبة أكثر من غيرها للسكن والجلوس.. الراحة.. الاستجمام.. السياحة.

ربما أن الجبال تعرف أن فكرة صعودها لمرة واحدة، من الأسفل إلى الأعلى، مثل أي صعود آخر، فكرة صعبة التنفيذ، وإنه عاجلاً أو آجلاً سوف يحتاج من يصعد إلى الراحة والتأمل والعودة، لذا طوعت صخورها الصلدة لتصبح طرقاً للصاعدين والنازلين. الطرقات المعبدة.. الجسور.. الأنفاق جعلت من الممكن تجاوز العقبات الكثيرة التي تحفل بها الجبال عادة..

وقد وجدنا ضالتنا تلك عند مرتفع شاهق جداً، توقفت سيارتنا عنده.. ترجلنا منها.. ومن على ذلك العلو أخذنا نلقي نظرة على نهر فردان... وشلالاته البيضاء المتدفقة بقوة وبذخ من الجبال نحو الأسفل تسيل بغزارة وتصب في وادٍ عميق، ثم تواصل مياهه جريانها الأزلي في النهر العظيم.. منظر ولا أروع منه.. يأسر لألباب..

السياح يلتقطون الصور، وكذلك نحن.. نتوقف مشدودين أمام سحر.. روعة.. وجمال الطبيعة.. نستمد منها السعادة.. وكذلك البقية الذين جاؤوا إلى هنا هرباً من ضجيج المدن، عوادم المصانع، السيارات، هموم ورتابة الحياة الاستهلاكية، الركض المجنون وراء المال، واللهاث وراء إيقاع العصر المتسارع، بحثاً عن مكان هادىء يمنحهم بعض المتعة.. الراحة.. السعادة المنشودة التي وجدوها في هذا المكان... يملؤني شعور بالحيوية، أتنفس ملء صدري هواء الجبل النقي. أرسل نظري بعيداً أتأمل بهاء المنظر السخي للبحيرة.. الشلالات.. الغابة الكثيفة.. الطبيعة في عرسها البهي..

على بعد أربعين كيلو متراً من "مدينة كان" وفي طريقنا نحو هذه القمة استوقفنا مدهوشين جبل "روك براون" الصخر البني الذي نحتته عوامل التعرية والطبيعة على هيئة إمرأة مستلقية أو نائمة! فصارت محل أنظار كل من يمر من هذه الطريق، لهذا الانجاز الساحر الذي لم تنحته أنامل نحات.. بل أُمنا الطبيعة.. ولم نقرأ الفاتحة حينها كما فعلنا قبل نصف قرن ولم نستشهد على أرواحنا توقعا للموت كما هو الحال في اليمن.

تذكرت هنا حكاية "الممسوخين" وهي عبارة عن مجموعة أحجار نحتتها الطبيعة كتماثيل ضخمة منصوبة فوق مرتفعات مكيراس بمحافظة ابين جنوب اليمن، وكأن تلك الاحجار قد نبتت هناك مع الأشجار والنباتات. وأخذ يومها عبد ربه جحلان يقرأ "الفاتحة" على أرواح

"الممسوخين"، الذين يعتقد –بل ويؤمن وبعض ممن كانوا معنا– أنهم كانوا بشراً مثلنا قبل أن يمسخهم الله سبحانه وتعإلى القادر على كل شيء إلى حجارة صماء، وبعد قراءة الفاتحة رفعنا أيدينا إلى وجوهنا ونحن نتمتم بكلمات غير مفهومة من شدة البرد.

من قمة "فردان" بدأنا النزول التدريجي كطائر يقطع مسافات معلومات ليحط الرحال بعد أن حلق عالياً . البحيرة التي تحمل إسم "كوا" تعكس لمن يراها من أعلى كل الألوان لكن الأزرق هو الغالب... جميلة وحولها تنتشر المنازل.. الشاليهات.. المطاعم .مئات السيارات تقف رابضة على أمتار قليلة منها.. وتحيط بشواطئها الساحرة الغابات الخضراء.. فتشكل مع لون البحيرة الأزرق مدى من ألوان بديعة لا تعرف معه أين يبدأ الأخضر وأين ينتهي الأزرق، وتضفي عليها الأجسام المستلقية على طول الشاطيء أو التي تسبح ألواناً أخرى تمتزج معها في لوحة بديعة قد تعجز عن تصويرها أنجزتها ريشة عبقرية..

أينما مددت بصرك تجد هذه الأجساد الرائعة التكوين مستلقية بملابس البحر على امتداد الشواطيء مبللة بماء البحيرة العذبة أو على الكراسي وأصحابها من الرجال والنساء يعرضونها لأشعة الشمس الدافئة ولا يغادرون البحيرة إلا بعد أن تغيب الشمس.. حينها يرجعون إلى منازلهم، شاليهاتهم، فنادقهم وقد تزودوا بقسط وافر من أشعة شمس يحرمون منها شهوراً طويلة واكتسبوا قدراً من السمرة أو اللون البرونزي.

الصيف هو فصل الإجازة في أوربا.. لا شيء مثل الصيف، الشمس، والبحر وشواطئ البحيرات

الراحة ولون البشرة الاسمر مطلب الأوروبيين والاوربيات على وجه الخصوص ذوي البشرة البيضاء والشعر الأشقر.. الذين يتباهون بعد عودتهم من إجازة الصيف أمام أصدقائهم باللون البرونزي الذي اكتسبوه بفضل البحر وأشعة الشمس، هذا اللون نعمة دائمة بالنسبة لسكان الشرق الأوسط وبلدان القارة السمراء أفريقيا حيث يعيشون في صيف شبه دائم تحت أشعة الشمس الحارقة، ويولدون بسمرة يحسدهم عليها الأوروبيون.

الأوروبيون الإجازة لديهم ثقافة وانضباط وجزء من أسلوب الحياة وهم يخططون لإجازة الصيف مسبقاً وبدقة ويحددون مسبقاً المكان.. المصاريف... الفنادق.. وسيلة المواصلات.. وكل شيء تقريباً لقضاء إجازة سعيدة... المهم أن يقضوها في مكان دافيء فيه "بحر وشمس وغوص

بين الشُعبً المرجانية وأمان قبل أي شيء آخر". وقد لا يعلم أحد أن هناك ما يسمى بـ "السياحة الاشتراكية" التي تنظمها نقابات العمال والموظفين لمنتسبيها بأسعار رمزية، ففي فرنسا يصل عدد من يستفيد من هذا النظام الى ثلث المصطافين تقريباً، وكان من الأشياء التي تذمر منها سكان اوروبا الشرقية قبل سقوط الأنظمة الاشتراكية هي الاجازات، ففي تشيكوسلوفاكية مثلاً كان يسمح للمواطن بالسفر مرة واحدة كل سنتين مع مبالغ محدودة لا تكفي، وكان هذا الأمر المرتبط بحرية السفر مثار تساؤول ومن أسباب حدوث التغيير برغم مزايا الاشتراكية العديدة.

المفارقة العجيبة، أننا نحن الذين نمتلك تلك الصبغة السمراء.. من بحورنا وشواطئها الذهبية ومن صحارينا الرملية الشاسعة والحالمة.. لم نعرف كيفية استغلالها على النحو الذي يجعلها تضاهي أفضل الشواطئ في أوروبا والعالم.. وحتى أننا لا نعرف كيف نستفيد منها وتحويلها الى فرص عمل ودخل قومي واحتكاك ثقافي ومعرفي مع الآخر.

على سبيل المثال فان الثراء الذي جاءت به الطفرة النفطية في الخليج وغير الخليج أوجد نوعاً من الحياة المرفهة "والمكيفة" إن صح التعبير فسكان الخليج ينتقلون من تكييف إلى تكييف ومن مكيف سيارة إلى مكيف المكتب إلى مكيف المنزل... إلى مكيفات الأسواق المركزية.. الفنادق ... المطاعم ... الخ.. حتى وصل الأمر بهم إلى احضار الشتاء بثلوجه الى مدنهم المكيفة.. ففي دبي مثلاً توجد في أحد الأسواق التجارية الكبرى حلبة مخصصة للتزلج على الجليد وممارسة الألعاب الشتوية وكأنك في أحد جبال الألب السويسرية حتى أن درجة الحرارة داخل هذه الصالة باردة لدرجة انك تحتاج الى معاطف خاصة بالبرد... كل هذا ودرجة الحرارة خارج ابواب هذا السوق تتعدى الخمسين درجة مئوية فوق الصفر... أما الذين يكتوون بنار شمس الخليج الحارقة فهم الفقراء من الهنود والبنغلاديشيين والعرب على قلتهم وباقي جنسيات العالم الثالث الذين يبنون لهم القصور... الأبراج... الفنادق... الطرق ليلاً ونهاراً تحت حرارة تصل أحيانا الى 55 درجة مئوية في الصيف.

الغريب أن الذين يصنعون تلك الجنة المكيفة لأثرياء الخليج لا يستمتعون بها وقد يموتون من ضربة شمس... وأجورهم هي أقل الأجور... ويعيشون في (صالات كبيرة) هنغارات مكتظة وحمامات مشتركة... فالفقراء لا نصيب لهم في الجنة التي يبنونها... بل لهم جنة أخرى، لكنها ليست على هذه الأرض بالتأكيد.

في اليمن وباقي البلدان العربية عموماً، قليلون جداً جداً هم الذين يهتمون بالإجازات أو يخططون لها، بالرغم من أن عوامل الجذب السياحية كثيرة خاصة الطبيعية من شمس... ومناخ ... وبحر... وشواطيء... وجبال... وصحارى... واليمنيون على سبيل المثال لا يهتمون سوى

بتخزين القات[29] وإذا غادروا بلدهم فاللعلاج غير المتوفر فيه، وعندما بدأ البعض يطل على البحر في الحديدة ويسبح فيه في نهاية ثمانينيات القرن الماضي كان مصير بعضهم الغرق وكان البعض ينزل البحر بسرواله المعتاد وليس بسروال السباحة، وقد شاهدت مثل ذلك في الشواطئ الجميلة في الخوخة على البحر الأحمر وهذه المنطقة من أجمل المناطق السياحية لو استثمرت فالنخيل نجده ينتشر بكثافة على شاطئ البحر وتنتشر وسط اشجار النخيل والتمور بعض المطاعم ومن أشهرها مطعم تديره عائلة المانية الجنسية يمنية الأصل التي تقدم اشهى انواع المأكولات البحرية المتنوعة و اصناف من اللحوم على الطريقة اليمنية وتمتاز هذه المنطقة بمياهها الحلوة التي تقع على عمق متر او مترين .

---

[29]– القات: شجرة دائمة الخضرة، وأول من أسماها باسمها العلمي ووصفها وصفاً دقيقا هو عالم النبات السويدي "بيتر فوش سكول " الذي ولد في 11 يناير 1732 بهلسنكي (كانت وقتئذ تابعة للسويد، وهي عاصمة فنلندا حاليًا) وتوفي في 11 تموز / يوليو 1763م باليمن(تريم) بسبب اصابته بالملاريا. يتراوح طول بعض أشجار القات بين 2 إلى 5 أمتار، وأوراقهخضراء بيضوية مدببة، وتقطف للمضغ وهي صغيرة السن يبلغ عمرها أياما أو لا يزيد على أسابيع قليلة. ويبدو في حدود الوثائق التاريخية القليلة المتوافرة حول الموضوع، أن شيوع عادة مضغ أوراق القات في منطقة جنوب البحر الأحمر، وبوجه خاص في اليمن واثيوبيا، ترجع إلى حوالي القرن الرابع عشر الميلادي، وقد ورد ذكر ذلك عرضا في وثيقة تاريخية حبشية مكتوبة باللغة الأمهرية تصف حملة تأديبية قام بها جنود الملك المسيحي "عمداسيون" ضد الملك المسلم صبر الدين في اليمن، وتاريخ هذه الوثيقة يعود الى العام 1330م, كذلك يرد ذكر القات في كتاب لمؤرخ عربي يدعى " ابن فضل الله العمري" كتب بين سنتي 1342–1349م، وفيه يصف كيفية ورود القات من الحبشة إلى اليمن، كما يشهد المقريزي (1442–1364) م في رسالة له بعنوان الإلمام بأخبار من في أرض الحبشة من ملوك الإسلام (بوجود شجرة في أرض الحبشة تسمى بالقات وهي شجرة لا تعطي فواكه، ولكن السكان يمضغون أوراقها الصغيرة، هذه الشجرة تضعف الشهية والشهوة والنوم)، إلا أن نسبة الإناث التي تتعاطى هذه النبتة ضئيلة. من جانب آخر تعتبر هذه العادة مضرة بدرجة كبيرة من الناحية الاقتصادية حيث أنها تستهلك وقت ومال المتعاطي لها، كما أن زراعة شجرت القات جعلها تتسع على حساب الزراعات الأخرى مما جعلها الأكثر زراعة في الأراضي اليمنية بدون مقارنة, وقد حرم القات عدد من علماء الأزهر وعلماء السعودية وأباحه في اليمن علماء المذهبين الشافعي والزيدي على حد سواء. إلاَّ أن الاشارة إلى أنه مكروه وليس محرماً وكل ضار لابد من الابتعاد عنه ومحاربته فقد نشأت عدة منظمات حكومية في اليمن للحد من ظاهرة انتشار القات والتوعية بأضرارة. لكنها توقفت عن العمل لانها لم تحقق النتيجة المطلوبة والمحاولة الجادة الوحيدة واليتيمة للحد من زراعته وتحديدد منافذ بيعه قام الاستاذ محسن العيني رئيس الوزراء الاسبق عام 1972 اذ أصدر قرار بمنع زراعة القات في أراضي الدولة وأراضي الأوقاف وخصصت أسواق بعيدة عن المدينة صنعاء لبيع القات ولكن الشيخ عبدالله حسين الأحمر اعترض على هذه السياسة وأفشلها وندم بعد ذلك مع العيني على مافعله بعد تفاقم مشكلة القات وتوسع استهلاكه وفي حديث مع وسائل الاعلام لحث الناس على عدم استخدام القات ومن النكات التي شاعت أن الاعلاميين طالبوا الحكومة ب "حق القات" أي فلوس لكي ينشطون الحملة على القات. والاهتمام الدولي بتعاطي القات يأخذ حجما مشهودا، فقد كتبت في هذا الصدد تقارير، وعقدت مؤتمرات تحت رعاية الأمم المتحدة، ومنظمة الصحة العالمية والمنظمة العربية للدفاع الاجتماعي، والمجلس الدولي للكحوليات والمخدرات، وكما أصبحت دول الخليج تمنع على المسافرين القادمين من اليمن إدخاله وتفرض عقوبات صارمة لمن يثبت تعاطيه أو المتاجرة به تصل إلى السجن 6 سنوات. وتزامن مع هذا الاهتمام الدولي المتزايد بالموضوع اهتمام مماثل أخذ في التصاعد بين المثقفين اليمنيين، وقد علت أصواتهم بوجه خاص في أوائل الثمانينيات مع أحدث المحاولات للقضاء على هذه الظاهرة. ومن الملاحظ أن اثيوبيا تزرع القات لتصدير معظمه وتتعامل معه بالدرجة الأولى كمحصول نقدي يدر عليها عملات صعبة، وللعلم فإن معظم متعاطيه فيها هم من المسلمين والاثيوبيين وعندما بدأ بعض المسيحيين بتعاطيه بعد القضاء على نظام الامبراطور هيلاسيلاسي كانوا يبررون تغيير سلوكهم بقولهم نريد أن ننسى مصيبتان اتى بهما العرب الى اثيوبيا وهما الاسلام والشيوعية.

تلك النبتة الشيطانية التي تأخذ من اليمني صحته وماله، وتسرقه من أسرته، وتضيع منه الوقت، مقابل لحظات سعادة وهمية لكن زائفة لا تدوم إلا ساعات التخزين الطويلة، ويفقد خلالها المجتمع المليارات من ساعات العمل ومليارات الريالات التي تهدر وتنفق على متعة ضارة يجلس فيها المخزنون في غرف مغلقة وسط أجواء خانقة بدخان السجائر والمداعات (النرجيلة)، في ثرثرة غير مثمرة، تتخللها النكات، الضحك، الغناء، الخوض في كل شيء من السياسة إلى الاقتصاد، إلى الثقافة، إلى الرياضة، إلى أحوال السوق والغلاء دونما تخصص ولا دراية... الأصوات فيها ترتفع وتختلط بقرقرة الاراجيل (المدائع), كانت المقايل شباك لأجهزة الأمن للاطلاع على مايقال عن السلطة وخاصة من المعارضين الحزبيين.

وعودة إلى بحيرة "كوا" فقد صنع الفرنسيون على شاطئها جنة خاصة بهم يهربون إليها، والى أمثالها من زخم الحياة، وتعب وإرهاق العمل، في مكان بعيد عن الضجيج والتلوث للاستمتاع، الراحة، السياحة، الهدوء... ليس من الضرورة أن يكون جميعهم من الأثرياء، ومن ذوي المال والنفوذ، أو من المشاهير، لكن بقليل من التخطيط والتوفير لمثل هذه الإجازات يستطيع ذوو الدخل المعقول المجيء إلى هنا وقضاء وقت سعيد..

ونحن نودع الشاطئ والغابة، ونصعد إلى سيارتنا التي ستحط بنا في مدينة كان.... كان سؤال يلح علي أكثر من غيره:

متى نكون مثلهم؟... متى؟! وهل هذا ممكن؟

من كان إلى باريس

هذه المرة استبدت بي رغبة شديدة باستقلال القطار بدلاً عن الطائرة، في محطة في قلب "كان" استقليت عربة من عربات القطار فائق السرعة (Train à Grande Vitesse)[30] المتجه إلى باريس.. كان القطار يتحرك بسرعة كبيرة ينهب السكة الحديدية نهباً.. غير عابئ بشيء.. بدأ

[30] TGVبالفرنسية(Train à Grande Vitesse) : أو قطار غراند فيتيس , هي خدمة "القطار فائق السرعة ("السكك الحديدية عالية السرعة ، التي تديرها الشركة الوطنية للسكك الحديدية SNCF ، في السكك الحديدية لمسافات طويلة فرعالشركة الوطنية للسكك الحديدية (فرنسا(.، وعمليات النقل لشركة السكك الحديدية الوطنية.

مسيرته على سكته الأزلية وكأنه يشعر بعظمة قدرته على طي المسافات وثقته بايصال من ائتمنه على حياته الى مقصده.

وكالعادة أيضاً، أخذ يتوقف في عدة محطات لنقل المسافرين، الذاهبين مثلنا إلى عاصمة الأنوار.. العاصمة الفرنسية الذين يعتلون عرباتهم بسرعة حاملين حقائبهم الصغيرة.. لم يتسلل الملل إلى نفسي طوال الرحلة... انصرم الوقت بسرعة ما بين تناول الطعام الشهي... إجراء بعض المكالمات الهاتفية.. متابعة المناظر الجميلة خارجاً وهي تمر امامي مسرعة.. يملك القطار تلك الموهبة.. أن يجعل الاشياء تتحرك مبتعدة وأنت ثابت لا تتحرك.. يمنحك القطار شعوراً بالاستمرارية... بعد أن جعل الموبايل العالم بين يديك، وتدوين بعض الانطباعات عن الرحلة في دفتر مذكراتي اليومية، وبقراءة أحد الكتب التي حرصت على اصطحابها معي، لأستعين بها على زمن الرحلة غير الممل، مسرحيات لشكسبير وروايات لديكنز وماري لامب.

بعد خمس ساعات وثمان دقائق توقف بنا القطار السريع (تي جي في) في المحطة الشمالية في قلب باريس غار دي نور Gare Du Nord.. كان في استقبالي زوجتي السيدة ريم عبد الغني وابنتنا ميسان، والصديق لؤي صالح ومنها توجهنا بالسيارة إلى الفندق الذي حجز لإقامتنا... الفندق متواضع لكنه من الطراز القديم... وبتنا ليلتنا فيه.

صباح اليوم التالي... الخامس عشر من آب – أغسطس 2010 كان الجو على غير عادته في مثل هذا الوقت من الصيف في باريس... حمل معه غيوماً داكنة وأمطاراً غزيرة بعد أن كان دافئاً... فجأة تحول الطقس من مشمس الى شتوي ماطر وبارد واضطررت الى حمل المظلة تحت وابل من الأمطار الغزيرة ... وتبادلتها تارة مع ابنتي ميسان وأخرى مع صديقي الدكتور لؤي... شاقين طريقنا وسط رذاذٍ بارد.

في نفس هذا الوقت وصلت درجة الحرارة في بلاد الشام الى نحو 45 درجة و 50 درجة وهي درجة عالية جدا لم تشهدها العاصمة السورية من قبل... وحسب نشرات الأخبار الجوية فإنها لم تشهد مثل هذا الطقس الحار جداً منذ مئات السنين[31]... البعض يقول.. إن مثل هذه الموجة الشديدة من الحر تعود إلى نحو ألف سنة تقريباً... لكن في ذلك مبالغة شديدة فيما أرى انه لم تكن توجد في تلك الأيام أجهزة لقياس حالة القطس ودرجات الحرارة مثلما هو الحال في أيامنا هذه... لكن المؤكد ان حالة الطقس قد تغيرت خلال الأعوام الأخيرة بفعل تغير المناخ الذي ينكره الرئيس الاميركي دونالد ترامب والذي قرر انسحاب بلاده من اتفاقية المناخ الموقعة في

[31] وأذكر هنا وفي شهر يونيو/حزيران من نفس العام توقفت رحلات الطيران في مطار القاهرة الدولي ظهراً لساعات بسبب شدة الحرارة كما حدثونا وكنا وقتها في طريقنا الى دمشق.

باريس عام 2015م ، وشهدت بعض البلاد التي كانت تنخفض فيها درجة الحرارة عادة إلى نحو 30 درجة تحت الصفر موجات حر شديدة ، ويعيد البعض هذا التغير في المناخ الى عوامل من أهمها الاحتباس الحراري وثقب الأوزون مما أثر على المناخ المعتدل في الكثير من الدول وسبب العديد من الكوارث من فيضانات وسنوات قحط وعواصف وغيرها، وذوبان القطب الشمالي..

باريس مدينة سحر:

في وقت سابق انطلقت بالقطار من باريس في أول زيارة لي لبلجيكا وهولندا في رحلة استمرت ثلاث ساعات تقريبا... أما بالنسبة لباريس فقد زرتها اكثر من مرة... فهي بالنسبة لنا مدينة العلم والنور والجمال... وقد افتتن الشرقيون خاصة العرب بسحر باريس مثلما فتن الفرنسيون والأوروبيون عموماً بالمشرق والمغرب العربيين منذ بداية القرن التاسع عشر. وقد وثق الغربيون والاوربيون بصفة عامة رحلاتهم البديعة الى بلاد المشرق والمغرب بالريشة واللون عبر ما أبدعوه من لوحات الانسان والمدن، والقرى، والأسواق، والأماكن التاريخية، العمارة الإسلامية، الأروقة والمآذن والمنابر وقباب المساجد، أو عبر كتابات الرحالة الاوروبيين والمستشرقين على وجه الخصوص، حيث شهد القرنان الثامن عشر والتاسع عشر تدفقاً غربياً تجاه الشرق العربي، تجسد في رحلات لمئات المغامرين، والرحالة، والأدباء، والرسامين، والجواسيس والمستشرقين, والباحثين عن المال والمتعة الى ولايات الإمبراطورية العثمانية خصوصاً بلدان المغرب العربي ومصر وبلاد الشام واليمن والعراق، وقد أطلق على مخرجات هذه الرحلات فيما بعد (الاستشراق) الذي اقترن في الكثير من مظاهره بإشارات ومشاعر جمعت بين حب المعرفة والمغامرة الرومانسية والرغبة في السيطرة ... ومن هؤلاء من مهد للاستعمار والاحتلال الأجنبي وتقديم صورة سيئة عن البلدان التي زاروها، غير أن منهم من قدم خدمات معرفية جليلة لايمكن نكرانها.

في كتابه الشهير "الاستشراق" يفكك المفكر الفلسطيني الراحل ادوارد سعيد[32] هذه الظاهرة الثقافية، ويصل الى نتيجة مفادها ان المستشرقين على اختلاف مشاربهم بلوروا رؤية سياسية

---

[32]**إدوارد وديع سعيد: لاجئ فلسطيني ومن ضحايا احتلال اسرائيل لفلسطين عام 1948م من مواليد القدس** 1نوفمبر1935 وتوفي 25 سبتمبر 2003 ناضل من اجل دولة للفلسطينيين وتحقيق حق العودة لـ لاجئي 1948 وهو أستاذ الأدب المقارن في جامعة كولومبيا، كاتب وناقد وأكاديمي فلسطيني – أمريكي مشهور توفي بمرض اللوكيميا (سرطان الدم) وعرف بكتاباته التي من أهمها كتاب الاستشراق والذي منحه شهرة دولية واسعة.بالإضافة إلى كونه ناقدًا أدبيًا مرموقًا، كانت اهتماماته السياسية والمعرفية متعددة واسعة تتمحور حول القضية الفلسطينية والدفاع عن شرعية الثقافة والهوّية الفلسطينية، وعن عدالة هذه القضية وحقوق الشعب الفلسطيني. كما تركزت اهتماماته والموضوعات التي كان يتناولها على العلاقة بين القوة والهيمنة الثقافية الغربية من ناحية، وتشكيل رؤية الناس للعالم وللقضايا من ناحية أخرى. ويوضح إدوارد سعيد هذه المسألة بأمثلة عديدة وبتفاصيل تاريخية في مسألة الصهيونية، وترعرعها في الغرب، ونظرة الغرب إلى العرب والإسلام والمسلمين وثقافات العالم الأخرى. ويشرح إدوارد سعيد كيف أن الإعلام الغربي والخبراء

للواقع مهدت فيما بعد لاستعمار الشرق... نزعة كانت تعبر عن القوة والرغبة في الانتهاك والهيمنة.

الجيل العربي الأول الذي زار باريس ودرس في جامعاتها من أمثال رفاعة الطهطاوي، والشيخ محمد عبده، وتوفيق الحكيم، وطه حسين، تأثر بفرنسا وبمناخ العلم والثقافة والتحضر فيها. واخذ على عاتقه الدعوة الى الأخذ بأسباب العلم والقوة والدعوة الى التنوير مدفوعاً بما وصل إليه المجتمع الفرنسي والاوروبي عموماً من تقدم حضاري تخلف فيه الشرق عن الغرب في القرون الأخيرة. فيما عاش العرب والمسلمون على مدى قرون عصراً إبداعيا مميزاً، قدم فيه العلماء العرب والمسلمون إبداعاتهم في علوم الفلك والرياضيات والفيزياء والكيمياء والصيدلة والطب والهندسة والاجتماع والفلسفة والموسيقى والأدب والفن والعديد من أوجه المعرفة، ومعلوم أن صناعة العطور الفرنسية الشهيرة التي تدر على فرنسا عشرات المليارات من الدولارات نقلها الفرنسيون من الاندلس إلى بلادهم.

قبل ذلك قدمت الحضارات القديمة في بلداننا أبجديتها وعمارتها وإبداعها للعالم من السومريين الى الأكاديين، والكلدانيين، والبابليين، والأشوريين، والكنعانيين، والفينيقيين، والمصريين القدماء، وقرطاجة مروراً الى الإغريق والعصر الهيلنستي الذي مهد للحضارة العربية... لكن عندما ننظر اليوم الى أحوالنا لا نجد للعرب والمسلمين بكل أسف مساهمة تذكر في مخترعات العصر الحديث.

مع هذا هناك من العرب المهاجرين الى فرنسا في العصر الحديث من حقق ذاته، ووصل الى مكانة مرموقة في المجتمع الفرنسي، وخاصة من المثقفين والأدباء الذين يكتبون باللغة الفرنسية ومن أبرز هؤلاء الكاتب اللبناني أمين معلوف[33] أحد أهم أدباء اللغة الفرنسية

وصنّاع السياسة الغربية والإمبريالية الثقافية الغربية تتضافر كلها لتحقيق مصالح غربية غير عادلة في نهاية المطاف، وذلك عن طريق إيجاد خطاب غربي منحاز ثقافيًا إلى الغرب ومصالحه. ادوارد سعيد لم يكن سعيدا باسمه "ادوارد" وكان يتمنى لو اسماه والده اسما عربيا

[33]– **أمين معلوف:** أديب وصحافي لبناني ولد في بيروت في 25فبراير1949م، امتهن الصحافة بعد تخرجه فعمل في الملحق الاقتصادي لجريدة النهار البيروتية, في عام 1976م انتقل إلى فرنساحيث عمل في مجلة إيكونومياالاقتصادية، واستمر في عمله الصحفي فرأس تحرير مجلة "إفريقيا الشابة" أو "جين أفريك"، وكذلك استمر في العمل مع جريدة النهار اللبنانية وفي ربيبتها المسماة النهار العربي والدولي,أصدر أول أعماله الحروب الصليبية كما رآها العرب عام 1983م عن دار النشر لاتيس التي صارت دار النشر المتخصصة في أعماله. ترجمت أعماله إلى لغات عديدة ونال عدة جوائز أدبية فرنسية منها جائزة الصداقة الفرنسية العربيةعام 1986م عن روايته ليون الإفريقي، وحاز على جائزة غونكور، كبرى الجوائز الأدبية الفرنسية، عام 1993 عن روايته صخرة طانيوس. قام د. عفيف دمشقية بترجمة جل أعماله إلى العربية وهي منشورة عن دار الفارابي ببيروت. تميز مشروع أمين معلوف الابداعي بتعمقه في التاريخ من خلال ملامسته أهم التحولات الحضارية التي رسمت صورة الغرب والشرق على شاكلتها الحالية.

وروائييها المعاصرين، وقد سعدت بقراءة عدد من مؤلفاته المترجمة الى العربية ومنها "الحروب الصليبية من وجهة نظر العرب"، "وليون الأفريقي"، "وسمرقند"، "وصخرة طانيوس" الذي نال عنه جائزة غونكر ارفع جائزة أدبية فرنسية، كما له روايات أخرى مثل "سلام المشرق"، "وجنائن النور" وغيرها كثير نال معظمها جوائز أدبية مرموقة وقد تم انتخابه في يونيو 2011 عضواً في "الأكاديمية الفرنسية" أهم مجمع علمي وأدبي ولغوي في فرنسا وتعد أقدم نادٍ مغلق في العالم، وتضم في عضويتها 40 كاتباً وعالماً وأديباً، يلقبون بـ "الخالدون" ويتم انتخابهم مدى الحياة ، ولا يتجدد قوامها سوى برحيل أحدهم، فيتم انتخاب خلفه من جانب (39 عضواً آخرين) وهو ثاني عربي يحظى بشرف عضوية "الأكاديمية الفرنسية" بعد الجزائرية آسيا جبَّار[34]، ومعلوف وجبَّار ليسا وحدهما اللذان يكتبان بالفرنسية، فهناك عدد كبير من الكتاب المغاربيين الذين يكتبون بها وأنتجوا روائع أدبية من أمثال كاتب ياسين، مالك حداد، رشيد بوجدره وسواهم، وقد نافسوا نظراءهم الفرنسيين في لغة موليير فكتبوا أعمالاً رائعة لكن روح كتاباتهم تظل عربية أو مغاربية.. ومن هؤلاء الذين حازوا مكانة مرموقة ياسمينة خضرا الذي ظفر بجائزة الأكاديمية للآداب الفرنسية في عام 2011م ومن اليمنيين الروائيين من عدن حبيب سروري[35] الذي كتب بالفرنسية عدة روايات منها ابنة سوسلوف، طائر الخراب، أروى وغيرها العديد...

واثناء اقامتنا في باريس قمت بزيارة السفارة اليمنية هناك ، والتقينا بالسفير وطاقم السفارة وقد حدثنا السفير عن اخر التطورات في اليمن والمصاعب التي تواجه دولة الوحدة وكانت الخلافات في ذروتها بين المعارضة والنظام .. وارتفعت بعض الاصوات للمطالبة بانفصال الجنوب وقد علق أحد الحاضرين مبديا اهتمامه فقط بمصير السفارة اذا انفصل الجنوب ، فقلت له نحن لا نريد ان نناقش مصير السفارة بل نريد ان نناقش المصير الاهم مصير الوطن والاخطار التي تحدق به، ومعروف أن اليمن الجنوبي قد اشترى عدداً كبيراً من مباني السفارات وسكن السفراء في وقت مبكر وبعد الاستقلال مباشرة في باريس، ولندن، ونيويورك، وبروكسل، وبيروت، ودمشق، ويزوبى، واديس ابابا، ودار السلام، وغيرها من العواصم، رغم قسوة الظروف المحلية والقهارة، بينما النظام في الشمال كان يعتمد على استئجار السفارات والحصول على ماقد

---

[34] – **آسيا جبار**: مواليد 30 يونيو1936م, كاتبة وروائية جزائرية، معظم أعمالها تناقش المعضلات والمصاعب التي تواجه النساء، كما عرف عنها الكتابة بحس أنثوي الطابع. تعتبر آسيا جبار أشهر روائيات الجزائر والمغرب العربي، تم انتخابها في 26 يونيو 2005 عضواً في الأكاديمية الفرنسية "Académie française" وهي أعلى مؤسسة فرنسية تختص بتراث اللغة الفرنسية وتعتبر أول شخصية من بلاد المغرب تصل لهذا المنصب. الرفيع

[35] من مواليد عدَن، ١٥ أغسطس ١٩٥٦. بروفيسور جامعي في علوم الكمبيوتر بقسم هندسة الرياضيات التطبيقية (كلية العلوم التطبيقية، روان، فرنسا)، منذ ١٩٩٢. يشرف على مشاريع فرق أبحاث جامعية مشتركة، وعلى كثيرٍ من أبحاث الدكتوراه.

تصل نسبته 50% من الايجار (اريتيريا مثالا واحدا وعندما عين رئيس للبعثة نظيف اليد انتهزت وزارة الخارجية فرصة قيامه في اجازة لاشعار اريتيريا بأنه قد استدعي).

ومع الاسف أن البعض اصبح لا يفكر الا بمصير المباني في هذه الدول بسبب ارتفاع اسعارها بعد أن استثمرت لاكثر من 30 عاماً وليس في مستقبل الوحدة والوطن .

ان الفساد ليس في الداخل فقط فبعد الوحدة عام 1990 بيعت كثير من المباني بأسعار بخسة أما عن الدخل القنصلي فينهب جزء كبير منه وخاصة دخل الدول الخليجية حيث توجد جاليات يمنية كبيرة ومما يمكن وهو صحيح أن وزيري الخارجية كانا يأمران موظف السفارة بلندن بشراء فيلل لهما أنيقة وغالية من الدخل القومي.

من باريس الى امستردام

بعد ثلاث ساعات من رحلتنا بالقطار عبر بلجيكا وصلنا الى العاصمة الاقتصادية الهولندية[36] امستردام ، كان في استقبالنا السفير محمد الرباعي وطاقم السفارة اليمنية الذي رحب بنا ونقلنا الى محل اقامتنا في احد فنادق هذه المدينة الجميلة وحدثنا ونحن في الطريق عن هذه البلاد وعن علاقاتها التاريخية مع اليمن والدول العربية وعن حدودها وجيرانها ومعالمها التاريخية، فهي تقع في غرب أوروبا وتطل على بحر الشمال. يحدها من الشرق المانيا ومن الجنوب بلجيكا ومن باقي الجهات بحر الشمال. زرت اهم معالم هذين البلدين مبتدئاً بزيارة هولندا[37] وتفقد معالمها التاريخية ومنها مكتبتها العريقة "ليدن".

---

[36] وهي إحدى دول مجموعة البنلوكس التي تضم إلى جانبها كلاً من لوكسمبورج وبلجيكا. وتسمى بالأراضي الواطئة.

[37] – هولندا: عضو مؤسس في الاتحاد الأوروبي. وهي موطن لعدد من الرسامين العالميين أمثال فان كوخ ورامبرانت وفيرمير، وهي أيضاً موطن زهرة الزنبقة(التوليب) التي تزرع في مساحات شاسعة وأحد انواعها يدعى حسَّان والعديد من أصناف الجبن المعروفة عالمياً. ونظرا لطبيعتها المنبسطة فإن سكانها يستخدمون الدراجات الهوائية بشكل كبير، حيث يوجد في البلاد حوالي 13 مليون دراجة هوائية خصصت لها طرق خاصة في حين يبلغ عدد السكان 16 مليون نسمة تقريبا. ورغم صغر حجم مساحتها وقلة سكانها فإن هولندا تعتبر واحدة من أكبر عشر دول في العالم من حيث اقتصادها وواحدة من أكبر ثلاث دول من حيث الإنتاج الزراعي كما أنها تشكل حلقة وصل بين العالم وغرب اوروبا عبر موانئها البحرية والجوية، وأشهر موانيها انتورب الذي يعد ثاني اهم ميناء في العالم بعد ميناء نيويورك أما ثالثهما كان ميناء عدن حتى عام 1967م، ومدينة انتورب هي عاصمة صناعة الألماس في العالم، ولعبت دوراً بارزاً في الحملات الاستعمارية وتاريخ الحضارة الإنسانية من حيث الفنون والتجارة والملاحة والاستكشافات والاختراعات. وتربطها بالعالم الإسلامي علاقات تاريخية من خلال تواجدها الاستعماري السابق في إندونيسيا أكبر البلدان الإسلامية من حيث السكان وعبر الاستشراق الذي كان للهولنديين فيه اليد الطولى.وتتبع لهولندا بضع جزر في البحر الكاريبي في اميركا الجنوبية تتمتع كل منها بوضعية قانونية خاصة في إطار المملكة الهولندية.

يبدو في الصورة السفير محمد الرباعي وعدد من أعضاء السفارة اليمنية ومنهم السفير أحمد حسن آغا الموصلي في هولندا

وقد حدثني مدير المكتبة ومساعدوه عن هذه المكتبة التي تأسست عام 1575م، وكان لها دور بارز في تطوير الثقافة الاوروبية، وكانت أحد المراكز الثقافية التي ساهمت في نشر المعرفة خلال عصر التنوير بسبب ما تحتويه من كم هائل من المصادر الفريدة والكثيرة، وتشمل المقتنيات فيها حوالي 4،200،000 مجلد، 1،000،000 كتاب إلكتروني،60000 من المخطوطات الشرقية والغربية، 500،000 رسالة، 70000خارطة. وقد اطلعنا المدير على وثائق هامة عن اليمن منها وثيقة توقيع هولندا اتفاقاً مع الإمام يحيى حميد الدين في العام 1933م. أملاً في استعادة مركزها التجاري الكبير في المخا (الذي أهمل ابتداءً من القرن الثامن عشر وفقد مكانته الهامة) كما اطلعنا على بعض الوثائق عن منطقة الخليج واليمن التي جمعت وارسلت الى هولندا في الفترة الاستعمارية حيث كانت تنتشر الاساطيل البريطانية والهولندية والفرنسية والبرتغالية التي كانت تجوب البحار وتتقاسم النفوذ بالشرق وتتنافس وكانت عدن من نصيب البريطانيين وعدد من البلدان أهمها الهند ومصر وحتى الكاريبي التي استعمرتها شرقا وغربا ولهذا سميت بالامبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس. وهذا أمر هام.. أذكر أننا كلفنا في السبعينيات السيد عبد الله محيرز بجمع المخطوطات والوثائق من بعض المكتبات في العالم في بريطانيا وتركيا والمانيا وبومبيه وفرنسا و من مكتبة ليدن التي قام بزيارتها حيث جمع من هذه المكتبات أكثر من نصف مليون وثيقة ومخطوط ولكنها تعرضت للنهب في الاحداث التي مرت بعدن واخرها حرب عام 1994م. كما حافظت مدينة تريم والمسؤولون فيها على مكتبة الاحقاف التي تحتوي على 6500 مخطوطة وهي من المكتبات الهامة في الوطن العربي .

وقد قدم لي احد المستشارين في هذه المكتبة بطاقته في ختام زيارتنا للمكتبة وقال لي مازحا:
"اذا لم تذكر اسمي فتذكر طولي فأنا متران ولست الرئيس الفرنسي متران"

وبعد ذلك قمنا بزيارة محكمة العدل الدولية [38] في العاصمة لاهاي (دنهاج) وقد أخبرنا أحد المرافقين لنا أن المحكمة هي الذراع القضائي الأساسي لمنظمة الأمم المتحدة. وهي الجهاز الوحيد من بين الأجهزة الست للأمم المتحدة ليس مقرها في نيويورك. وقد تأسست عام 1945 وبدأت أعمالها في العام اللاحق.

[38]– محكمة العدل الدولية، لها نشاط قضائي واسع، وهي تنظر في القضايا التي تضعها الدول امامها، كما تقدم الاستشارات القانونية للهيئات الدولية التي تطلب ذلك. تتألف المحكمة من 15 قاضياً يمثلون كل الحضارات ومن بينهم دائماً قاضٍ عربي، تنتخبهم الجمعية العامة للأمم المتحدةومجلس الأمن، لمدة 9 سنوات، ويمكن إعادة انتخاب الأعضاء. يتم انتخاب ثلث الأعضاء كل ثلاث سنوات.

مع زوجتي ريم عبد الغني

هولندا تشتهر بزراعة الزهور وأبصال الزهور كما أخبرني الصديق محمد عبده سندي، وخاصة الزنابق التي تُصدّر إلى معظم بقاع العالم.. وذكرني هذا بأغنية رائد الاغنية العدنية الفنان خليل محمد خليل (الوردة الحمراء):

الوردة الحمراء

على صدر السمراء

من شاف جمالها

يسكر بلا خمرا

واثناء تجولنا في هولندا شاهدنا الكثير من طواحين الهواء [39] في المناطق الريفية التي تعكس ملامح البلدة الأوروبية كما هو الحال مع أزهار الزنبق أو الجبنة الهولندية الصفراء وكانت هولندا تصدر السمن الهولندي الى عدن ليستخدم في الخبز (المُلَوَّح) وبقية المأكولات وكان يأتي في صفائح (تنك)، ويمكن رؤية الطواحين منتشرة في مختلف المناطق أعلى وأسفل الساحل وتقدر بنحو مليون وأربعين طاحونة ما زالت موجودة في البلاد. وقد ذكرتنا هذه الطواحين بالطواحين التي كانت موجودة في خور مكسر بعدن التي كانت تستخدم لضخ الماء من البحر الى الممالح حيث يجري استخراج الملح وتصديره الى خارج عدن، وفي تعز كانت هناك طاحونة مختلفة من حيث الشكل لاستخراج المياه وقد اختفت بعد ثورة سبتمبر.

وفي هولندا التقينا بالفنان والمذيع عبد الرحمن باجنيد[40]، وهو من مواليد حافة (حارة) شريف في كريتر – عدن في 24 ديسمبر 1941م، وقد تلقى تعليمه الابتدائي والمتوسط والثانوي في مدارس عدن، وتلقى شهادة الـ G.C.E من جامعة لندن، والتحق باذاعة عدن في سبتمبر 1960م وعمل في تلفزيون عدن بعد افتتاحه عام 1964م مقدماً لبرامج المنوعات وقارئاً مميزاً لنشرات الأخبار ومترجماً فورياً للمسلسلات الأجنبية ومن أشهرها مسلسل (الهارب) .

هاجر في أواخر ستينات القرن الماضي إلى هولندا، والتحق بالقسم العربي لاذاعة هولندا العالمية موظِفاً خبراته التي اكتسبها من عمله في إذاعة عدن، وقد عمل فيها لمدة ربع قرن كامل (من 1969م الى عام 1994م) وحين تقاعد عاش متنقلاً بين مدينة عدن وامستردام والبرتغال، وفوق

[39] – يعود تاريخ تشغيل أول طاحونة هوائية إلى القرن الأول الميلادي، حيث يصفها هيرون في هذا الوقت أنها أول آله أستخدمت في توليد الطاقة من التاريخ، وقد أستخدم المحور الرأسي للطواحين لأول مرة في بسيستان شرق بلاد فارس في القرن التاسع كما وصفها الجغرافيون المسلمون، والمحور الأفقي لطواحين الهواء من النوع الذي يستخدم عادة اليوم وتم اختراعه في شمال غرب اوروبا.

[40] – **عبد الرحمن باجنيد:** ولد في عدن 24 ديسمبر 1941م عمل لاكثر من ربع قرن مذيعاً ومنتجاً ومقدماً للبرامج في القسم العربي لاذاعة هولندا العالمية (1969 – 1994) وكان قد بدأ مشواره الاعلامي في اذاعة عدن عام 1960م ، وكان مغنياً معروفاً وقدم العديد من المواهب التي اسهمت فيما بعد في مجالي الموسيقى والاعلام

هذا فقد كان فناناً ومطرباً ناجحاً عرفته عدن في زمنها الجميل وله العديد من الأغاني التي اشتهر منها (طير من وادي تبن ... حط في قلبي سكن .... والهوى فيه ما سكن ... طير من وادي تبن .... آه من جيده وأه ... من عيونه والشفاه ... كلما اتنهد معاه ... ذاب قلبي وافتتن) من كلمات الشاعر لطفي أمان. واغنية "**بانجناه**" من كلمات الشاعر الراحل عبد الله هادي سبيت والتي تتغنى بجني القطن وحلجه، كما التحق باذاعة هولندا المذيع المعروف محمد عمر بلجون وهو ايضاً من أبناء مدينة عدن الذين هاجروا الى هولندا .. وهو شقيق المذيع الشهير عبد الرحمن بلجون وشقيقتهما المذيعة المشهورة امل بلجون.

ومن هولندا انتقلنا الى بروكسل عاصمة بلجيكا التي تحدها كل من ألمانيا واللوكسمبورغ[41] من الشرق، فرنسا من الجنوب والجنوب الغربي وبحر الشمال من الشمال الغربي، وهولندا من الشمال، وتُعد بروكسل عاصمة رسمية للاتحاد الأوروبي وهي أيضاً مقر حلف شمال الأطلسي (الناتو)[42]. وبلجيكا تتكون من عرقيتين الأولى تتكلم باللغة الفرنسية وتسمى الوالون والثانية ناطقة بالهولندية وتسمى الفلامنك ولكل عرق أحزابه، وكان "الحزب الشوعي البلجيكي" هو الحزب الوحيد الذي يضم في عضويته كلا المجموعتين، وفي بلجيكا تعتبر اللغة الفرنسية والفلامنكية (الهولندية) لغتين رسميتين، وفي أي مناسبة يخطب الملك أو رئيس الوزراء بكليهما والملك فيها هو عنوان وحدتها ورمز البلاد. وقد حدثنا السفير اليمني في بروكسل جازم عبد الخالق عن العلاقات اليمنية البلجيكية التي بدأت بتوقيع معاهدة صداقة بين البلدين عام 1936عن طريق "ديبوى" حيث كان يشغل منصب قنصل فخري في جدة، برتبة عقيد احتياطي في الجيش البلجيكي. الذي عاش في عدد من البلدان العربية لأكثر من ثلاثين عاماً، وكان بأمر المخابرات السرية ويزعم أنه من أصل عربي منتحلاً اسم الشيخ إبراهيم ولكنه كان في حقيقة الأمر –

41– **اللوكسمبورغ:** هي إحدى دول البنلوكس الثلاث، تقع في غرب اوروبا، بين كل ألمانيا، فرنسا، وبلجيكا، وتُعد إحدى أصغر دول أوروبا مساحةً وسكاناً، ويبلغ عدد سكانها حوالي 500 ألف وتبلغ مساحتها 2586كم. ولليمن معها تمثيل دبلوماسي غير مقيم وهي من عواصم البنوك في اوروبا.

42– **حلف الناتو أو حلف شمال الأطلسي:** منظمة تأسست عام 1949م بناءاً على معاهدة شمال الأطلسي التي تم التوقيع عليها في واشنطن في 4 ابريل سنة 1949. يوجد مقر قيادة الحلف في بروكسل عاصمة بلجيكا. وللحلف لغتان رسميتان هما الإنجليزية والفرنسية. والدور الرئيسي لهذا الحلف هو حماية وحراسة أوروبا الغربية والدول الأعضاء، ويلعب الحلف دوره خلال الأزمات السياسية، وكل الدول الأعضاء فيه تساهم في القوى والمعدات العسكرية التابع له ما ساهم في تحقيق تنظيم عسكري لهذا الحلف والاسهام الرئيس هو للولايات المتحدة الأميركية، وبعد انهيار الاتحاد السوفيتي فاخر الحلف بقدرته على الحفاظ على أمن اوروبا الغربية لاربعة عقود. هناك دول ذات علاقات خاصة بحلف الناتو إلا أنها ليست جزء منه رسمياً، وقد توسعت عضوية الحلف الذي كان يتوقع أن يحل نفسه بعد انهيار الاتحاد السوفيتي وحلف وارسو، ولكن ما يلفت الانتباه أن بعض الدول الأعضاء في حلف أوروبا انضمت إليه.

وضمن أشياء كثيرة – ممثلاً لشركة الصناعة الوطنية في ليبج احدى مدن بلجيكا الناطقة بالفرنسية وأمضى معظم وقته يتاجر بالأسلحة في الشرق الأوسط، وتمكن من الفوز برضا كثير من الحكام العرب"..

علق السفير جازم عن هذه المعاهدة بقوله: "إن الإمام يحيى بدأ مندفعاً إلى عقد اتفاقيات (معاهدات صداقة) مع الدول الأجنبية، اعتقاداً منه بأن هذه الاتفاقيات كفيلة بفك العزلة، وبإضفاء شرعية لحكمه، وتقويه على المخاطر الاقليمية المتزايدة، وكانت بريطانيا هي التحدي الرئيس، ولكن بعد هزيمته من قبل السعودية عام 1934م أراد تقوية وضعه الدولي لمواجهة تحد ثانوي لم يكن يطلب الاعتراف بشرعية نظامه، بالعكس كانت الدول الاخرى هي صاحبة المبادرة، وإذا صدقنا نظرية العزلة فكان بامكان الإمام يحيى رفض اقامة علاقات مع الدول الأخرى ولا ننسى أنه أول حاكم عربي يعقد معاهدة مع الاتحاد السوفيتي عام 1928م كانت تلك الاتفاقية بين الامام الشيعي "يحيى" والزعيم الشيوعي "ستالين" أول اتفاقية بين دولة عربية وبين الاتحاد السوفييتي.

وعلمت من السفير أن بلجيكا هي ملتقى لكثير من مخابرات العالم كفيينا وجنيف بحكم موقعها وكثرة المنظمات الدولية فيها، وقد رتب لنا زيارة الى الموقع الذي دارت فيه احداث معركة واترلو[43] التي هزم فيها نابليون، وقد شاهدت عدداً كبيراً من السواح يقومون بالتقاط الصور التذكارية لهذا المكان التاريخي.

[43] – **معركة واترلو**: وقعت في 18 يونيو عام 1815م قرب بروكسل. وهي آخر معارك القائد الفرنسي نابليون بونابرت هزم بها هزيمة شديدة لدرجة أن الإنجليز يصفون الشخص الذي يعاني من حظ سئ جداً بأنه صادف واترلو.معركة فرضها نابليون على الحلفاء بعد فراره من منفاه في جزيرة إلبا، واضطر أعضاء مؤتمر فيينا إنهاء المؤتمر والتفرغ لحرب نابليون الذين اعتبروه مجرماً. فوصلت إلى بلجيكا مباشرة جيوش إنجلترا وبروسيا، ومن الطرف الآخر جيوش فرنسا على أن تتوافد إلى جهة الراين جيوش بقية الحلفاء. وكان في الجانب الأول القائد الدوق ويلينغتون الإنكليزي والمارشال (بلوخر) الألماني، وبالطرف الثاني (نابليون).

معركة واترلو 18 يونيو 1815م لوحة للفنان "William Sadler"

هضبة الاسد تقع بالقرب من مدينه واترلو, وهي عبارة عن شكل تذكاري لمعركة واترلو على شكل هرم في قمته تمثال لاسد.

كما حدثني السفير عن مدينة انتويرب والتي يطلق عليها أسم مدينة الماس، فذهبنا بجولة اليها وشاهدنا محلات الماس الكبيرة في اسواقها، وأخبرنا أحد تجار الألماس أن أنتويرب تجاهد لتظل عاصمة الماس في العالم بعد أن انتقل نحو 90 بالمئة من صناعة الماس إلى الهند وبقي فيها 1700 فقط من صاقلي الألماس بالمقارنة مع 25 ألفا قبل ثلاثة عقود، إلا أنه لايزال ثمان من كل عشر ماسات غير مصقولة، وواحدة من كل ماستين مصقولتين تمر عبر أنتويرب.

وعند الحديث عن الألماس والقطع النادرة في العالم لابد من الحديث عن مجوهرات الامبراطورة الايرانية فرح ديبا زوجة الشاه محمد رضا بهلوي، حيث كانت تختار قطع المجوهرات بعناية فائقة والجميع يتكلم عن التاج «نور العيون» نسبة إلى اسم الماسة الكبيرة التي تتوسّطه الذي وضعته على رأسها لمرة واحدة اثناء مراسم التتويج في البلاط الملكي واعيد من بعدها الى المتحف والتاج على شكل قلب، وزيّن بالألماس الوردي والأصفر والشفاف، وبسبع حبات من الزمرّد تحيط بكل منها ماسات بيضاء صغيرة.

الامبراطورة فرح ديبا وتاج نور العيون

وفي زيارتي لايران في اكتوبر 1998م زرت متحف ايران الوطني للمجوهرات والذي يقع في بناية البنك المركزي الايراني بطهران والذي يعود بناؤه الى منتصف القرن العشرين، ويحتوي على ربع مجوهرات العالم ويصعب تقدير قيمة هذه المجوهرات التي لا مثيل لها واهم ما فيه (الكرة الارضية) المطلية بـ 34 كغ من الذهب ومزينة بـ 27000 جوهرة، وكذلك (تاج نور العيون) الذي استخدم لمرة واحدة في حفل تتويج الامبراطورة فرح ديبا واعيد للمتحف بعدها كما سلف ذكره.

إن الاوروبيين يستغلون تخلف سكان الدول الافريقية الذين كان استعمارهم لها سبباً فيه ويستخرجون منها الماس، ويشغلونهم للتنقيب عن الماس مقابل أبخس الاجور وشراؤه بأبخس الأثمان كذلك، ثم ينقلونه إلى اوروبا حيث يقومون بصقلها وبيعها بمبالغ خيالية كانت قادرة على أن توفر لسكان افريقيا عيشة كريمة تخرجهم من حالة الفقر والجوع اللذين يعانون منه فيما ولو جرى استثمارها لصالح هذه البلدان، ولكن اللوم لا يقع على الاوروبيين إذ ان بعض القادة الافارقة شركاء في نهب ثروات بلادهم وتهريب ثرواتهم الى الدول التي كانت تستعمرها.

عبور نفق المانش

بعد ذكريات عام 1994م أعود مرة أخرى إلى زيارتي لباريس عام 2010م لمواصلة رحلتي بالقطار في الغرب، وقد انطلق قطاري إلى لندن في موعده تماماً.. الرابعة و 15 دقيقة.. هذه هي المرة الثانية التي أسافر فيها بالقطار عبر نفق "المانش"[44] كانت المرة الأولى عام 1994م، وكان عبور القناة الانكليزية أو ما يسمى بحر المانش يتم بالعَّبارة الى لندن قبل افتتاح النفق الذي يربط بين العاصمتين البريطانية والفرنسية الذي ساهمت في نفقاته الدولتان ودول أخرى وبعض الأثرياء، انفق عليه نحو 7 مليار جنيه إسترليني.

يحتاج الدخول إلى بريطانيا إلى تأشيرة دخول عكس بلدان الاتحاد الباوروبي الأُخرى التي توحد بينها تأشيرة دخول موحدة تُسمى (شينجن)... التي لم تنضم بريطانيا الى اتفاقيتها، وقد طلبت الحكومة البريطانية استثناء العملة الانكليزية (الجنيه الاسترليني) من اتفاقية اليورو ومن التأشيرة الموحدة الأوروبية.. وتوجهت إلى لندن تحت الالحاح المتواصل من الأخوة حيدر العطاس والشيخ أحمد فريد الصريمة ومحمد علي أحمد.. الذين سبقوني إلى لندن.

---

[44]- **نفق المانش أو نفق القناة (Channel Tunnel)** هو نفق طوله (50.450 كيلومترا) يربط الأراضي الفرنسية بالجزيرة البريطانية، نسبة إلى مضيق المانش. نفق بحر المانش (بالفرنسية: نفق جنيه)، المعروف أيضا باسم النفق الأوروبي، وهو نفق للسكك الحديدية يربط بين المملكة المتحدة وفرنسا. وهو ثاني أطول نفق تحت البحر في العالم (بعد نفق سيكان في اليابان)، بدأ البناء في عام 1988، وبحلول عام 1994 بدأ استعمال النفق لخدمات نقل الركاب بالسكك الحديدية التي تربط بين لندن وباريس وبروكسل وخدمات الشحن، في 18 نوفمبر 1996.

وفي ذلك تتشابه بريطانيا مع معظم بلداننا العربية التي لا يمكن دخولها أو التنقل بينها إلا بتأشيرة دخول. في أيام الحكم العثماني كان المواطن يتنقل بين أجزاء وطنه الواحد بوصفه مواطناً في الإمبراطورية العثمانية، وكذلك كان الحال أيام الاستعمار أو الانتداب البريطاني في الأنحاء التي حكمتها الإمبراطورية البريطانية قبل أن تغرب عنها الشمس، وبالنسبة للمواطن اليمني كان يستطيع زيارة مصر وسوريا والأردن بدون تأشيرة طبقاً لمبدأ المعاملة بالمثل.

لا تزال بريطانيا مقصد الكثير من الحكام والسياسيين ومهربي أموال شعوبهم من الوطن العربي وافريقيا على وجه الخصوص، فدورها لم ينته في المنطقة ولا تزال قادرة على تأمين مصالحها وتحقيق حضورها ونفوذها من خلال دورها العالمي ومن خلال حلفائها من الحكام والسياسيين العرب الذين يعتبرونها حتى بعد جلائها عن المنطقة الخبيرة والعليمة بشؤون المنطقة.

أنا على متن القطار الذي يعبر الآن نفق بحر المانش الذي يربط بين المملكة المتحدة وفرنسا فصارتا قريبتين من بعضهما وهما اللتان طالما باعدت بينهما حروب وصراعات على النفوذ واستعمار بلدان الوطن العربي وأفريقيا وآسيا وبعض دول الكاريبي وغيرها حتى اكتشفا بأن مصلحتهما معا تكمن في التقارب وكان نفق المانش إحدى ثمرات التقارب والتواصل وخدمة المصالح ولكن ليس الى حد التماهي، كما كانت اتفاقية "سايكس بيكو" بينهما بداية لتقاسم النفوذ وتقسيم الوطن العربي.

نسيت للحظات جمال الرحلة لأسطر خواطري حتى انتبهت بأن القطار قَطَعَ أرضاً زراعية خصبة عبر أنفاق صغيرة وعلى جانبي الطريق كنا نشاهد المنازل الريفية الجميلة، وحولها ماشية ترعى بهدوء ومساحات واسعة على مد النظر ترويها الأمطار والأنهار ومياه الثلوج احيانا، مما أيقظ في نفسي الحنين الدائم لأيام الصبا والحياة الريفية ومواسم الأمطار الصيفية في دثينة حيث الأمطار الموسمية قليلة وكانت أحياناً لا تمطر إلا كل سنتين أو ثلاث وفي هذه الحالات كان السكان يلجؤون إلى قاضي قرية امقوز، الحكيم العلامة حسين أحمد درامة الذي يدعوهم لإقامة صلاة الاستسقاء طلباً لنزول المطر لري الأراضي التي لكل قطعة فيها اسم كما يسمي الفلاحون اولادهم. وكان درامة يعرف مواسم النجوم فيختار الموسم المناسب لهطول الأمطار، والتوقيت الذي يقيم فيه صلاة الإستسقاء خارج المسجد والقرية وفي مكان يتجمع فيه المواطنون و يفترشون الأرض حتى يأتي الشيخ حسين ليتقدم الصفوف لصلاة الإستسقاء حيث يخطب الإمام بعد الصلاة خطبتين يستغفر الله في افتتاح الأولى تسعاً وفي الثانية سبعاً ويكثر فيهما من الصلاة على رسول الله ومن الاستغفار ويقرأ فيهما:

استغفروا ربكم انه كان غفاراً يرسل السماء عليكم مدرارا وينجدكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم انهارا. وبعد الخطبة يدعو بدعاء النبي صلى الله عليه وسلم وهو:

اللهم اسقنا سقيا رحمة, لا سقيا عذاب، لا سحقا ولا بلاء ولا هدم ولا غرق. اللهم على منابت الشجر وبطون الأودية، اللهم حوالينا ولا علينا.. اللهم اسقنا غيثاً مغيثاً، هنيئاً مريئاً، مريعاً غدقاً، مجللاً سحّاً، عاماً طبقاً دائماً.. اللهم اسقنا الغيث ولا تجعلنا من القانطين. اللهم اسقنا الغيث والرحمة ولا تجعلنا من الآيسين.. اللهم أمن العباد والبلاد والخلق من الأهواء والجهد والضنك..

ها هو قطاري السريع يخترق وأنا على متنه في هذه اللحظات نفق المانش، الساعة تشير الى الخامسة والنصف بتوقيت بريطانيا الصيفي شاقاً طريقه في الظلام بسرعة البرق لا نرى شيئا فقط أضواء تظهر وتختفي سريعاً، سنين طويلة من العمل الشاق وتظافر جهود جبارة استطاع البشر تطويع البحر والتراب ، يحتاج المرء الى تصور هذا المشهد الذي لا يستغرق تجاوزه بالقطار سوى عشرين دقيقه تقريباً، لا ترى فيه النور إلا بعد خروج القطار من النفق عند وصوله الى الأراضي البريطانية.. تصور نفسك جالساً فوق كرسي داخل قطار سريع أو فائق السرعة داخل نفق مظلم أو شبه مظلم تحت بحر هائج وعميق وملايين الأطنان من المياه المالحة فوقك.. ولكن الماء لا يصل إليك ولا برد الأعماق يصل إليك.. دليل آخر على عظمة الإنسان وقدراته وتصميمه في مشروع جرئ وفريد وإنجاز يحتسب لإنسان القرن العشرين.

كل هذا كان مجرد حلم وصار حقيقة مثله مثل أشياء كثيرة كانت مستحيلة.. وكنا نقف أمامها ذاهلين لكنها غدت اليوم من الأشياء المألوفة.. فالآلاف ينتقلون يومياً عبر ضفتي المانش بين لندن وباريس والعكس.. كأنه أمر عادي وكأن هذا النفق وجد هنا منذ الأَزل.

كان الرئيس الفلسطيني ياسر عرفات"أبو عمار"[45] (رحمه الله) يشبه الوضع في منطقه الشرق الأوسط بالنفق المظلم لشدة ما هو صعب جداً ومعقد، لكنه كان يقول بتفاؤل انه يرى مآذن

[45]**ياسر عرفات**، 24 أغسطس1929 ، سياسي فلسطيني ورمز لحركة النضال الفلسطيني من أجل الاستقلال. اسمه الحقيقي محمد ياسر عبد الرؤوف عرفات القدوة الحسيني وكنيته "أبو عمار". رئيس السلطة الوطنية الفلسطينية المنتخب في عام 1996. ترأس منظمة التحرير الفلسطينية سنة1969 كثالث شخص يتقلد هذا المنصب منذ تأسيس المنظمة عام 1964، وهو القائد العام لحركة فتح أكبر الحركات داخل المنظمة التي أسسها مع رفاقه عام 1959م في الكويت، كرس معظم أوقاته لقيادة النضال الوطني الفلسطيني مطالباً بحق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره. قاد الكفاح الفلسطيني من عدة بلدان عربية بينها الأردن ولبنان وتونس، ودخلت قوات المنظمة مع القوات الأردنية في داخل المدن الأردنية فيما عرف بـ "أيلول الأسود"، وبعد خروجه من الأردن أسس له قواعد كفاح مسلح في بيروت وجنوب لبنان، وأثناء الحرب الأهلية في لبنان أنضم إلى قوى اليسار في مواجهه قوى لبنانية يمينية. وخرج من لبنان إلى تونس بعد أن حاصرته القوات الإسرائيلية في بيروت الغربية بعد الاجتياح الإسرائيلي للبنان، وارتكاب اسرائيل لمجزرتي صبرا وشاتيلا، وأهم تحول سياسي في مسيرته حدث عندما قبل بقرار مجلس الأمن الدولي رقم 242 عام 1988م وشارك في مؤتمر مدريد عام

القدس والأقصى في نهاية هذا النفق المظلم وأن القدس على مرمى حجر ومات والعرب لا يزالون داخل نفس النفق المظلم ووضع القدس يزداد اظلاما بفعل التهديد والاستيطان الاسرائيلي المكثف الذي لايستنكره أحد أو يعاقب اسرائيل عليها.

وبمناسبة الحديث عن الأنفاق فقد تم الاتفاق على الوحدة اليمنية في نفق جولدمور عام 1990م وكان علامة شئوم لكي يعيش اليمن في نفق مظلم منذ ذلك اليوم ولم تخرج منه حتى اليوم! ففي اللحظة التي وصلت فيها محادثات "حاكمي عدن وصنعاء" إلى أفق مسدود، دخلا بسيارتهما نفق (غولدمور) في عدن حين لمعت الفكرة في ذهن أحدهما فقال لصاحبه "أن اليمن يعيش في نفق مظلم وسوف نخرجه منه" ارتاحا للفكرة ووقعا على اتفاق الوحدة ، وفي ظنهما أنهما يخرجان اليمن من النفق المظلم.. لكن من حيث لا يشعران أو يتوقعان أدخلاه في نفق أشد ظلاماً، فأحوال البلاد والعباد تسير منذ ذلك الحين من سيئ إلى أسوأ، ومن حرب إلى حروب ومن أزمة إلى أزمات وقد أكلت الحروب الأخضر واليابس وأنتشر المرض والفقر والجوع والبطالة وساد الظلم والفساد ولم تستطع اليمن أن تخرج من نفق العليين (علي سالح)[46] كما يردده البعض من أبناء صنعاء بطريقتهم الساخرة.. حتى اليوم

1991م، وبعد قبول المنظمة بحل الدولتين دخل في مفاوضات سرية مع الحكومة الإسرائيلية تمخضت عن توقيع اتفاقية أوسلوو التي أرست قواعد سلطة وطنية فلسطينية في الأراضي المحتلة وفتح الطريق أمام المفاوضات الفلسطينية الإسرائيلية على الحل الدائم. وفاز مع إسحاق رابين وشمعون بيريز بجائزة نوبل للسلام عام 1994م

تدهورت الحالة الصحية للرئيس الفلسطيني عرفات تدهوراً سريعاً في نهاية تشرين الأول/أكتوبر 2004، قامت على إثره طائرة مروحية بنقله إلى الأردن ومن ثمة أقلته طائرة أخرى إلى مستشفى بيرسي في فرنسا في 29 أكتوبر2004 ظهر الرئيس العليل على شاشة التلفاز مصحوباً بطاقم طبي وقد بدت عليه معالم الوهن مما ألم به. وفي تطور مفاجئ، أخذت وكالات الانباء الغربية تتداول نبأ موت عرفات في فرنسا وسط نفي لتلك الأنباء من قبل مسؤولين فلسطينيين، وقد أعلن التلفزيون الإسرائيلي في 4 نوفمبر 2004 نبأ موت الرئيس عرفات سريرياً وأن أجهزة عرفات الحيوية تعمل عن طريق الأجهزة الإلكترونية لا عن طريق الدماغ. وبعد مرور عدة أيام من النفي والتأكيد على الخبر من مختلف وسائل الإعلام، تم الإعلان الرسمي عن وفاته من قبل السلطة الفلسطينية في 11نوفمبر/تشرين الثاني 2004، وقد دفن في مبنى المقاطعة في مدينة رام الله بعد أن تم تشييع جثمانه في القاهرة، وذلك بعد الرفض الشديد من قبل الحكومة الإسرائيلية لدفن عرفات في مدينة القدس كما كانت رغبة عرفات قبل وفاته .تضاربت الأقوال كثيرا في وفاة ياسر عرفات.. إذ يعتقد بعض الفلسطينيين والعرب بأن وفاته كانت نتيجة لعملية اغتيال بالتسميم أو بإدخال مادة مجهولة إلى جسمه، فيقول طبيبه الخاص الدكتور أشرف الكردي بإمكانية تسميمه". هذا مع العلم أن أن الأطباء الفرنسيين بحثوا عن سموم في جثة عرفات بعد مماته في باريس، وبحسب التقرير الطبي الفرنسي فقد وردت به أنه بعد الفحوصات الطبية الشاملة التي كانت سلبية بما فيها دخول سموم للجسم ، كذلك رجح بعض الاطباء ممن عاينوا فحوصاته الطبية ومنهم الاطباء التونسيين واطباء مستشفى بيرسي المتخصصون بأمراض الادمان يكون عرفات مصابا بمرض تفكك صفائح الدم وتجدر الإشارة أن زوجة الرئيس الفلسطيني السيدة سها عرفات هي المخولة الوحيدة بحسب القانون الفرنسي بالإفصاح عن المعلومات الطبية التي وردتها من مستشفى بيرسي والأطباء الفرنسيين وهي لا زالت ترفض إعطاء اية معلومات لاية جهة حول هذا الموضوع، وبعد فحوصات من قبل اطباء روس وسويسريين تأكدت في نوفمبر 2013 وفاة عرفات بالسم واشعاع البلونيوم.

[46]– علي سالح: المقصود هنا أسم علي عبد الله صالح وعلي سالم البيض مدموجين بطريقة ساخرة.

أما قطاري فقد خرج من نفق المانش إلى الضوء والشمس وظهرت السماء زرقاء جميلة ومثيرة للغاية، رحت أتأمل الريف البريطاني من النافذة... صور بديعة من الأشجار والاخضرار في بساط ممتد على جانبي الطريق إلى لندن.

إلى يساري لبنانيان يتحدثان بهمس الى بعضهما، بينما انشغلت بالكتابة عن كل ما حولي .. الورق والقلم هما رفيقاي في هذه الرحلة، كتاب شكسبير "حكايات" أنيسي في وحدتي لتجزية الوقت حتى الوصول الى محطتي الأخيرة في لندن التي لم أزرها منذ أحد عشر عاما.

مدينه لندن تتشابه مع دبي في شيء واحد وهو هجرة الأجانب إليها من كل أنحاء العالم... من جميع الجنسيات عرب، أفارقه، من آسيا والأمريكيتين، في البداية جاءوا الى بريطانيا بحثاً عن العمل والرزق لكنهم مع الزمن تحولوا الى مواطنين بريطانيين، فالقوانين البريطانية تمنح الجنسية البريطانية للأجنبي بعد خمس سنوات فقط من مكوثه فيها بعكس الوضع في الدول العربية التى لا يحصل فيها العربي أو الأجنبي على جنسية الدولة حتى لو مكث فيها ثلاثين سنة وأفنى حياته فيها.

أما المهاجرون الأسيويون من الهند وباكستان والفلبين وسواهم في الإمارات ودول الخليج الأخرى فلا يحصلون على هذا الحق مهما عملوا أو عاشوا فيها..

في بريطانيا الصورة مختلفة فهم يعتبرون أنفسهم مواطنين بريطانيين يتكلمون الانجليزية ويحتمون بقوانينها في الداخل والخارج ويحملون جنسيتها وجوازها وأعضاء في برلمانها ووزراء في حكومتها، أما في البلدان العربية فلا قانون يحميهم، وفي الخليج يرزحون تحت سطوة تأشيرة الإقامة والكفيل!

العرب موجودون بكثرة في بريطانيا وأنا أتجول في بعض شوارع لندن كان بوسعي سماع النقاش والجدال الجاري باللغة العربية، ورؤية لافتات محلات مكتوبة بأحرف عربية واستنشاق البخور والتبغ المحترق من الاراجيل والشيش (المداعة) التي يشتمها المرء من بعيد قبل منع تعاطيها في الاماكن المغلقة، فقد نقل العرب الى لندن كل عاداتهم وتقاليدهم بما فى ذلك الأراجيل والمداعات فأفسدوا البيئة وأدخلوا إلى بريطانيا الغريب من العادات والسلوك غير المألوف لدى سكان هذا البلد العريق، وعاصمته لندن التي كانت إلى زمن غير بعيد عاصمة إمبراطورية عظمى لا تغيب عنها الشمس استعمرت معظم بلدان العالم أما اليوم فقد انعكست الآية وغزت شعوب المستعمرات السابقة لندن وسواها بملايين البشر الذين وفدوا إليها من القارات الثلاث وحصلوا على جنسيتها وتناسلوا وتكاثروا فيها لأنهم لا يعرفون شيئاً أسمه تحديد أو تنظيم

النسل، بعكس الانجليز سكان البلد الأصليين الذين لا ينجب الفرد منهم إلا طفلا أو طفلين أما انجاب ثلاثة أطفال فنادرا جدا.

لهذا فان معظم الذين تراهم في الشوارع وتتعامل معهم من البريطانيين هم من أصول أسيوية وأفريقيه في القطارات، المطارات، الفنادق، المطاعم، الباصات، التاكسي، والمحلات التجارية وعمال نظافة وسواها، أما سكان البلاد الأصليين فيتوزعون في أحياء لندن الراقية وفي أرياف بريطانيا بعيداً عن صخب المدينة ومن هذا الغزو الأفرو– أسيوي.

بدأت زيارتي إلى لندن في 25 أغسطس وأمتدت لأكثر من أسبوع..

كان الجو صحواً في لندن بعكس ما اشتهر عنها بأنها مدينة الضباب، حيث لم تهطل حتى قطرة مطر واحدة أو حتى رذاذ خفيف وقد أغراني هذا الطقس الرائع بالتجوال في بعض شوارع المدينة العريقة..

لكن ها هي بهجتي تتبدد فجأة إذ أن المهاترات المتطايرة بين المعارضة اليمنية الجنوبية في لندن بين بعضها البعض تجعلك تكره العمل السياسي في بلادنا.. فهم يقذفون زجاج بيوتهم بأحجارهم عبر الهجوم على بعضهم البعض في الصحف والمواقع الالكترونية، هذه الصراعات نفسها هي التي أوصلتهم بالأساس الى لندن ولا تزال مستمرة بينهم حتى وهم بعيدون أو مبعدون عن وطنهم.. وبدل أن يتحدوا للعودة إليه، وضد من كان السبب في نفيهم فهم مشغولون في تصفية الحسابات فيما بينهم، ومثلما لم تتسع لهم السلطة في الجنوب في السابق فإن لندن وبريطانيا العظمى لن تتسع لهم اليوم طالما ظلوا بهذه العقلية، ويبدو لي من أحوالهم وطريقة تصرفاتهم كما اطلعت عليها أنهم لم يتعلموا شيئا من دروس التاريخ والماضي ولا من البيئة الديمقراطية البريطانية.

وفى حين تصالح الجنوبيون في الداخل عبر عملية تاريخية عظيمة هي "التصالح والتسامح" وطي صفحة صراعات الماضي كلها منذ 1967م فإن المعارضة الجنوبية في لندن معارضات وليست معارضة واحدة ولها مسميات كثيرة جنوبية وعدنية، فهي مشتته ما بين " الهيئة" و"تاج" و "المستقلين" وهم مشغولون بشتم بعضهم البعض بطريقة بذيئة وسوقية على طريقه العوالم في شارع محمد علي في القاهرة!!.

في لندن (اغسطس 2010) التقيت بزملاء رحلتي إلى "كان" الذين سبقوني الى العاصمة البريطانية حيدر العطاس، والشيخ احمد الصريمة ومحمد علي أحمد، كما التقيت بكل من محمد فريد وصالح فريد وناصر الميسري الذين تصادف وجودهم في لندن خلال وجودي

فيها. كما وافقت على مقابلة شخصيتين أمريكيتين وصلتا من واشنطن ويدعيان بأنهما على علاقة بالحكومة الأمريكية ولكنني كنت اشك في ذلك.

التقيت مع الجنرال المتقاعد "جيمس ماتيس[47]" مشرفاً على الشركة الامنية في أفغانستان كما حضر اللقاء من طرف الجنرال مستشاره السيد "جون مينز" تم اللقاء في مقر إقامتي في لندن بفندق جروفنز(Grosvenor) في بارك لين الذي يقع بالقرب من حديقة هايد بارك، وقد وعدا بمساعدة اليمن وزعما أنهما يرغبان باستقرار الأوضاع فيها، وأنهم يشكون في إخلاص علي عبد الله صالح للأمريكان وقد وصفاه بأنه كَّذاب مراوغ ولا بد من تغييره.. هذا ما قالاه خلال الحديث الذي حضره معي محمد علي أحمد وناصر الميسري الذي نظم هذا اللقاء.. لكن الواقع يقول شيئاً آخر، فواشنطن تعتبر علي عبد الله صالح ونظامه حليفاً لها في المنطقة، وفى مكافحة الإرهاب وتقدم له شتى أنواع الدعم السياسي والمادي والعسكري والاستخباراتي وما قاله الجنرال لاينبغي ان يستند عليه احد في ان ثورات الربيع العربي كانت اميركية لان الفاصل الزمني بين حديث معه وبين نشوبها نصف عام فقط لانها كانت ثورات شعبية اصلية تأخرت كثيرا.

الجنرال جيمس ماتيس

وقد وجهت لهم عدة أسئلة واستفسارات :

من أنتم ؟ سألتها وواصلت اسئلتي:

هل أنتم مكلفون من الادارة الأميركية أو وزارة الخارجية أو وكالة الاستخبارات !!

[47] **جيمس ماتيس**) بالإنجليزية (James Mattis :جنرال أمريكي متقاعد ووزير الدفاع الأمريكي الحالي، عمل في قوات مشاة بحرية الولايات المتحدة، وتدرج في المناصب حتى تقاعد عام 2013 برتبة جنرال (4 نجوم). تولى رئاسة القيادة المركزية الأمريكية من 2010، وحتى 2013. كما عمل قائدًا أعلى لحلف الناتو من 2007 وحتى 2009. يُعتبر ماتيس أحد أعلام حرب العراق؛ حيث قاد معركة مدينة الفلوجة عام 2004، وقاد الفرقة الأولى لقوات مشاة البحرية في حرب العراق. كما شارك كذلك في حرب أفغانستان، وقاد الفوج السابع من قوات مشاة البحرية. اختاره الرئيس الأمريكي دونالد ترامب في ديسمبر 2016 ليشغل منصب وزير الدفاع الأمريكي في إدارته وتولى مهام منصبه رسمياً في العشرين من شهر يناير 2017،[1][2] بعد إقرار مجلس الشيوخ الأمريكي باستثناء خاص له من شرط ممارسة العسكري للحياة المدنية لمدة 7 سنوات قبل توليه منصب وزير الدفاع

هل رفعتم يدكم عن علي عبد الله صالح حتى تطالبون باخراجه من السلطة وهو المعروف بعلاقاته مع أميركا منذ استلامه السلطة عام 1978م وحتى اليوم (2010) !!

لكنهم ردوا بأنهم مكلفون رسمياً حسب قولهم؟ –ولكن ليس لديهم تفويض بالافصاح عن الجهة التي يعملون لديها والتي كلفتهم باللقاء معنا–، وأكدوا أنهم على استعداد للتخلص منه في حال وافقت على أن اكون بديلاً عنه ! –وكان محمد علي الذي يجلس بجانبي مقابلاً لهم يقول لي أقبل– ولم ارد عليه وكان منزعجاً من عدم قبولي بهذا العرض لاستلام السلطة في لندن وكنت متأكداً أن هذا العرض مشبوه! وسألتهم كيف الوصول إلى السلطة هل عبر انتخاب أو عبر انقلاب، فقالوا عليك أن توافق وتترك التفاصيل لنا ولا تسألنا (الأن) عن الطريقة للتخلص من علي عبد الله صالح !

لم اعطهم رداً .. وقلت اننا سندرس مقترحهم ولكننا اتفقنا على أن لا نتفق.

اقترحوا ان نلتقي مجدداً في عمان بتاريخ 18 سبتمبر 2010م.

اعتذرت لاحقاً عن هذا اللقاء

بعد ذلك انزعج محمد علي احمد عندما أخبره ناصر الميسري بأنني قد اعتذرت عن اللقاء، واعتبر ذلك التفافاً على ما تم الاتفاق عليه بيني وبينهم في اللقاء الذي حضره وأنني سألتقي بهم دون علمه .. ولم يكن ذلك صحيحاً ، وبعد 10 اشهر من هذا اللقاء ، تعرض الرئيس علي عبد الله صالح وقياداته لمحاولة اغتيال جماعية في مسجد النهدين برئاسة الجمهورية (3–6–2011) ولم تعرف الجهة التي خططت لهذه المحاولة ، والبعض يعتبرها لغزاً. لاول مرة يتهم الرئيس صالح حزب الاصلاح – اخوان اليمن في نوفمبر 2017 بمحاولة الاغتيال سالفة الذكر كانت الاصابع من قبل تشير الى الفريق علي محسن الاحمر والشيخ حميد الاحمر

كما استغليت بعض وقت الفراغ الذي أمكنني الحصول عليه بزيارة أهم المعالم السياحية في لندن ومنها المتحف البريطاني.. وحديقة هايد بارك التي تشتهر بـ "زاوية المتكلمين" (Speakers Corner) والتي تقع في القسم الشمالي الشرقي من الحديقة وهي المكان الذي يجتمع فيه المتحدثون كل يوم أحد لإلقاء كلمات أو خبرات أو تعبير عن مطلب كمطلب البدو في الكويت بالمواطنة واحيانا يتجمع الصهاينة لتأييد اسرائيل والفلسطينيين والعرب لتأييد قضاياهم من أطراف من يكثر تواجده في الهايد بارك شخص اسود يدعي انه الله... ولقد شاهدت أحد اليمنيين وهو ينتقد الرئيس السابق علي عبد الله صالح (الذي لم يكن يقبل أن يسمى أي رئيس

يمني سابق بهذه الصفة "رئيس سابق"- وهو اليوم يحمل لقب الزعيم) ومن على منبر زاوية المتكلمين في لندن بأعلى صوته منتقداً أياه بظلم الشعب وسرقة خيراته والدكتاتورية التي يحكم بها البلاد منذ 30 عاماً والتهميش المتعمد للجنوب وأبنائه.. والكثير أيضاً وذكر بالتحديد حادثة قدومه لحضور تخرج إبنه من كلية ساند هيرست[48] في الطائرة الرئاسية ومعه مئات المرافقين وتبذيره للأموال من دون حساب.. بل على حساب الشعب...! وهنا نرى انه يعبر عن رأيه بكل حرية حتى ولو كان يتكلم عن الحكومة البريطانية ولايستطيع أن ينطق في بلاده حتى ولو بكلمة واحدة عن الرئيس في بلاده أو في أي بلد عربي آخر .

صالح مع ابنه خالد الذي عينه قائداً للواء الثالث مشاة جبلي ومنحه رتبة مقدم فور تخرجه

كما زرت المقر الملكي في (باكنجهام49Buckingham Palace) هذا القصر الذي كان رمزاً لعظمة الامبراطورية البريطانية التي لم تكن تغب عنها الشمس.. من الأمريكيتين الى الهند مروراً

---

[48] – **كلية سانت هيرست:** لم يكن احد من عامة الشعب يستطيع الالتحاق بهذه الكلية مرتفعة الرسوم30 الف جنيه استرليني، وقد تخرج منها احمد علي عبد الله صالح وعمار محمد عبد الله صالح ابن اخ الرئيس صالح، وكذلك ابن مجاهد ابو شوارب وابن محمد القاسمي رئيس الاركان الاسبق وغيرهم من ابناء حكم الاولجاركية في عهد صالح.

[49] – **قصر باكنجهام:** في عام 1703 قرر دوق باكنجهام ونورماندي إنشاء منزل كبير على الأرض, والذي يشكل جزءاً كبيراً من قصر باكنجهام اليوم. عام 1761 بيع منزل باكنجهام للملك جورج الثالث مقابل 21,000 جنيه إسترليني- القصر هو مبنى خاص بالعمل إلى حد كبير, وهو يعد عنوانا للنظام الملكي الدستوري في بريطانيا ومقصدا سياحيا, ويضم مكاتب أولئك الذين يقومون نشاطات يومية، تعين الملكة ودوق أدنبرة وأسرهم, وهو أيضاً المقر الرسمي لانعقاد الاحتفالات الملكية الكبيرة, واستقبال ملوك ورؤساء يزورون بريطانيا زيارات دولة خارجية, والتعيينات التي تنظمها الأسرة المالكة, وغرف الدولة تشكل نواة القصر كمقر للعمل، يبلغ طول واجهة القصر 108 متراً ويبلغ عمقه 120 متراً (بما في ذلك الساحة المربعة المركزية) وارتفاعه 24 متراً, ويضم قصر بكنجهام أربعة أجنحة رئيسية تشكل مستطيلاً يحيط بالفناء وتقيم العائلة المالكة وضيوفها ويوجد بالقصر 775 غرفة, تشتمل على 19 غرفة دولة, و52 غرفة ملكية في الجناح الشمالي وغرف للضيوف, و188 غرفة للموظفين, و92 مكتباً, و78 حماماً.. وعادةً ما تُقام المراسيم والمناسبات الاجتماعية الرسمية في عددٍ من القاعات في الطابق الأول من القصر وتشمل هذه القاعات قاعة الرقص، وتعتبر صالة الاحتفالات الرسمية للقصر وتتميز بفخامة أثاثها وحوائطها المزينة بلوحات زيتية أصلية، وقاعة العرش، بالإضافة إلى القاعة المعروفة

بمصر وبعدن التي زارتها الملكة اليزابيث الثانية عام 1954م.. هذا القصر مايزال مقراً للأُسرة الحاكمة البريطانية ومزاراً للسياح من كل انحاء العالم الذين يلتقطون الصور له ومع حراسه المشهورين بوقفتهم الاستعدادية والتي لا يرف فيها لهم جفن حتى ساعة تبديلهم والتي تعد من أهم المشاهد التي يحب أن يراها كل زائر للندن لأن هذا التقليد مازال مستمراً منذ ما يزيد عن 500 عام.. ونفس المشهد تراه في موسكو أمام ضريح لينين في الساحة الحمراء حيث تشاهد ألاف السياح ينتظرون وقت تبادل الحرس ليشاهدوا هذا العرض العسكري الرائع وهم يلتقطون صوراً تذكارية لهذا المشهد الذي يذكرني بحرس الشرف في بولندا بعد مراسم وداع بولونية في مطار وارسو هي الأروع فيما شاهدت من مراسم في بقية بلدان العالم، وذلك من حيث العرض العسكري والموسيقي، والحركة النظامية التي تهتز لها الأرض والتي تذكر بتقاليد العسكرية البروسية، فحرس الشرف يجري اختيارهم بعناية فائقة من حيث الطول والوسامة واللياقة البدنية ويتلقون تدريبا صارما على هذا .

قصر باكنجهام Buckingham Palace هو المقر الرسمي في لندن لملوك بريطانيا منذ عام 1837 في عهد الملكة فيكتوريا

باسم "جاليري الملكة" والتي تقع في الجهة الغربية من القصر في موقع كنيسة صغيرة تعرضت للقصف خلال الحرب العالمية الثانية، وتم ترميمه وإعادة افتتاحه عام 1962م.

النصب التذكاري للملكة فكتوريا على مدخل قصر باكنجهام التي احتلت عدن في فترة حكمها عام 1839م

واثناء زيارة بريطانيا قمت بزيارة مدينة برمنغهام التي يقيم فيها الأخ محمد علي أحمد وأولاده حضر عدد من الأصدقاء من الجالية اليمنية في برمنغهام ومانشستر وشيفيلد وكاردف وساوث شيلدز وغيرها وسمعنا منهم حديثا شيقا عن الهجرات الى هذه المدن والظروف الصعبة التي مروا بها ولاهمية ما جاء في مقال في صحفية الشرق الاوسط تحت عنوان (يمنيون في بلاد الضباب[50]) للكاتب محمد جميع اورد بعضاً مما جاء فيه:

[50] - يمنيون في بلاد الضباب ، تحقيق للكاتب الصحفي محمد جميع – صحيفة الشرق الاوسط 4 ديسمبر 2010م .

عاش اليمنيون الأوائل في برمنغهام ومانشستر وشيفيلد وكاردف وساوث شيلدز وغيرها من مدن المهجر البريطاني وبقوا رغم الشتات والبرد يسافرون ويعملون في مصانع الصلب، ولهم حكايات يرويها الموج والسواحل الممتدة وسفن البخار المعبأة بالفحم والبضائع. وكانت طلائع الهجرات اليمنية إلى بريطانيا قد وصلت في نهايات القرن التاسع عشر، حسب أغلب المؤرخين، عبر البحار، وعملوا في البحار معظم الأوقات، وحينما نزلوا إلى البر اتجهوا إلى مصانع السيارات والحديد والصلب يضخون فيها من عرقهم ووقتهم ودمائهم

تقول الدراسات إن أوائل اليمنيين الذين وصلوا إلى المملكة المتحدة قد قدموا إليها في ستينيات القرن التاسع عشر 1860م، وما بعدها. وعليه؛ فإن الجالية اليمنية يمكن أن تعد أقدم الجاليات المسلمة في بريطانيا على الرغم من أنها اليوم ليست أكبر الجاليات المسلمة في المملكة المتحدة. وتذهب بعض التقديرات إلى أن عدد اليمنيين في المملكة المتحدة يتراوح بين 70000 و80000 يمني، أو بريطاني من أصل يمني.

يذكر الباحث محمد المسيبي أن أغلب المهاجرين اليمنيين الأوائل كانوا غير متزوجين، والمتزوجون منهم لم يجرؤوا على إحضار زوجاتهم إلى بريطانيا نظرا لعدم ثقتهم بالبقاء في المهجر أو لخوفهم على أسرهم من الذوبان في خضم المجتمع البريطاني الذي لم يكونوا بعد قد ألفوه في الموجات الأولى من الهجرة. ويذكر كذلك أن الكثير من اليمنيين تزوجوا إنجليزيات أو آيرلنديات، مما أدى إلى انتهاء العلاقة بالزوجة اليمنية في اليمن بالنسبة للذين كانوا متزوجين من المهاجرين الذين عادو مع زوجاتهم الانجليزيات وقد شاهدت بعضهن في الضالع والشعيب وهن يحملن الماء والحطب كغيرهن من النساء في المنطقة الوسطى في شمال اليمن حيث انجبن وتعايشن مع سكان هذه المناطق رغم صعوبة الحياة فيها ولكن دولة الحب غلابة.

أن أول مسجد أسس في بريطانيا قد أنشئ في مدينة كاردف، عاصمة مقاطعة ويلز، أنشأه بحارة يمنيون كانوا يجوبون البحر بين الهند وعدن وكاردف في خدمة السفن البخارية التي تعمل بالفحم الذي مثل أول فرصة عمل لليمنيين الذين ركبوا البحر قديما، غير أن أهم مراكز تجمع اليمنيين في المهجر البريطاني يعد في مدينة برمنغهام في مقاطعة الوسط الإنجليزي، حيث اشتغل معظمهم في صناعة الصلب على اعتبار أن الأجيال الأولى من اليمنيين الذين وفدوا إلى المدينة لم يكونوا من أصحاب الكفاءات العلمية التي تؤهلهم إلى العمل مع البحرية البريطانية، ولذلك توجهوا إلى مهن شاقة جسديا، لكنها لا تحتاج إلى مجهود عقلي أو كفاءة علمية، حيث كانت الأولوية في وظائف البحارة تعطى لمن يجيدون القراءة والكتابة على الأقل.

وكان لمدينة كاردف نصيبها من هجرة اليمنيين، إذ وصل تعداد اليمنيين في عشرينات القرن العشرين إلى 1500 يمني كانوا حينها يمثلون نصف عدد أبناء الأقليات العرقية في المدينة في ذلك الوقت.

أما ليفربول فقد وصلها اليمنيون في مطالع القرن العشرين حيث بدأوا في الانتقال من البحر إلى البر، وبدأت المدينة تشهد مع مرور سنوات القرن المنصرم عددا متزايدا من المحلات الصغيرة (الدكاكين) التي يمتلكها اليمنيون، حيث لا تزال الجالية اليمنية في ليفربول من أكثر الجاليات اليمنية ممارسة للأعمال التجارية وامتلاكا للمحلات الصغيرة، وإن كان البعض قد دخل في ميادين أوسع على المستوى الاقتصادي.

أما لندن؛ فعلى الرغم من أنها العاصمة فإن وجود اليمنيين فيها يعد بنسبة أقل مقارنة بغيرها من المدن البريطانية، غير أن جالية يمنية يهودية توجد في إن دبليو لندن، وستامفورد إيل. حيث لا يزال اليهود اليمنيون، كغيرهم من أبناء الجالية اليمنية في بريطانيا، محتفظين بالعادات والتقاليد اليمنية، بما في ذلك مضغ القات وتدخين النارجيلة.

وتوجد كذلك جالية يمنية كبيرة في شيفيلد، بالإضافة إلى جاليات أخرى في مانشستر ونيو بورت وساوث شيلدز التي يرجع تاريخ وصول اليمنيين إليها إلى عام 1890م، وهي أول مدينة بريطانية شهدت أول إضراب أو أعمال شغب ومظاهرات سميت في ما بعد بـ«احتجاجات العرب» (Arab Riots)، قام بها البحارة العرب اليمنيون للمطالبة بالمساواة في حقوق العمالة بعد إحساسهم بعدم المساواة في هذه الحقوق مع البحارة البيض وذلك في عام 1919م في قصة شهيرة تحولت في ما بعد إلى فيلم وثائقي مثير عرض في أكثر من مدينة بريطانية.

وفي سنة 1977 زار ساوث شيلدز الملاكم العالمي المسلم محمد علي كلاي الذي عقد زواجه الإسلامي في مسجدها الذي يسمى «الأزهر» تيمنا بالأزهر الشريف في مصر، وقد التقى أعيان الجالية اليمنية هناك، وفي ما بعد تحولت قصة الزيارة إلى فيلم وثائقي تحت عنوان «ملك الجنوب» (The King of the South) أرخ للزيارة وأثرها على معنويات الجالية اليمنية والمسلمة بشكل عام في هذه المدينة من مدن الجنوب البريطاني.

بعد الحرب العالمية الثانية، واستبدال الكثير منهم مهنته في البحر بمهنة أخرى تمثلت في العمل بمصانع الحديد والصلب في مدن الوسط والشمال البريطاني، التي نهضت صناعة الحديد والصلب فيها على أكتاف المهاجرين اليمنيين الذين تحولوا إلى العمل فيها بعد كساد مهنة البحارة، إثر التحول من الاعتماد على الفحم في تسيير السفن إلى المحركات الحديثة.

وفي المصانع تبدأ قصة اليمنيين مع الحديد الذي ألانوه وشكلوه وعايشوا مراحل تكوينه في السيارات والمعدات المختلفة، قصص عجيبة من المعاناة والصبر والكفاح. ولا يزال عدد من المعمرين من المهاجرين اليمنيين يعيش في مدن الشمال والوسط البريطاني، غير أن بعض المهاجرين اليمنيين في بريطانيا قد شدوا الرحال في رحلة عكسية إلى السعودية ودول الخليج العربي، وبعضهم هاجر إلى الولايات المتحدة، في سبعينات وثمانينات القرن المنصرم نتيجة للأزمة التي عصفت بقطاع الصناعة في بريطانيا في ذلك الوقت. ولكل منهم قصة تستحق أن تروى.. وكان الأغلبية منهم من الضالع والشعيب ويافع والمناطق الوسطى بشمال اليمن .

يقول العم أحمد (85 عاما): «ركبت البحر من عدن إلى أديس قبل ستين سنة ومنها إلى مصر ثم إيطاليا، وقال لنا الطليان: معنا لكم شغل. قلنا: ما هو؟ قالوا: عسكرة في ليبيا. قلنا لهم تمام. وسافرنا ليبيا مع البحر ودربنا (النصارى) على السلاح، وقالوا تقاتلون معنا لصوص الصحراء، وخرجنا معهم وكنا في المقدمة والنصارى (الطليان) في المؤخرة، ونحن في الطريق هجم علينا (قطاع الطرق) وهم يصرخون: (الله أكبر) وصرخنا بدورنا: (الله أكبر على الكفار قطاع الطرق) ودارت معركة قصيرة فر الطليان بعدها وتركونا في المعركة، وطلع لنا (قطاع الطرق) مثل الجن من حفر حفروها تحت الأرض، وعرفنا في ما بعد أننا كنا نقاتل الثوار الليبيين الذين أسرونا وقالوا لنا: من وين جيتوا؟ (من أين أتيتم؟) قلنا: من اليمن. قالوا: كيف تقاتلون ضد إخوانكم مع الطليان؟ وقلنا لهم: والله ما لنا علم، قالوا لنا الطليان أننا سوف نقاتل (لصوصا وقطاع طرق)، وعسكرنا معهم من أجل الراتب». ثم يحكي كيف أن الثوار الليبيين أكرموهم في ما بعد وأوصلوهم إلى مصر، وأعطوهم من المال ما يكفي لإيصالهم إلى اليمن عن طريق البحر الأحمر. غير أنهم عندما وصلوا إلى أديس أبابا غيروا وجهتهم وعادوا أدراجهم. وهنا قاطعته: إلى أين؟ قال: «إلى البحور السبعة؟» قلت: كيف؟ قال: «يا ولدي والله لا يوجد بحر إلا وقد ركبه عمك أحمد، من الجابان (اليابان) إلى هونغ ونغ والهند وفرانس (فرنسا) وبلاد الجرمان (ألمانيا) والطليان وأميركا.. ووصلت بلاد الثلج اللي يسمونها آيسلاند وأبحرت من بنما، وبنما بلاد خِلقة (جميلة) وبناتها حلوات قوي». ويضيف: «يا ولدي الإنجليزيات حلوات، لكن الواحدة منهن ما تخلي فلوسك تحط (مبذرات) واليمنية تساير ظروفك، بس إنها مسكينة ما تهتم بنفسها».

قلت: من تفضل إذن؟ قال: «في الشباب فضلنا الإنجليزيات، وبعدما عقلنا رجعنا وتزوجنا عربيات. العربية تهتم بحالك ومالك، كل الذين تزوجوا إنجليزيات راحوا وانتهوا، وجاء عيالهم على أمهاتهم، لم يصبحوا عربا ولا صاروا إنجليزا».

أما علي محمد (70 عاما)، فيقول: «تعبت من اللغة الإنجليزية، على الرغم من وجودي ما يقارب أربعين سنة في بريطانيا، قالوا لي لو تزوجت إنجليزية فسوف تتعلم الإنجليزية، وتزوجت إنجليزية وانتهت المعاناة، ليس لأني تعلمت الإنجليزية، بل لأن الزوجة تعلمت بسرعة اللغة العربية، وأصبحت كأنها من قريتي في اليمن».

لغة إنجليزية بلكنة يمنية .. للجيل الأول من اليمنيين حكاياتهم الطريفة في التعامل مع اللغة الإنجليزية. فبحكم أنهم ما أتوا لتعلم الإنجليزية أو غيرها من اللغات والعلوم، وإنما أتوا لطلب الرزق، فإنهم تعلموا الإنجليزية بالمشافهة والمحادثة والتخاطب اليومي مع البريطانيين في الشوارع أو المصانع أو الأماكن العامة، وبعضهم أخذ الإنجليزية عن زوجته التي كان لها الأثر الأكبر في إتقانه «الإنجليزية المحكية». وفي القاموس اليمني – الإنجليزي أو الإنجليزي – اليمني، سمه ما شئت، هناك مفردات ينطقها اليمنيون بشكل يحتاج إلى شرح وترجمة، كما لبعض العرب في بريطانيا طرائفهم العجيبة في نطق بعض الكلمات والجمل الإنجليزية، ومن الكلمات الإنجليزية التي تنطق بلكنة يمنية:

لصبطان: Hospital – مستشفى.

وِنَد: Windows – شبابيك. (تم استعمال جمع التكسير في العربية لجمع الكلمة الإنجليزية).

أبواك: Books – كتب. (جمعت جمع تكسير) أدوار: doors – أبواب. (جمعت جمع تكسير) شـــابـــات: Shops – دكـــاكين. (جمعت جمع مؤنث سالم) فَنيشه: Furniture – أثاث.

يأنشر: To make Insurance – يؤمن على (السيارة ونحوها)، فعل مضارع يبدأ بالياء حسب القواعد العربية.

سيِّف: To save – يقدم خدمة للزبون.

فيَّزوا له: They gave him a visa – أعطوه تأشيرة دخول.

وفي برطانيا لمع اسم البرنس (نسيم حميد كشميم) وهو ملاكم بريطاني من اصل يمني ولد في مدينة شفيلد في بريطانيا عام 1974 ، وتعلم الملاكمة عندما كان عمره 7 سنوات،

الملاكم البريطاني اليمني الأصل نسيم حميد كشميم

وفي 1992 كانت أول مباراة أحترافية له مع ريكي بيرد وأنتصر عليه في الجولة الثانية ودافع نسيم عن حزامه لأول مرة 17 أغسطس 1994 ضد أنتونيو بيكاردي. ومعروف عنه أنه لا يكتفي بهزيمة خصومه جسدياً فقط بل نفسياً بكلامه ورقصه داخل المباراة، في 1 مايو 1994 قابل نسيم التحدي الأول له مع فينسينزو بيل كاسترو على بطولة أوروبا لوزن الديك وفاز فيها.

لعب نسيم مباراته التالية بعد أقل من شهرين في 12 أكتوبر على اللقب الشاغر لأتحاد (دبليو بي سي) العالمي لوزن الديك ضد فريدي كروز الذي لم يوقفه أحد خلال مبارياته 56 الماضية، مما جعله يرتكب غلطة فادحة بتسميته للبرنس نسيم بـ(الولد الصغير) مما جعل نسيم ينزل جام سخطه عليه في مباراة ساخنة أنتهت بأيقاف الحكم للمباراة في الجولة السادسة ليعلن نسيم بطلا للأتحاد لـ(عدم التكافؤ) حيث كان كروز متراجعاً ومدافعاً طيلة المباراة مما سبب له الكثير من الكدمات الخطيرة.

أول مباريات نسيم في عام 96 كانت في 26 مارس ضد (سيد لاول) مع أنك لا تستطيع تسمية 35 ثانية مباراة حقيقية!!! المباراة بأكملها كانت عبارة عن ثلاث لكمات فقط !! جميعها من نسيم، كانت كافية لأسقاطه وأنهاء المباراة.

وبعد الحديث عن هجرات اليمنيين الأوائل فقد هاجر اليها وخاصة الى لندن عدد كبير من العدنيين بعد الاستقلال عام 1967م ممن كانو يحملون جوازات سفر بريطانية من عدنيين ويهود وهنود اضافة الى بعض السلاطين واولادهم وحتى أن البعض من اسرة حميد الدين لجأوا اليها وفي مقدمتهم الامام محمد البدر الذي عاش فيها إلى أن وافته المنية، كما هاجر اليها بعد

حرب عام 1994م عدد كبير من المسؤولين في عدن وغيرهم ممن طلب اللجوء السياسي او الانساني نتيجة الأحداث وما زالوا يتوافدون اليها حتى اليوم بحكم ارتباط بعضم بعائلاتهم التي هاجرت في الماضي الى بريطانيا في مراحل تاريخية مختلفة أيام الاحتلال البريطاني للجنوب أو بحكم العلاقة مع بريطانيا وإجادة بعضهم للغة الانكليزية. اتهى مقال محمد جميع.

وفي هذه الزيارة علمت من بعض الشخصيات اليمنية أنهم اشتروا شقق وفيلل في هذه المدينة ومن بينهم الشيخ ناجي عبد العزيز الشايف شيخ مشايخ بكيل وقد رفع سور منزله مخالفا للأنظمة المتبعة في بريطانية وقد تدخلت البلدية لايقاف البناء ولكنه رفض وأصر على استكماله البناء ووجه رسالة لملكة بريطانيا وطالبها بالموافقة على استكمال البناء الذي بدأه مالم فإنه سيهدي المنزل لها، وقد سلمه لبلدية لندن لتسليمه لها وأوقفت البلدية البناء بانتظار رد الملكة التي استجابت لطلبه كما علمت من ابنه الشيخ محمد ناجي الشايف وكان منتشيا بأنهم حصلوا على موافقة الملكة, وعلمت ومررت بطريق متعرج واقترح البعض هدم أحد المنازل القديمة التي تعيق طريق السيارات ولكن البلدية رفضت ذلك واحيل الموضوع الى البرلمان البريطاني لمناقشة ازالة هذا المبنى ولكن البرلمان البريطاني رفض هذا الطلب واستمر المبنى كما هو حتى كتابة هذه الذكريات.

وبعد هذه الزيارة والذكريات عن الماضي والحاضر للهجرات الى بريطانيا عدت الى باريس في رحلة معاكسة بالقطار عبر نفق المانش خلال نفس الزمن المحدد للرحلة.. وبينما انهمكت في تدوين انطباعاتي عن رحلتي هذه كانت ابنتي ميسان منهمكة بقراءة رواية "فيرونيكا تقرر ان تموت" لباولو كويللو.. ميسان ابنتي العزيزة فتاة هادئة ومثقفة احبت القراءة منذ الصغر وهي تجيدها بالعربية والانكليزية والفرنسية.. وقد تخرجت في 23مايو 2017 من الجامعة الأمريكية في باريس بمرتبة الشرف. وقد تأسست الجامعة الامريكية في باريس في عام 1962 م

في قاعة المسرح اثناء تخرجها واستلام الشهادة الجامعية

وبعد العودة من لندن قضيت في باريس عدة أيام.. اغتنمت فرصة وجودي فيها فزرت جامعة السوربون وهي من أعرق وأرقى الجامعات في العالم. وتوجد في الحي اللاتيني للعاصمة الفرنسية باريس .تأسست سنة1253م بجهود روبيرت دي سوربون (Robert de Sorbon) المرشد الروحي للملك لويس التاسع ملك فرنسا. وهي أول جامعة تقدم شهادة الدكتوراه .كما أن الجامعة تمتاز في تخصصات التاريخ والشؤون الدولية والاداب والعلوم الاجتماعية وتعد شهادتها مفتاحاً للمناصب العليا الرفيعة وللشهرة.

ومن ابرز الخريجين من جامعة السوربون :

- طه حسين عميد الأدب العربي و وزير المعارف في مصر
- أمير الشعراء أحمد شوقي
- الرئيس التونسي الحبيب بورقيبة
- مؤسس حزب البعث العربي ميشيل عفلق
- الزعيم اللبناني كمال جنبلاط
- زكي الأرسوزي من مؤسسي الفكر القومي العربي.
- أحمد عصمت عبدالمجيد أمين عام جامعة الدول العربية
- الشاذلي القليبي أمين عام جامعة الدول
- بطرس بطرس غالي الأمين العام للأمم المتحدة
- الرئيس السنغالي عبدو ضيوف
- السياسي الكويتي وعضو حركة القوميين العرب ورئيس تحرير مجلة الطليعة عبد الله النيباري
- الدكتور مخمد سعيد العطار
- الدكتور برهان غليون
- الكاتبة الروائية أحلام مستغانمي
- حرم الرئيس ياسر عرفات سهى الطويل
- عبدالله النسور رئيس وزراء الأردن عام 2012

العربية

- المفكر والسياسي السوداني حسن الترابي
- عبد الرزاق السنهوري – أستاذ قانون مصري .ومؤسس الدساتير العربية
- احمد باطائع الجرو
- الشاعر سعيد الشيباني
- مصطفى عبد الخالق
- محمد عبد القادر بافقيه وزير التربية والتعليم في أول حكومة للاستقلال1967م في اليمن الجنوبية
- نجيب عبد الملك
- احمد منصور الاهدل

جامعة السوربون

وغيرهم من الطلاب العرب والأجانب في العالم الذين تخرجو منها واحتلو مناصب عليا في مختلف التخصصات السياسية والثقافية والعلمية وقد التحق البعض منهم في الجامعة ودرّس فيها كالدكتور محمد سعيد العطار والذي عمل باحثا اقتصاديا بالجامعة خلال الفترة من 1958–1962م وبعد قيام الثورة في صنعاء تقلد عدة مناصب (وأهمها رئيسا للوزراء) كما أنه عمل في الأمم المتحدة كمدير تنفيذي للجنة الأقتصادية والاجتماعية لغربي أسيا "اسكوا" .

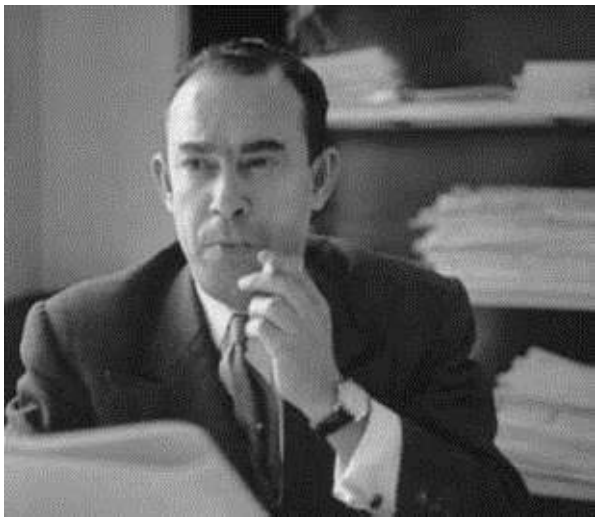

المهدي بن بركة

وفي أثناء زيارتنا لباريس زرنا مقهى ليب الذي اختطف منه الزعيم المغربي البارز المهدي بن بركة في صباح 29 أكتوبر 1965 و كان المناضل المهدي بن بركة على موعد مع مخرج سينمائي فرنسي أمام مطعم ليب في شارع سان جيرمان في قلب العاصمة الفرنسية، لإعداد فيلم حول حركات التحرر، وكان هذا المخرج مشاركا في سيناريو الاختطاف.

في مقهى ليت

قوس النصر في باريس

ومن بين الاماكن التي زرتها قوس النصر الذي بدأ العمل في بنائه في بداية القرن التاسع عشر، وأراده نابليون بونابرت رمزاً يخلد انتصارات الجيوش الإمبراطورية وهو من المعالم السياحية الهامة التي يرتادها زوار مدينة النور باريس وهو اللقب الذي حصلت عليه لشهرتها كمركز للعلم والفكر خلال عصر التنوير وكذلك بسبب اعتمادها في وقت مبكر على نظام إضاءة الشوارع.

وقوس النصر امتداد لشارع الشانزليزيه الجميل والذي أسهم في تطويره وتطوير مدينة باريس البارون جورج بوجين هوسمان محافظ باريس الذي عينه الامبراطور نابليون الثالث لإدارة مشروع "باريس تولد من جديد" عام 1853م لأن باريس كانت بحالة مزريه حينها. لم يكن هوسمان معماريا مهووسا بل إداريا ناجحا، وما زال الفرنسيون حتى اليوم في جدل حول هذا المشروع الذي جعل باريس بجمالها اليوم وشوارعها الواسعة، وكالعادة يوجد من شكك في نبل هدفه. قام هوسمان بإعادة بناء هيكل المدينة. وباريس اليوم تحمل توقيع البارون هوسمان.. أكثر مما تحمل اسم نابليون الثالث.

كما زرت كاتدرائية نوتردام "سيدتنا" وهي تقع في قلب باريس. يمثل المبنى تحفة الفن والعمارة القوطية الذي ساد القرن الثاني عشر حتى بداية القرن السادس عشر. ويعد من المعالم التاريخية في فرنسا وجاء ذكرها كمكان رئيسي للأحداث في رواية أحدب نوتر دام للكاتب فيكتور هوجو. وقد زادت شهرتها بعد سلسلة الأفلام وفي مقدمتها الفليم العالمي الشهير أحدب نوتردام في عام 1956 لبطليه (أنتوني كوين، جينا لولوبريجيدا) الذي شاهدته أكثر من مرة وهو ماجعلني اتلهف لزيارة الكاتدرائية البديعة الجمال.

كاتدرائية نوتردام

وفي أثناء زيارتنا لباريس زرت احد اهم المعالم السياحية في باريس برج إيفل وهو برج حديدي يبلغ ارتفاعه 324 متر وقد أنشئ في مدة عام و6 اشهر وخمسة أيام، من سنة 1887 إلى 1889، بأيدي 250 عامل، وافتتح رسمياً في31 مارس1889 م، وصممه المهندس غوستاف إيفل ومعاونوه بمناسبة المعرض الدولي لباريس في 1889 وأصبح هذا المعلم رمز العاصمة الفرنسية. وقد بنيت عدد من الجسور والقصور بمناسبة تنظيم معرض باريس الدولي سنه 1889م ولم يقم بعده أي معرض في العاصمة الفرنسية

اليونسكو

كما زرت مقر منظمة اليونسكو احدى منظمات الامم المتحدة واستقبلنا مندوب اليمن الدكتور احمد الصياد وسفير الامارات في اليونسكو . وحدثنا الدكتور الخبير بالمنظمة الذي شغل نائب المدير ايضاعن تاسيس المنظمة عام 1945 وبرامجها الأساسية الخمسة وهي التربية والتعليم، والعلوم الطبيعية، والعلوم الإنسانية والاجتماعية، والثقافة، والاتصالات والإعلام. تدعم اليونسكو العديد من المشاريع كمحو الأمية والتدريب التقني وبرامج تأهيل وتدريب المعلمين، وبرامج العلوم العالمية، والمشاريع الثقافية والتاريخية، واتفاقيات التعاون العالمي للحفاظ على الحضارة العالمية والتراث الطبيعي وحماية حقوق الإنسان. كما أشاد الدكتور الصياد بجهود المنظمة في حماية المناطق التراثية والطبيعية كمدينة صنعاء وشبام حضرموت وزبيد وارخبيل سقطرى . اضافة الى جهود المنظمة في حماية المناطق التراثية والطبيعية في المناطق العربية و العالم.

وقد تطرقنا اثناء الزيارة إلى دور المنظمة ومديرها العام أحمد مختار أمبو الذي زار حضرموت عام 1984م ووجه نداء لحماية شبام وانطلقت على اثره الحملة بالتعاون بين المنظمة و جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية وبمناسبة الزيارة شاركنا في المهرجان الكبير الذي نظمته وزارة الثقافة في الجنوب بالقرب من مدينة شبام وحضره عشرات الألاف الذين رحبوا وهللوا وباركوا وصفقوا واحتفزا بهذا الحدث التاريخي وهذه الحملة التي انطلقت من وادي حضرموت التاريخ والحضارة .

من اليمين الى اليسار حسن السلامي سالم جبران احمد مختار أمبو علي ناصر محمد

شبام حضرموت منهاتن الصحراء(اول ناطحات سحاب في العالم)

وفي هذه المناسبة أعلن عن الحملة الشاملة لمحو الأمية في اليمن الديمقراطية التي جندنا لها الاف المدرسين في المدن والأرياف ومناطق البدو الرحل وكانت اول تجربة من نوعها في المنطقة العربية .. وفي ابريل 1985 أعلنت منظمة اليونسكو في تقريرها السنوي أن حال التعليم في جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية هو الأفضل في شبه الجزيرة العربية

خلال تجوالي في بعض شوارع باريس – وعودة الى موضوعنا فقد لاحظت – أن الأجانب "المتجنسين" من أصول آسيوية وافريقية يشكلون عدداً ملموسا من سكان فرنسا اليوم، فهم يتكاثرون فيها بصورة ملحوظة وهو نفس ما لاحظته في لندن ، فالفرنسيون لا ينجبون إلا طفلاً أو طفلين على الأكثر كما هو الحال في بريطانيا[51]، من حق هؤلاء أن ينعموا بفرص الحياة المتاحة في هذا البلد الأوروبي الجميل الرائع ومن حقهم أن يستردوا بعض الدين من فرنسا التي استعمرت شعوبهم ونهبت ثروات بلدانهم خلال الحقبة الاستعمارية الطويلة .في باريس تسمع خليطاً من اللغات واللهجات الأجنبية لعل اشهرها اللهجة الجزائرية (الخشنة) والمغاربية (الناعمة) قياساً باللهجة الجزائرية..

ومن بين المهاجرين المغاربة برزت نجاة بلقاسم المغربية الاصل والتي قالت انها قد بدأت حياتها في المغرب راعية للاغنام وعاشت في حالة من العوز والفقر ثم التحقت بوالدها في فرنسا وتعلمت وتقلدت عدداً من المناصب في فرنسا وفي المقدمة منصب وزير التعليم

نجاة بلقاسم وزير التعليم في فرنسا

وكما هو الحال في لندن فأنت غالباً ما تصادف هؤلاء المهاجرين المستقرين (اذا صح التعبير) في القطارات وسيارات الأجرة "التاكسي" والفنادق والمطاعم... هؤلاء الوافدون قدموا إلى فرنسا عبر موجات وهجرات بعضها شرعي وأغلبها غير شرعي، ورغم مكوث بعضهم الطويل وولادة أكثرهم في فرنسا لم يصل إلا عدد قليل جداً منهم الى مراكز وزارية في الحكومة الفرنسية على عكس الجاليات الاخرى القادمة من القارة الأوروبية خاصة من الأصول اليهودية.

[51] – تعتمد الاسرة الاوروبية مبدأ تنظيم النسل، على العكس من بلادنا العربية حيث يعتبر كثرة النسل و انجاب الأولاد مصدراً لمباهاة الرجل أو لاستخدامهم في الحروب القبلية ولأن الكثير منهم لا يعيشون طويلاً بسبب الأمراض المتفشية التي تفتك بالأطفال ولأسباب دينية كالحديث النبوي الشريف الذي يقول: "تناكحوا وتكاثروا فإني اباهي بكم الأمم يوم القيامة". كما أنهم يعتبرون أن الولد يأتي ورزقه معه، وتلعب ثقافة "التوكل" دوراً في البؤس الذي يعد النسل بدون حدود أحد اسبابه كذلك التطرف والعنف والجريمة.

للأسف فإن كثيرين من العرب في فرنسا وفي غيرها من المهاجر الأوروبية لا يولون اهتماماً كبيراً لتعليم أولادهم المولودين فيها، بل يورثونهم المهن التي يعملون فيها والتي يتوارثها الأبناء عن الآباء والأجداد كالسائقين والعمال في المطاعم وغيرها من المهن، وفي بريطانيا على سبيل المثال وهي موطن هجرة قديم لليمنيين تجد أعداداً كبيرة من المهاجرين اليمنيين يعملون في حرف متواضعة كالمطاعم التي تقدم السلته[52] والعصيد[53] وتخزين القات وبعضهم لا يتكلمون الانجليزية ومؤخراً في مطاعم المندي التي انتشرت في معظم أنحاء العالم بما في ذلك في الصين والولايات المتحدة ومعظم الدول العربية، ومن الملاحظ أن معظم اليمنيين البريطانيين لا يهتمون بتعليم بناتهم وأن بعضهم يُرَحل ابنه أو ابنته إلى الوطن في سن معينة خوفاً عليه أو عليها من الانحراف، هذا البعض لا يمانع في أن ابنه يتعاطى القات يومياً مبرراً موقفه هذا بأن القات يجنب الأبن تعاطي الكحول أو المخدرات ومجالسة أولاد السوء، العقلية لم تتغير والبيئة ليست ذات تأثير يذكر ولذلك يبقى اليمنيون في أسفل السلم الاجتماعي في بريطانيا وفي غيرها من البلدان الغربية . وبسبب العلم والتعليم فقد وصل بعض ابناء المهاجرين الى أروبا وامريكا الشمالية والجنوبية الى مناصب عليا بل الى رئاسة بعض الدول كالرئيس الامريكي أوباما والرئيس الأرجنتيني كارلوس منعم والذي ينحدر من أصول سورية أيضا ورئيس البرازيل المنحدر من أصول لبنانية.

---

[52]– **السلته:** أكلة يمنية شعبية تتكون من الحلبة والمرق كأشياء أساسية.. ويضاف لها أحيانا لحم مفروم أو طبيخ و تقدم غالباً على وجبة الغداء.. وتوجد مطاعم متخصصة بهذه الوجبة وهي من أكثر المطاعم ارتيادا في اليمن الشمالي ويضاف إليها في بعض الأحيان اللحم البقري أو اللحم المفروم أو اللحم الغنمي أو التونه أو البيض وبعض الخضروات مثل الطماطم والفلفل الاخضر والفلفل الحار والبامية وبعض التوابل، وتحضر في طبق يسمى مقلا أو مقلى ويصنع المقلا من حجر الحرض.

[53]– **العصيد – العصيدة:** عبارة عن دقيق الشعير أو القمح أو الذرة مضافاً إليه الماء الذي يغلي على نار هادئة ثم يعصد حتى حالة السيولة ثم التماسك، وتؤكل مع المرق.

هامبورج

فينيسيا الشمال الساحرة

مرة أخرى ينطلق قطارنا في رحلة جديدة من باريس في طريقه الى "هامبورج" بالمانيا مروراً ببلجيكا وكولن، بعد عدة أيام قضيناها في باريس.

استسلمت لجمال وروعة الغابات والمروج الخضراء التي تتخللها مساحات تبدو كصحراء الربع الخالي[54] التي كانت تجري فيها الانهار وبحيرات والغابات وتعيش فيها حيوانات متنوعة قبل ملايين السنين وتحولت مع مرور الزمن الى مصدر للطاقة والحياة في هذه البلدان وزراعة القمح او الحنطة أو البر كما نسمي هذا المحصول في اليمن، وهنا تذكرت زيارتي لحقول الحنطة في الهضبة الاثيوبية التي تنتج موسمين من الحنطة في العام الواحد وهو ما لا يمكن أن يحصل في معظم بلدان العالم، انبهرت بهذا الجمال الخارق طوال الطريق وهدوء الركاب داخل المقصورات وهم يستخدمون أجهزتهم الحديثة من موبايلات، كمبيوترات، وينصتون من خلالها الى الموسيقي وأغانيهم المفضلة ويجرون المكالمات أو يتابعون آخر أخبار العالم عبر الانترنت، حيث صار بإمكان الإنسان اليوم الارتباط بالعالم الكبير عبر أجهزة صغيرة جداً وهو فى مكانه، أو حتى وهو مسافر على متن قطار فائق السرعة... وقد تطورت الأجهزة الالكترونية فصغر حجمها وخف وزنها وزادت ميزاتها على عكس ما كانت عليه في بداياتها الاولى فعلى سبيل المثال كان الصحن اللاقط للاقمار الصناعية يجري تركيبه في الحديقة لثقله وجهاز الاستقبال (الرسيفر) بحجم دولاب صغير ولا زلت أذكر أول جهاز دخل عدن عام 1980 وقدم لي هدية من شركة العمران الكويتية وكان الناس يتجمعون لمشاهدته، واتذكر أيضاً ما حدثني به الشيخ سرور بن محمد آل نهيان رئيس الديوان في دولة الإمارات أن اصدقاءه كانوا يأتون لمشاهدة هذا الاختراع الجديد وبعض الجيران كانوا يوجهون اجهزة الارسال لديهم باتجاه الصحن لالتقاط الاشارة، اما اليوم فبامكان اي شخص ان يتابع ما يريد من محطات تلفزيونية واذاعية اضافة الى مواقع الانترنت وشبكات التواصل الاجتماعي في جهاز بحجم كف اليد عبر الاقمار الصناعية وبعض

[54] – الربع الخالي: وعرف باسم صحراء الأحقاف ورمل يبرين، أكبر صحراء رملية في العالم، وتحتل الثلث الجنوبي الشرقي من شبه الجزيرة العربية، ويتوزع الربع الخالي بين أربع دول هي السعودية واليمن وعمان والإمارات، ويقع الجزء الأعظم منه داخل الأراضي السعودية. تفوق مساحته 600 ألف كيلو متر مربع. وترتفع فيها كثبان رملية ثلاث مائة متر وتتحرك باستمرار جاعلة الربع الخالي منعدم المعالم الثابتة. كانت أول رحلة موثقة لرحالة غربي إلى الربع الخالي تلك التي قام بها برترام ثوماس عام 1931 وجون فيلبي عام 1932. سماها ياقوت الحموي (575. 626هـ، 1179 . 1228م) واحة يبرين نسبة إلى الواحة الواقعة في أطرافها الشمالية. وتقول العرب في وصف الكثرة: مثل رمل يبرين، يريدون رمل هذه الصحراء

الاجهزة يستخدم لاكثر من غرض كصنع القهوة وحلاقة الشعر ومترجم فوري كما هو الحال في جهاز الرمانة الذي نزل الى الاسواق عام 2014م.

جهاز الرمانة

ومن بين من لفت انتباهي خلال الرحلة طفل يستخدم هذه التقنيات الحديثة وهو بمنتهى التهذيب واللباقة ومليء بالطفولة والبراءة كان يضع السماعات بأذنيه ويشاهد جهازه الالكتروني رفيقه في هذه الرحلة، ودار بيني وبينه حديث طويل عن رحلته ودراسته ظل يتكلم خلاله ببالغ اللطف والاحترام وطلب مني في نهايته أن نأخذ صورة مشتركة ولم استطع أن أرفض طلبه المهذب.

ها هو ذا قطارنا يمر ببلجيكا.. عندما وصلنا الحدود الألمانية كانت "آخن" أول مدينة تقابلنا، وتقع بالقرب من كولن التي توقفنا في محطتها لتغيير قطارنا الفرنسي بقطار ألماني..

استجبنا لنصيحة الآنسة الجميلة التي تسمي نفسها سارة والتي تتكلم عدة لغات منها الفرنسية والاسبانية والانجليزية والألمانية والايطالية، التي هي أقرب إلى الاسبانية والعربية المكسرة بزيارة "كاتدرائية كولونيا"[55] أو (الدوم–القبة) كما يسميها أهل المدينة وقد وجدناها تحفة

55 – كاتدرائية كولن Kölner Dom: واسمها الرسمي (Hohe Domkirche St. Peter und Maria) هي إحدى أشهر الصروح المعمارية والدينية المهيبة في ألمانيا وتتمتع بقدرة عالية على جذب أكبر نسبة من السياح عرفهتا ألمانيا. (برجاها يرتفعان إلى 157 متراً) وبقيت كذلك حتى بناء صرح واشنطن عام 1884م. ولدت فكرة بناء هذه الكنيسة في عام 1164م بعد أن قام رئيس الأساقفة في مدينة كولونيا الكاردينال راينالد فون داسيلل بإحضار رفات المجوس الثلاثة من ميلانوإلى كولونيا كهدية من القيصر فريدريك الأول

معمارية رائعة فعلاً، واخبرتنا "سارة" أن هذه الكاتدرائية تعد الرمز الحقيقي لمدينة كولونيام وهو ما يدفع الكثيرين إلى اعتبار مدينة كولونيا بمثابة جسد بلا روح دون الكاتدرائية. وتتبع الكاتدرائية الكنيسة الكاثوليكية وهي مقر رئيس أساقفة كولونيا وعندما انتهى بناء برجيها في العام 1880م كانت أطول بناء في العالم.

الذي احتل ميلانو في نفس العام. ووفقاً للرواية التاريخية فالمجوس الثلاثة هم من تنبؤوا بميلاد السيد المسيح، ويبدو أن رفاتهم قد نقل من القدس أثناء الحملات الصليبية. اقتبس تصميم الكاتدرائية الحالي من مبناها القديم الذي تم تدشينه في عام 873م والذي تحول فيما بعد إلى مثال تم الاحتذاء به في مجال فن تصميم وبناء الكنائس في أوروبا .وفي عام 1248م أعيد بناء الكنيسة على الطراز المعماري القوطي .وخلال عملية الهدم شب حريق في الجزء الشرقي للكاتدرائية مما دفع العاملين فيها آنذاك إلى إعادة ترميم الجزء الغربي فقط لإتاحة الإمكانية لإقامة قداسات دينية فيه. استمر العمل لأكثر من 600 عام حتى تم الوصول إلى الكنيسة في شكلها الحالي. وتعرضت الكاتدرائية لغارات الحلفاء في الحرب العالمية الثانية وقد ابقى الالمان جزء من أضرار الغارات بدون اصلاح للتذكير بأهوال الحرب، في عام 1996تم اختيار الكنيسة كأحد مواقع التراث العالمي من قبل اليونسكووفي عام 2004م تم إدراجها في قائمة مواقع التراث العالمي المهددة بالهدم بسبب كثرة أعمال البناء حولها والعديد من الأمور الأخرى، يحيط بالكاتدرائية ميدان كبير خاوي، تقام به الحفلات الموسيقية والتظاهرات الثقافية ومنه ينتقل المرء إلى أكبر شارع تجاري في كولونيا. ومن هنا يمكن أيضاً مشاهدة موكب كرنفال كولونياالشهير، الذي يمر تحت سفح الكاتدرائية. وعلى الرغم من أن هذا المحيط ذو الطابع التجاري لا يعكس الزخم التاريخي للكاتدرائية، إلا أنها تهبه هالة من القدسية السامية، احتفاءً به وبالحياة الآدمية.

القطار الثاني اقترب موعد انطلاقه، كان السواح يدورون حول الكاتدرائية مثلنا ويلتقطون لها الصور، بينما البرد القارص والرذاذ يندف على رؤوسنا فيما كنا منشغلين بالاستعداد لمواصلة الرحلة والانتقال من القطار الفرنسي الذي اقلنا بقطار ألماني يقلنا إلى هامبورغ، أما سارة التي تركناها فقد قالت أنها من مدريد وتعمل في روما موظفة لدى منظمة الأغذية والزراعة وتنتقل بين اسبانيا وفرنسا وألمانيا وايطاليا بحكم عملها.

جلست مع مرافقي في مقصورة تتسع لأربعة أشخاص في القطار الألماني الذي يسير بقوة الكهرباء والمتجه إلى هامبورغ، وما أن اجتاز القطار عدة محطات حتى توقف وصعد إليه بعض الركاب..

أطلت فتاة طويلة فائقة الجمال من باب مقصورتنا، وأشارت إلينا بأن هذه مقصورتها ورفيقاتها اللواتي سيلتحقن بها في محطة لاحقة، وأن علينا أن نخلي لها المقصورة، لأن خطأ حدث منا حتماً بدخولها.

دخل مرافقي السيد لؤي صالح في نقاش طويل مع الشقراء الجميلة لإقناعها بوجهة نظره بأن المقصورة محل الخلاف هي لنا وعليها البحث عن مقصورة أخرى.. ولكن الغلبة في الأخير كانت لها... إذ عاد خائباً بعد أن استسلم لمنطق الجمال وأقر بحق الفتاة الحسناء في المقصورة التي كنا نشغلها، والآن كان علينا إخلاؤها إلى مقصورة أخرى... حتى لو كان الحق معنا، فعلينا أن نتنازل لربة الحسن والجمال عن هذا الحق.. أو كما علق مرافقي لؤي لقد خلقها الله من نور وخلقنا من طين !!!

المهم أننا خسرنا أمام سطوة الجمال، وكنت أتوقع أن يعود منتصراً لا مهزوماً يجر أذيال الخيبة!

يبدو أن السيد لؤي الذي قام بحجز التذاكر لنا من باريس إلى هامبورغ لم يدقق كثيراً في رقم المقصورة التي شغلناها لبعض الوقت...

في المقصورة الجديدة التي انتقلنا إليها، جلسنا أمام إمرأة صارمة الملامح وكأن هذا نوع من العقاب، وقد ذكرتني هذه السيدة فوراً حتى قبل أن اعرف جنسيتها برفيقاتنا السابقات البروليتاريات السوفييتيات... وتأكدت فعلاً بأنها روسية عندما تحدثت مع أحد الركاب باللغة الروسية قائلة "باجلوستا" أي تفضل...

كان القطار من النوع البطيء الذي يتوقف كثيراً لنقل المزيد من الركاب إلى درجة الملل ويبدو أن لؤي لم ينتبه لهذا الأمر.... إلا أن ظهور المزارع والقرى والمصانع على جانبي الطريق وخصوصاً وسط الغابات الخضراء التي تنتشر فيها المساكن الريفية والأبقار[56] والأغنام، حمل لنا طبيعة جميلة وحياة ريفية يظن الإنسان أنها اختفت في اوروبا أتاحت لنا متعة النظر من نافذة القطار بعيداً عن صرامة ملامح رفيقة الامس... أو اجترار هزيمتنا أمام الحسناء الفائقة الجمال التي حررت مقصورتها من احتلالنا قبل قليل... كما قادتني الطبيعة الباذخة إلى مقارنة غير متكافئة بالطبيعة التي هي في أغلبها صحراوية في اليمن والخليج وبادية الشام ومصر والصحراء الكبرى وغيرها من بلداننا العربية، حيث تقتات الحيوانات من الأعشاب الخضراء في فترة الربيع وبداية الصيف ومن الأعشاب الجافة في بقية الصيف والخريف والشتاء... لكن الصحراء ليست دائماً بهذه القسوة إذ يراها البعض ينبوع العواطف، لأنها تجعل المرء يدرك تنوع الطبيعة، كل شيء قاس ومتعب، كل شيء شديد الأهمية سواء كان قطرة ماء أو حفنة ملح، إنه سؤال البقاء، الصحراء ترجعنا إلى الأشياء الأساسية الأكل، الشرب، النوم، الصلابة والمقاومة، والى الفضاء الذي يسعنا وفيه نحلم ونتأمل، وهذا ما قالته الشاعرة والفنانة التشكيلية المعروفة كاترين سيمون سنتول، التي وقعت منذ سن صغيرة جداً في عشق البلاد العربية والصحراء الإفريقية، وما يراه الناس العاديون على العكس قسوة يراه الشعراء والفنانون مكانايبحثون فيه عن المطلق والمجهول.

حمل الجو معه غيوماً داكنة، بدأت الشمس والأضواء بالاختفاء وأخذ المطر يهطل بغزارة استحالت معها الرؤية ما عدا بعض الأضواء التي أخذت تظهر تدريجياً وسط الظلام المخيم بينما كنا نقترب من هامبورغ ..

التعب وطول الرحلة نال من الركاب، فتوقف الحديث الذي كان يجري باللغة الألمانية واللغات الأخرى لتجزية زمن الرحلة الطويل... واسترخى البعض الآخر في مقاعدهم وركنوا إلى الصمت أو إلى النوم... ولكن مرافقي لؤي وماهر ظلا يقظين طوال الطريق ينظران يميناً وشمالاً حتى لا يفوتهما شيء من المناظر الطبيعية المتوالية..

[56] - وقف المزارع الاوروبي ضد القطار في البداية لأنه في رأيه عندما كان يمر بالقرب من الابقار التي كانت تفزع وتجري ويتسبب في نقصان حليبها، وهكذا في كل الحضارات لا يقبل الجديد بسهولة.

فجأة ظهرت في المقصورة شابة آسيوية تدفع أمامها عربة صغيرة، عليها بعض المشروبات والمأكولات والشوكولاتة التي أتت في الوقت المناسب، إذ كنا فعلاً جائعين.

ابتسما لها واشتريا بعض الساندويتشات من الخبز الألماني الأسود[57] بالجبنة وبالبيض وعصائر تفاح معلبة تناولناها بشهية لأننا لم نتناول شيئاً منذ الصباح في الرحلة الطويلة... وانشغلنا عن أي شيء آخر بالمناظر الخلابة ، الممتدة على مدى النظر التي لا تحدها حدود أو تحتجزها جبال... فالأرض التي كنا نمر بها عبارة عن سهول شاسعة من القمح والمحاصيل الأخرى.. وقد تمنيت آلا تصاب بالتصحر فيكون حالها حال اليمن السعيد ماعدا المرتفعات الجبلية في تعز واب ومناخة سمارة ويافع وحوف الذي كان ذات يوم انهارا وبحيرات وغابات قبل أن يجف ويبيس، أو الجزيرة العربية التي تحولت إلى بحيرات من نفط وغاز[58]..

حدث تغير مفاجئ في الطقس فاختفت السحب وانقشع الظلام وسطع الضوء في أقصى الأفق من جديد فكان لهذا التبدل انعكاسه على رحلتنا الجميلة والطويلة إلى هامبورج التي أزورها للمرة الأولى... سبق لي أن زرت بعض المدن الالمانية في فترة الحرب الباردة[59] واخرها عام 1984م عندما هبطت بنا الطائرة بصعوبة في مطار برلين بسبب تغيير مفاجئ في حالة الطقس وكانت الرؤية لا تزيد عن مئة متر مما جعل هبوطنا بمثابة مجازفة في هذا الجو المتلبد بالغيوم

---

[57] – الشبيه بالخبز الروسي الشهير (جورني خلب) ومعناه الخبز الاسود

[58]– يقال أن مصدر النفط حيواني ونباتي أضافه إلى عوامل طبيعيه اخرى يعرفها الجيولوجيون. تقول نكتة حديثة بأن من نواتج النفط بعد تصنيع مشتقاته في الشبشب الذي يستخدمه اليمنيون الذي لم تفت بعضهم غارات عاصفة الحزم التي بدأت في مارس 2015 ومستمرة حتى اليوم

[59]– الحرب الباردة: مصطلح يستخدم لوصف حالة الصراع والتوتر والتنافس بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي وحلفائهم في الفترة من منتصف الأربعينيات حتى أوائل التسعينيات.خلال هذه الفترة، ظهرت الندية بين القوتين العظيمتين من خلال التحالفات العسكرية والدعاية وتوظيف الايديولوجية وتطوير الأسلحة والتقدم الصناعي وتطوير التكنولوجيا والتسابق الفضائي. لقد اشتركت القوتان في انفاق كبير على الدفاع العسكري والترسانات النووية وحروب غير مباشرة – باستخدام وسيط. وفي ظل غياب حرب معلنة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي قامت القوتان بالاشتراك في عمليات بناء عسكرية وصراعات سياسية من أجل المساندة. على الرغم من أن الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي كانا حلفاءضد قوات المحورإلا أن القوتين اختلفتا في كيفية إدارة ما بعد الحرب وإعادة بناء العالم .خلال السنوات التالية للحرب, انتشرت الحرب الباردة خارج اوروبا إلى كل مكان في العالم. حيث سعت الولايات المتحدة إلى سياسات الاحتواء والاستئصال للشيوعية وحشد الحلفاء خاصة في اوروبا الغربية والشرق الأوسط. خلال هذه الأثناء، دعم الاتحاد السوفيتي الحركات الشيوعية حول العالم خاصة في أوروبا الشرقية ودول جنوب شرق آسيا وحركات التحرر الوطني في آسيا وافريقيا واميركا اللاتينية، ومن الخسائر التي لحقت باليمن الديمقراطية بسبب الحرب الباردة أن عدن لم تقبل الاعتراف بالوضع الخاص لمدينة برلين الغربية التي كانت المانيا الغربية تطلب من الدول الاخرى القبول به مقابل مساعدات تقدمها المانيا، ووفاء من الجنوب لتحالفه مع المعسكر الاشتراكي رفضت عدن الاعتراف بالوضع الراهن الخاص ببرلين الغربية، سمع هذا الكلام السفير علي محسن حميد في برلين الغربية عام 1982م اثناء حضوره ندوة للمستشارين الثقافيين العرب في بعض الدول الاوروبية.

والضباب لولا براعة الطيار وخبرته في مثل هذه الاجواء والمطارات، وبعد توحيد دولتي المانيا (الشرقية والغربية) في كيان واحد ... قررت أن اذهب إليها وأنا في طريقي إلى الدنمارك والسويد في رحلة خاصة تلبية لدعوة تلقيتها من الصديق عمر كتمتو، شقيق صديقي الراحل محمد كتمتو" أبو فراس" الذي كان ممثل الجبهة الديمقراطية في عدن.

من جديد أخذ الظلام يلف الطريق واختفت الأشجار والغابات والمساكن... لكن الأضواء ظهرت مجدداً تمر كالبرق الخاطف... وأخيراً ها هي هامبورج[60] بأضوائها الباهرة، وأمطارها الغزيرة التي لم أر مثلها منذ بداية هذه الرحلة.

[60]- **هَمْبُورَغ أو هَامْبُورَغ (Hamburg)**: هي ثاني أكبر مدن جمهورية المانيا الاتحادية وسادس أكبر مدن الاتحاد الأوروبي من حيث عدد السكان وأكبر موانئ ألمانيا. هامبورغ هي نفسها ولاية فيدرالية، أحد ولايات ألمانياالست عشرة. الاسم الرسمي للمدينة "مدينة هامبورغ الحرة الهانزية "وهو يدل على عضويتها خلال العصور الوسطى بالاتحاد الهانزي. تشتهر المدينة بكثرة قنواتها المائية وجسورها حوالي 2,500 جسر (جسور سيارات وقطارات ومشاة)، لتكون بذلك أكثر مدن أوروبا من حيث عدد الجسور، التي تفوق أمستردام ولندن وفينيسيا مجتمعة. وتدعى بـ "فينيسيا الشمال". مدينة هامبورغ لا تقع مباشرة على البحر، وإنما على نهر إلبه، العريض نسبيا والصالح للملاحة، والذي يربطها ببحر الشمال. يرتبط اسم مدينة هامبورغ بأكبر ميناء في ألمانيا حيث تبعد المدينة 120 كلم، عن بحر الشمال ويعمل في ذلك الميناء الضخم أكثر من 80,000 عامل مما يجعل من هذه المدينة أهم موقع اقتصادي في المانيا الولاية تُغطي مساحة 750 كيلومتر مربع؛ عدد سكانها 1،8 مليون نسمة، إلى جانب 750,000 يعيشون في ضواحيها. منطقة هامبورغ الكبرى تضم أيضاَ مقاطعات من الولايات المحاذية لهامبورغ :شليسفيغ هولشتاين وسكسونيا السفلى وتُغطي بذلك مساحة 18 ألف كيلومتر مربع وعدد سكانها يُناهز الأربعة ملايين نسمة. تشتهر المدينة بظاهرتين يطلق عليهما سكان المدينة "الأسطورة" الأولى هي سوق السمك العملاقة التي تقام صباح كل أحد على ضفاف نهر إليه، وسكان هامبورغ يؤكدون أن مبيعات هذا اليوم لا تقل عن 100 طن من السمك، وأرباحه تتجاوز عشرة ملايين يورو، والثانية هي الحفلات المفتوحة في مساء اليوم نفسه في شارع ريبربان، ويذهب إليها أكثر من 100 ألف شخص.. كانت هامبورغ أكثر المدن تضرراً بعد برلين أثناء الحرب العالمية الثانية وخاصة منطقة الميناء، يوجد في هامبورغ حوالي 600 متنزه وتحوي المدينة الكثير من المحلات لبيع السجاد الفارسي وخاصة في منطقة الميناء ويعتبر البعض كميات السجاد الفارسي المباع في هامبورغ الأكثر عالمياً بعد إيران. يوجد بها حوالي 90 قنصلية أجنبية، لتكون بذلك ثالث أكثر مدن العالم في القنصليات بعد نيويورك وهونغ كونغ، وتتبع أهمية القنصليات من أهمية المدن، فالرئيس الراحل جمال عبد الناصر طلب فتح قنصلية مصرية في عدن مقر القاعدة البريطانية في الشرق الأوسط بعد استئناف العلاقات المصرية البريطانية بعد حرب السويس عام 1956م مقابل فتح بريطانيا قنصلية لها في الاسكندرية وقد اعتذرت بريطانيا وخيرته بين فتح قنصلية مصرية في الكويت أو هونج كونج أما عدن فلم تقبل.

المانيا – هامبورغ (30-8- 2010)

عند الساعة العاشرة وعشر دقائق ليلاً، وصلنا إلى الفندق الكبير "جراند اليزيه" وهو من فئة الخمس نجوم ، ويطل على حديقة جميلة.

تناولنا وجبة عشاء سمك بلطيقية بعد أن ارتحنا لبعض الوقت... كانت شهية أو وجدناها هكذا لأننا كنا جائعين فالتهمناها بدون احتراز ... وهو ما ذكرني باحد ايام الثورة بتعز عندمادخلت مع رفاقي سالم ربيع علي ومحمد علي هيثم وناصر السقاف واخرين احد المطاعم وكان الجرسون كلما قدم لنا طبقاً التهماه بسرعة قبل وصول الطبق الاخر فاندهش الجرسون والتفت ونحونا وسألنا من أين أنتم ومن أين أتيتم ؟ البعض منا ونتيجة السرعة في تناول الطعام اصيب بعسر في الهضم ... الخبز الألماني الأسمر الحامض ذكرني برائحة وطعم "المخلم" وهي وجبة مشهورة في نواحي دثينة وجوارها، لكنها ليست بسوء الخبز الألماني الأسود المخزون من فترة طويلة، فخبزنا يخرج تواً من التنور أو "الموفا او الطبون" كما نسميه ويؤكل ساخناً وإذا تم حفظه في "التورة" المغطاة بالقماش يبقي ساخناً لساعات ويحتفظ بطعمه لذيذ جداً إلى درجة أن أحد اصدقائي رجل الأعمال هيثم مشدق "أبو نبيل" المقيم في الامارات احضر لي يوماً وجبة غداء طبخت في الإمارات ونقلت جواً الى دمشق وعندما فتحنا التورة –التي حفظ فيها الطعام والذي كان عبارة عن لحم ومخلم– تصاعد منها البخار وكأنها خرجت لتوها من التنور.

عند الخامسة صباحاً استيقظت على آلام حموضة مزعجة حرمتني لذة النوم فتناولت دواء "الريني" لتخفيف آلام الحموضة الناجمة عن وجبة البلطيقية. طار النوم من عيني فأخذت بالكتابة حتى السابعة صباحاً حتى داعب النعاس جفوني فخلدت إلى السرير. نمت قرابة ساعة وخمس وأربعين دقيقة لأصحو مجدداً على قرع باب غرفتي عندما فتحته وجدت عاملة التنظيف التي اعتذرت مني بلطف، ونبهتني إلى إنني نسيت وضع الإرشادات الخاصة بعدم الإزعاج، لهذا تجرأت على طرق باب الغرفة.

لم يعد بإمكاني العودة إلى النوم، أخذت حماماً سريعاً ولبست ملابسي ونزلت إلى بهو الفندق وبدأنا جولة في المدينة...

هامبورج هي إحدى الموانئ المشهورة في المانيا.. طوال الجولة لم أُشاهد إلا لوناً أو جنساً واحداً من البشر إلا فيما ندر هو الجنس الآري... المتميز بالطول رجالاً ونساءً... ولا تستطيع التمييز بينهم إذ يلبسون الجينز وهو موضة من اختراع الأمريكان منه الباهظ الثمن ومنه الرخيص والعملي .. ويتحمل أكثر من بقية الملابس.. كما أنهم يطلقون شعورهم رجالاً ونساءً بحيث يصعب التفريق بينهم، وأحياناً تجد شعر الرجال أطول من شعر النساء، كما تشتم من كثير منهم رائحة عرق كريهة ، بعكس العرب الذين يعطون اهتماماً شديداً للنظافة وللتطيب ووضع العطور النافذة... بل أن للبخور طقوسه الخاصة في عالم النساء العربيات والشرقيات، إذ يعتبر التزين جزءً من حياة الشرقيين.. بل أن بعض الرجال العرب خاصة الشيوخ في بعض دول الخليج يبالغون في رش العطور على أجسادهم وفي "التبخر" بعود الصندل.

عادت بي الذاكرة إلى شقة سكنتها في باريس التي كنت عندما افتح بابها تتسلل إلى أنفي روائح البخور والعطور ورائحة الرز البسمتي والزعفران... كانت تلك الروائح العبقة تتسلل

إلى غرفة نومي، مما أعطاني إحساساً أن جاري عربي بالتأكيد... وقد التقيت بجاري هذا بعد ذلك صدفة في الفندق "نظام شقق" الذي ننزل فيه..

بعد السلام سألني: أين تسكن؟

أجبته : الدور الرابع شقة (405)

قال بفرح : نحن جيران إذن فأنا اسكن الشقة المجاورة لك (406).

جاري لم يكن سوى عبد العزيز التويجري مدير المنظمة الاسلامية للتربية والعلوم والثقافة الايسكوا ومقرها في الرباط بالمغرب العربي.. والايسكوا هي المنظمة الإسلامية للعلوم والثقافة كما هو معروف. وعلى ذكر الروائح يحكى أن مصرياً في امريكا شم رائحة الحشيش من شقة مجاورة فقال لابد أن يكون من يسكنها مصري وبالفعل كان الساكن مصرياً.

هامبورج مدينه جميلة آسرة، وقد التقطت بعض الصور التذكارية لبعض معالمها القديمة التي تنم عن ماض عريق، وانبهرت بفنها المعماري، كما أن معالمها الحديثة تتسم بهندسة معمارية رفيعة تناسب حياة العصر وواقع الحياة الجديدة للألمان وتستلهم الحاضر المشرق لهذه البلاد "الجرمانية" التي تعد بحق رحم الثقافة الغربية، وبالخصوص في ميدان العلوم الإنسانية والفلسفة، يقول المطلعون على الثقافة الألمانية، ومنهم المفكر المغربي الدكتور حميد لشهب أن اللغة الألمانية لغة عميقة دقيقة غنية، لا يمكن مقارنتها باللغة الفرنسية أو الانجليزية (رغم انتشارها في الوطن العربي والعالم بحكم الماضي الاستعماري لفرنسا وانجلترا)... ولو لم تكن كذلك لما برز فيها شعراء وأدباء كبار كغوتة وهولدرين وموسيقيون كبتهوفن وموزارت وباخ وتشكيليون وعلماء نفس واجتماع ومبدعون في الفلسفة والفكر كماركس وكنط وهايدجر ونيتشه وهيغل ..الخ، وبالرغم مما يقال عن الألمانية بأنها لغة غير ناعمة قياساً بلغات أوروبا والفرنسية على نحو خاص إلا أن الإرادة الألمانية جعلتهم يخترقون كل الفنون الناعمة ويبدعون فيها أيما إبداع.

لم تطل إقامتي في هامبورج سوى يومين، ومع ذلك تمكنت من زيارة سوق السمك الشهير في المدينة الذي يقام صباح كل أحد، وعندما شممت رائحة السمك تذكرت سوق السمك في عدن الذي يباع فيه أجود أنواع السمك الطازج وتجولت في بعض القنوات المائية التي تشتهر بها المدينة كما تناهى إلى علمي من مسؤول الاستعلامات في الفندق الذي كنا نقضي به ليلتنا

أن أهالي هامبورج يسمون سوق السمك والحفلة التي تليه "بالاسطورة".. لم انتظر الاسطورة وكان عليَّ الالتحاق بالقطار المنطلق إلى كوبنهاجن محطتي التالية...

من هامبورج إلى كوبنهاجن

كان قطاري الذي مضينا فيه ينطلق بسرعة ويشق القضبان الحديدية وسط غابات ومزارع مكللة بعيدان الذرة الشامي وحقول القمح، يهدهدها النسيم الحميم النظيف وعلى الجانبين أنهار وأبقار ومنازل ريفية تضاعف من جمال مناظر تتوالى بدون توقف.

لم يعكر صفاء رحلتنا إلَّا راكب ألماني اغتصب مقعد أحد الركاب ورفض التنازل عنه لصاحبه الأصلي رغم كل المحاولات التي بذلها معه، وكان يصدر إشارات بأصابعه وكأنه لايعرف النطق أو الكلام. وبين وقت وآخر يدخل يده في جيب جاكيته ويخرج منه قنينة يمتص محتوياتها ثم يعيدها إلى مكانها... وقد كان مزعجاً لنا منه أيضاً، انه أخذ يعطس طوال الرحلة بدون توقف... وقد خشيت أن يكون مصاباً بالأنفلونزا فتنتقل إلينا العدوى ونحن لانزال في بداية رحلتنا إلى الدنمارك والنروج والسويد... لم نكن نعلم متى وفي إي محطة سيغادرنا هذا الراكب المزعج.. مررنا بمحطتين في الأراضي الالمانية وبقيت أمامنا محطة واحدة قبل أن ننزل من القطار ونستقل العَّبارة... إلى يسارنا محطات ومراوح لتوليد الكهرباء من الرياح التي ذكرتني بطواحين أو مراوح الملح في خورمكسر بعدن التي اشرت إليها من قبل. توليد هذه الطاقة عندنا من الرياح ومن الشمس قضيتان مهملتان في منطقتنا العربية رغم احتياجنا الشديد للطاقة في استخداماتها المنزلية وليس لبناء صناعة لاغنى لأي تنمية حقيقة عنها, ولكنها مسكوت عنها ويتم التركيز على الخدمات والسياحة وكأن هناك

توجس من الطبقة العاملة ونفاياتها ومن طبقة متوسطة جديدة تنبثق من التنمية الصناعية وأخواتها كالتعليم الجيد والحكم الرشيد.

السماء مُلبدة (بالديما)... وهي كلمة معناها السحب السوداء المحملة بالمطر.. ها هو القطار يخترق بنا لبضع دقائق غابة كثيفة السواد قبل أن يتوقف في آخر محطة له..

ننتقل من القطار إلى ظهر العَّبارة وها نحن نشاهد لحظات العبور الرائعة... الركاب ينتشرون في المطاعم وعلى السطح رغم برودة الجو... لكن بالنسبة لهم لم يكن الأمر كذلك، فهم معتادون على هذا الطقس ومرتاحون له ويتطلعون في الشمس التي تلوح في الأفق وقد اخذوا في التدخين وفى تناول المرطبات. العبور سوف يستغرق 45 دقيقه قبل أن نعود أدراجنا إلى القطار... ومن جديد تنطلق العَّبارة مبتعدة عن الأراضي الألمانية... وها هو يدخل بنا إلى الدنمارك التي أزورها للمرة الأولى وسمعت الكثير عنها من بعض الأصدقاء الذين عاشوا فيها سنوات طويلة ومنهم علي صالح الحسني واخوان ناصر الماس وغيرهم من أبناء عدن الذين هاجروا إلى الدنمارك وكذلك الصياد الذي اعتنق المسيحية وذهب كي يستقر بالدنمارك وهو الشخص الثاني الذي اعتنق المسيحية بعد الدكتور عبدالله عفارة الذي أشتهر بعلاج المرضى والمحتاجين في عدن وأقام مستشفى "عفارة" ذائع الصيت. ولم تفلح البعثات التبشيرية في عدن وبقية انحاء الجنوب في التأثير على الناس لاعتناق الديانة المسيحية . واتذكر أن بعثة تبشيرية من الراهبات وصلت الى مودية في ولاية دثينة للتبشير بالديانة المسيحية ومعالجة النساء ولكنها لم تزحزح النساء عن دينهم الاسلامي باستثناء شاباً كان ملهوفا على احد الراهبات وكتب عن مغامراته شعراً ونثراً ولكنه لم يفلح بإيقاعها في حبه لها كما لم تنجح باقناعه بأعتناق المسيحية وكتب شعراً رمزياً اتذكر منه

كيتي كولا [61]سحرتيني

كيتي كولا جننتيني

ويبدوا انه كان به حس

وفي اكتوبر من العام 2015 ، تم افتتاح جسر ونفق يربط بين السويد و الدنمارك ويتكون من جسر فوق الماء والجزء الاخر انفاق تحت الماء ويعتبر انجازاً كبيراً للهندسه وانفاقا سخيا في بلدين لا يعانيان من كثافة سكانية غير مرغوبة.

[61] كيتي كولا : مشروب غازي مشهور في عدن

كان على قطارنا أن يتسلق بعض الجسور ويتوقف في أكثر من محطة إما لإنزال ركاب، أو لصعود ركاب جدد.. القرى والمنازل الريفية تنتشر هنا بكثرة ملحوظة أكثر مما لاحظته في الريف الفرنسي أو البلجيكي أو الالماني... ويبدو لي أن السبب يعود إلى صغر مساحة الدنمارك لهذا تجدهم منتشرين بكثافة في كل رقعة من أراضيها الزراعية الخصبة والخضراء حيث ترى منتجات الأبقار الدنماركية المشهورة من خلال ما تُصدره الدنمارك من ألبان وأَجبان وزبدة التي تُعد المصدر الأول لها في العالم.

شدتني الجسور التي تربط اليابسة باليابسة.. الأخضر بالأخضر والجمال الفذ للمباني والكنائس والهضاب الكثيرة التي تكسوها الأشجار، والمنازل الريفية الجميلة التي تعلوها سقوف القرميد الأحمر وقد اكتسبت لوناً ذهبياً متألقاً مع ضوء الشمس والسماء الزرقاء الصافية عند الغروب بعد أن انقشعت عنها السحب... وبين فينة وأخرى تحجبها عنا ظلال الأشجار الكثيفة التي يمر قطارنا في وسطها، قبل أن يتوقف بنا في محطته الأخيرة في كوبنهاجن.

والطبيعة الدنمركية التي مر بها القطار لا تختلف في جمالها كثيراً عن الطبيعة في فرنسا، وبلجيكا، والمانيا...

يتحدث الدنماركيون لغتهم الدنماركية وها نحن في عاصمتها كوبنهاجن[62]. ننتقل من المحطة إلى خارجها بحثاً عن سيارة أُجرة تقلنا إلى الفندق، كانت التاكسيات تقف في طابور طويل أو في "الفرزه" كما نسميها في عدن.

عندما جاء دورنا نقلنا حقائبنا إلى التاكسي، وأعطينا السائق إسم وعنوان الفندق الذي سيقلنا إليه، وما أن سمع ذلك حتى ثار غاضباً (أن الفندق قريب جداً، ويقع على بعد 200 متراً من المحطة... فماذا أَكسب من ورائكم، وأنا منتظر دوري ؟!) كانت هذه أول مرة نزور فيها كوبنهاجن ولا نعرف موقع الفندق إن كان قريباً أو بعيداً ولذلك لم ندخل معه في جدال، ولكنني طلبت من أحد مرافقي عندما توقف بنا أمام فندقنا أن يكرمه في الأجرة.. عندها فقط هدأ، وقام بإنزال الحقائب بعد أن استلم النقود ولكنه احتفظ بعدم رضاه لقصر المسافة بين المحطة والفندق.

---

[62] **كوبنهاگن**– بالدنماركية: "كوبن هاون" (الميناء التجاري) وباللغة الدانماركية (كوبنهافن) وهي عاصمة الدانمارك (التي يبلغ تعداد سكانها , 5,543,819 ومساحتها 16640 ميل مربع) وتعتبر كوبنهاجن أكبر مدنها وعدد سكانها 464,566 نسمة، فيما يبلغ عدد سكان المنطقة الحضرية 1,339,395 نسمة. وتعتبر هذه المدينة الميناء الأساسي للدنمارك والمركز الاقتصادي والسياسي والثقافي الرئيسي. ويسكن ربع سكان الدنمارك في منطقة كوبنهاجن.. وكوبنهاجن موطن دائم لفرق الباليه الدنماركية الملكية ولجامعة كوبنهاجن وهي أقدم جامعات الدنمارك، وقد أسست في عام 1479م.

وأتذكر ما حدث لنا عندما كنا في أول زيارة لنا لمصر انا والرئيس سالم ربيع علي رحمه الله أيام الثورة في ستينيات القرن الماضي فقد تهنا وعدنا ولكننا لم نجد الفندق وكنا ندور حوله، دون أن ندرك ذلك، حتى تعبنا وقررنا أن نركب تاكسي وبعد أن دار بنا لمدة نصف ساعة أعادنا من حيث أخذنا ورفضنا أن ننزل لأننا لم نشاهد كلمة السنترال بالنيون كما شاهدناه قبل خروجنا وأصر سائق التاكسي أن هذا هو الفندق ونزلت وبقي "ربيع" في التاكسي وتأكدت انه هو وان النيون مطفأ وأكلنا أول مقلب لأننا طلعنا من نفس المكان وضحكنا ودخلنا من حيث خرجنا ولم نخسر إلا بعض القروش آنذاك وقال ربيع بطريقته الساخرة عيب عليه يكذب ويضحك علينا وإحنا ضيوف عندهم وسكت ولم أعلق لأن مثل هذا يحدث مع بعض الناس مثلنا او امثالنا من الصعايدة الذي يقال أن احدهما باع للاخر الترام. وفي اليوم الثاني انتقلنا بالتكسي لزيارة بعض الأصدقاء وسأل صاحب التكسي البهوات/الأفندية من فين ؟ فرديت عليه بأننا من كوبا .. سكت ! وبعد قليل قال: "بتوع كوبا احسن رجالة" وأكمل حديثة بالقول : "افتكرتكم من اليمن" .. فقلنا له كيف أهل اليمن ؟ رد على الفور "دول ولاد كلاب ... فقد قتلوا اولادنا" ... وكانت الحرب حينها في ذروتها بين الملكيين والجمهوريين في اليمن ومصر تقاتل مع الجمهوريين وقد قتل الألالف منهم في تلك الحرب. وعلق "ربيع" ساخراً "هذه أكبر من مقلب التكسي". وكان بإمكان السائق الدنماركي أن يأخذنا الى مسافة أبعد ويعيدنا الى نفس الفندق وندفع له أجراً أكبر لأننا لانعرف من أين انطلقنا ولا الى أين عدنا ولكن ذلك لم يحدث.

غرف الفندق لم تكن بالمستوى المطلوب إذ كنا نأمل في مستوى مرتفع من الراحة بعد تلك الرحلة الطويلة التي قضيناها جالسين اغلب الوقت إلى مقاعد القطار.

أردنا تغيير الفندق (الكراون) ولكن صاحبه طلب منا تسديد أُجرة الغرف لأننا حجزناها عن طريق الانترنت سواء أقمنا فيها أم غادرناها، وفى النهاية قررنا أن يبقى بعضنا في نفس الفندق، ويذهب بعضنا الآخر للبحث عن فنادق أخرى. دخلنا إلى فندقين هما: "انجلترا" وهو من أقدم فنادق الدنمارك، وفندق أخر، ولكننا اكتشفنا أنهما ليسا في المستوى المطلوب إلا من الناحية التاريخية، فعدنا من حيث أتينا حيث نمنا ليلتنا في الفندق الذي سبق وحجزناه في انتظار يوم جديد.

فندق كوبينهاجن كراون

وقد لفت نظري عند وصولنا إلى الفندق ألاف الدراجات الهوائية التي تقف في محيطه وغيره من الفنادق كوسيلة اقتصادية ومرنة للنقل وكصديقة للبيئة، وفي الصباح خرجت في جولة سيرا على الأقدام وشعرت أن كل شيء قد تغير فلم نجد أثراً لتلك الدراجات التي تستخدم للذهاب إلى الأعمال إلى حد أنني شككت في الفندق ومكانه حتى تأكدت من اسمه كما حدث لنا مع سائق التكسي في العتبة، كما شاهدت مثل هذا المنظر اثناء زيارتي للصين عام 1977م حيث تعتبر الصين أمبراطورة الدراجات الهوائية حيث كان يقترب عدد الدرجات الهوائية من 500 مليون دراجة، وكانت تعد وسيلة النقل البري الاكثر استعمالاً بحيث ان السلطات الصينية وادارة المرور تخصص لها انظمة كما تخضع الدراجات لقوانين خاصة في السير والمرور ولها مواقف خاصة بها، وتطورت بعد ذلك صناعة السيارات ووصل انتاج الصين من السيارات عام 2016 الى اكثر من 25 مليون سيارة. للاسف تلوث السيارات الصين الآن وخاصة بكين وقد انخفض استخدام الدراجات فيها الى 17% من وسائل النقل بعد أن كان 80%.

الدراجات الهوائية في شوارع الصين قبل غزو السيارات

في الصباح قمنا بزيارة بعض معالم المدينة العريقة.. أهم ما لفت انتباهي ونحن نتجول في كوبنهاجن ساحتها الواسعة التي تجسد الصورة الجمالية لتطور المدينة، وارتباطها بتاريخها العريق وعصورها التاريخية، وبمراحل تطورها وحاضرها المدهش... كما أثار انتباهي الاهتمام الذي تعطيه للبيئة وللإنسان حيث خُصصت طرقً خاصة بالمارة في قلب المدينة تمنع فيها

حركة السيارات، وشعرت بسعادة بالغة وأنا أسير على قدمي في تلك الطرقات دون أن يزعجنا مرور سيارات أو حركة شاحنات كما هو الحال في شوارع بلداننا العربية حيث زحام السيارات وأبواقها وعوادمها تخنق كل شيء.. استمتعت بالطقس الرائع، وسط أجواء مملوءة بالجمال والدهشة وغاية في الروعة.. أهل البلاد يحافظون على بيئتهم وحاجات مجتمعهم، وقد رأيتهم يستخدمون الدراجات الهوائية بكثافة، ولها محطات ومسارات خاصة بها في قلب المدن.. والدنماركيون والهولنديون والبلجيك والألمان والفرنسيون والبريطانيون يستخدمون وسيلة المواصلات الرخيصة هذه بوصفها صديقة للبيئة والأسرة والصحة وللجيب أيضاً على العكس من الحياة عندنا حيث يتنافس الناس على شراء اخر موديلات السيارات في العالم.

تذكرت وأنا في كوبنهاجن (اغسطس 2010م) رحلة كارستن نيبور[63] Carsten Niebuhr وكتابه "من كوبنهاجن إلى صنعاء".. الذي ترجمه الى العربية الاستاذ محمد الرعدي الذي يحكي قصة بعثة علمية دنماركية مكوّنة من ستة أشخاص أرسلها ملك الدنمارك بُعيد منتصف القرن الثامن عشر أي سنة 1761 إلى اليمن أو "العربية السعيدة" كما كان يحب أن يسميها أفراد البعثة وفقا لتسمية قديمة أطلقها الرومان منذ آلاف السنين. غادرت البعثة كوبنهاجن في يناير 1761 ولم تعد إلى بلادها إلا في 1767 وفي الواقع أنها لم تعد! إذ أن معظم أفراد البعثة كانوا قد ماتوا مثخنين بالأحزان والآلام بين جبال اليمن وخلجانها! ولم يعد إلى كوبنهاجن سوى "نيبور" الفلكي الشاب, رغم أنهم جميعا كانوا شبابا, فأكبرهم كان في الرابعة والثلاثين, ,وأصغرهم في الثامنة والعشرين.

وكان من بين أعضاء البعثة واحداً من أكبر علماء أوروبا وهو السويدي "فورسكال" الذي أُصيب بالملاريا في تعز, ومات به في يريم عن عمر لم يتجاوز الثانية والثلاثين!

---

[63] **كارستن نيبور** Carsten Niebuhr: مستكشف ورياضياتي وعالم خرائط الماني عمل في خدمة الدولة الدنماركية، عاش في الفترة ما بين 1733–1815 ولد كارستن نيبور في قرية بشمال غرب ألمانيا في سكسونيا السفلى، عمل فلاحاً في مزرعته أول سنين حياته، ثم أظهر ميلا لدراسة الرياضيات وتلقى بعض الدروس في علم المساحة والخرائط. اقترح أحد أساتذته أن يشارك نيبور في رحلة علمية أمر بها الملك فردريك الخامس ملك الدينمارك سنة 1760م، وكان هدف الرحلة كتابة تقرير علمي واجتماعي شامل عن الجزيرة العربية وسوريا ومصر، وافق نيبور على الاقتراح وانخرط في دورة لمدة عام ونصف تقريباً درس بها علم الرياضيات والمساحة والخرائط وبعض الدروس في اللغة العربية بشكل مكثف ليتأهل لموقعه في البعثه كمساح وراسم للخرائط. ومع مطلع العام التالي (كانون الثاني 1761م) ابحرت الحملة، لتصل إلى الإسكندرية، ثم القاهرة، ثم جبل سيناء. وفي عام 1762م غادر نيبور إلى السويس ووصل منها إلى جدة، ومن جدة غادر إلى المخا في اليمن. لقد كتب نيبور عن كل المناطق التي زارها، ورسم خرائطا لها، وتحدث عن السكان والقبائل والمذاهب والأديان، وقد طالت فترة بقائه في اليمن فزار صنعاء وغيرها.

وحزنت عندما قرأت ما فعل موظف جمرك "المخا" قبل مائتين وخمسين عاما! حين أصرّ على إفراغ كلّ "عيّنات البعثة" من زجاجاتها وأوانيها, ورميها إلى الساحل وهو ما ذبح قلوب أفراد البعثة, وهم يرون جهودهم العلمية تداس على الملأ وتذروها الرياح، والاسوأ أن الموظف أخذ جزءا من نقودهم حتى يتركهم يغادروا إلى تعز! وبدوره نهب عامل تعز جزءا آخر من أموالهم وأجهزتهم بالابتزاز والتهديد!

كانت أجمل أيام البعثة في اللحيّة, وبيت الفقية, وريمة, حيث لا يوجد عامل ولا حاكم للإمام! رغم أن الإمام نفسه قد استقبل من تبقى من أعضاء البعثة في صنعاء بعد ذلك أحسن استقبال, لكن ما نالهم من عماله ورعيّته كان أسوأ ما يمكن أن يسمع به أو يراه أحد! حتى أسْمَوا اليمن "العربية السعيدة البغيضة" أو "مملكة الأموات".

ألف نيبور كتاباً وثق فيه رحلته تلك تناول فيه مهمة البعثة وأعضائها منذ مغادرتها كوبنهاجن مروراً ببحر الشمال والمتوسط، وتركيا، وقبرص، ومصر، وجدة، والمخا، وبيت الفقيه، فتعز، وبريم، وصنعاء، وعدن، وجيبوتي، ومومباي، والبحرين، وبغداد، وحلب، ثم تركيا مجدداً حتى عودتها إلى كوبنهاجن التي انطلقت منها البعثة ولم يبق منهم إلا واحداً هو نيبور مؤلف الكتاب.. وقد ذكر أن المدينة الوحيدة التي كرمته منذ بداية رحلته وحتى نهايتها هي مدينة حلب التي أشاد بأهلها وحكامها الذين يهتمون بالعلم و العلماء والاستكشافات.

كارستن نيبور

قرنان ونصف , مرّت على الرحلة حتى اغسطس من العام 2010م عندما كنا في كوبنهاغن المدينة التي كانت تعج بالحياة ليلاً ونهاراً، بينما كانت اليمن تعيش حالات من الصراعات والحروب[64].

واذا كانت حلب قد كرمت نيبور في القرن الثامن عشر عند مروره بها كما اشرنا انفاً، فإن هذه المدينة وأميرها سيف الدولة الحمداني[65] كانت في القرن العاشر الميلادي مقصداً لكافة العلماء والشعراء العرب، وكان أميرها راعياً للفنون والعلماء، في القرن العاشر وتزاحم على بابه وقصره الشُعراء والعُلماء والأدباء والمفكرون، ففتح لهم بلاطه وخزائنه، حتى كانت له عملة خاصة يسكها للشعراء من مادحيه، ومنهم المتنبي وابن خالويه النحوي المشهور، والفارابي الفيلسوف الشهير، كما اعتنى بابن عمه وأخو زوجته أبو فراس الحمداني شاعر حلب. وتقول احد الروايات أن المتنبي كان في حضرة ديوان سيف الدولة وقال في احد قصائده:

الخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم

فما كان من أبي فراس الحمداني إلا أن علق موجهاً كلامه للمتنبي ماذا ابقيت لسيف الدولة؟!،

فما كان من سيف الدولة إلا أن رمى المتنبي بالمحبرة التي كانت أمامه.

فقال المتنبي رداً على تلك الحادثة:

يا أعدل الناس إلا فى معاملتي فيك الخصام وأنت الخصم والحكم

وقد تردد على حلب مدينة الفن والطرب ومدينة القدود الحلبية كبار المثقفين والفنانين والمطربين، سمعت كثيراً من القصص الواقعية عن حلب وأهلها وسميعتها، وتقول احدى القصص أن عبد

---

[64] وعن نيبور يتذكر دبلوماسي يمني أن القائم بالأعمال في سفارة الشمال في براغ وقد كان شبه امي لا مؤهل له سوى الانتماء القبلي الذي شجع شيخا كبيرا على حث الرئيس السابق علي صالح على تعيينه سفيرا في براغ. هذا الشخص زعم أمام المرحوم المثقف فؤاد عبد العزيز قبيل وفاته بأن قرأ مذكرات نيبور في ليلة واحدة. كان تعليق فؤاد هو: قل شربت قارورة فودكا في ليلة واحدة. محاولة تعيينه سفير احبطها المرحوم عمر الجاوي الذي كان شاهدا على سوء سلوكه وسوء تعامله مع أحد الدبلوماسيين في السفارة حدث هذا عام 1985م.

[65]– سيف الدولة الحمداني: 303 – 356 هـ ، 915 – 967، أمير حلب وهو "علي بن عبد الله بن حمدان الحمداني التغلبي"، من بني حمدان الذين تنتسب إليهم الدولة الحمدانية . وسيف الدولة لقبه وقد غلب عليه ولقبه به الخليفة العباسي، حين وفد عليه مع أبيه عبد الله بن حمدان، وأخيه الأكبر، فوصل الخليفة الأب، وأعطى ولديه لقبين، فلقب الأكبر الحسن ناصر الدولة، والأصغر سيف الدولة.

الوهاب زار حلب ليقيم عدداً من الحفلات الفنية في مطلع حياته وأنه أخذ الى صالة لا يوجد فيها إلا عدد قليل من الاشخاص، فاستغرب من ذلك، وقرر الانسحاب ولكنهم نصحوه أن يغني لما يسمونهم بـ السميعة فهم الذين سيحكمون على أداء الفنان وهكذا كان... وهذا يدل على الحس الفني لأبناء هذه المدينة التي يسهر فنانوها وجمهورها حتى الصباح عندما يغني صباح فخري لساعات متواصلة ولا يمل من غنائه بل إن البعض يغادر الحفل لتناول الفطور وينام بعد ذلك. حلب وابتداءا من العام 2011م وحتى 2017م لم تعد حلب الجميلة فقد دمرها التدخل الخارجي المتعدد الأهداف والمنظمات الارهابية كداعش وجبهة النصرة وقوات الشام وغيرها من التشكيلات التي مولها البترودولار وكانت النتيجة تدمير حلب وقلاعها وآثارها وصناعاتها وتهجير أهلها وقبل عدة أشهر انتصرت حلب على الارهاب العابر للقارات التي تضافرت لتأييده ولدعمه دول شقيقة وجارة وعدوة للقضايا العربية في نفس الوقت ومنها اسرائيل بطبيعة الحال. كانت حلب وباسواقها ومعالمها التاريخية عرضة للتدمير على يد أبناء جلدتها ومن وفد إليها للقتال ممن لا يعرفون قيمة التاريخ والفن والذاكرة الوطنية.

أسواق حلب القديمة

اسواق حلب تحترق عام 2012

تعود أصول أسواق حلب إلى القرن الرابع قبل الميلاد، وتعرضت للحريق عام 1868 فأمر الوالي العثماني بترميمها واعادة بنائها مع نوافذ سقفية، حيث أقيمت المحلات التجارية على طرفي الشارع المستقيم الممتد بين القلعة وبباب انطاكية، وقد كانت تجارة حلب القديمة متمركزة في الأسواق والخانات وتعتبر أسواق حلب من أجمل أسواق مدن الشرق العربي والإسلامي لما تمتاز به من طابع عمراني جميل إذ تتوفر فيها نوافذ النور والهواء فتؤمن جواً معتدلاً لطيفاً يحمي من حر الصيف ومن أمطار وبرد الشتاء , و يبلغ تعداد أسواقها 37 سوقاً ومجموع أطوال هذه الأسواق على الجانبين 15 كم ومساحتها 16 هكتار .

أختم حديثي عن كوبنهاجن بالاشارة الى دور يهودها أو بالاصح الصهاينة منهم بدعم الحركة الصهيونية خلال الحرب العالمية الاولى (مكتب كوبنهاجن) لاستعمار فلسطين وإحلال بعض يهود العالم محل أهلها الأصليين عبر نشاط طال يهود فرنسا وبريطانيا والمانيا في المقام الأول وكانت حكومات المانيا وبريطانيا واميركا تتسابق في اظهار التعاطف ثم الدعم لإنشاء كيان يهودي محتل في فلسطين العربية.

من كونبهاجن ... إلى أوسلو
على السفينة اسكندنافيا

وجهتنا التالية كانت مدينة "أوسلو" أو "كريستينا" الأسم السابق لها على ظهر السفينة "اسكندنافيا" بدلاً من القطار... السفينة تتكون من 11 طابقاً، يعلوها برج عال ومداخن شامخة وتتسع لمئات المسافرين.

انطلقت رحلتنا البحرية الجميلة الخامسة مساء

الركاب ينتشرون على أسطح السفينة العملاقة يأكلون.. يشربون.. ويدخنون ويتحدثون، ويلتقطون الصور، وعلى الشاطئ تظهر سلسلة من الجزر الخضراء على كلا الجانبين... إلى الشمال والى اليمين. تلاحظ أنهم بدون هموم يعيشون اللحظة ويستلقون باسترخاء ويستمتعون بوقتهم، وإجازاتهم، ولاتشغلهم هموم كالتي تشغلنا نحن اليمنيين المشغولين لا المشتغلين أغلب أوقاتنا، إن لم يكن جل حياتنا بالخلافات والصراعات والحروب وهموم الحياة اليومية..

السفينة تبحر قريباً من الشاطيء... بوسعي أن أشاهد على اليمين الشواطئ الساحرة... القرى المتناثرة.. الأبنية... المصانع... المزارع... القوارب تتحرك بسرعة نحو الشواطيء تشق البحر... علمنا أن هذه الأراضي تابعة لمملكة السويد، ولايفصل بينها وبين كونبهاجن سوى جسر واحد معلق، وقد التقطنا صوراً له ونحن نغادر كونبهاجن.

الجسر – النفق الذي يربط السويد بالدنمارك

على اليسار أشاهد عدداً من الجزر... الكنائس.. المدارس.. الأبنية.. الغابات.. أتأملها مذهولاً... لم أكن أتصور أن هذه الأراضي بكل هذا الجمال والروعة، لقد فاقت حين رأيتها وصف صديقي عمر كتمتو لها الذي حدثني عن رحلته من كوبنهاجن إلى أوسلو .. فازداد يقيني بالمثل العربي الذي لطالما سمعته "من رأى ليس كمن سمع!" حتى ولو كانت "الأذن تعشق قبل

العين أحياناً" ولعل وصف عمر كتمتو لجمال هذه البلاد هو ما أغراني لزيارتها والمجيء إليها وإن لم يوفها حقها.

كان المشهد بالنسبة لي من أروع المشاهد التي رأيتها، ولعل السبب في هذا يعود إلى قسوة الطبيعة في بلادنا وندرة المساحات الخضراء فيها حيث تشكل الجبال والصحراء مساحات واسعة فيها لهذا فان مناظر الغابات والجبال المكسوة بالخضرة تعطي منحى إبداعياً مغايراً لما تعودنا عليه في كثير من بلداننا العربية.

أحد الأصدقاء في الرحلة قال لي أن ما نشاهده إلى اليمين هو الشاطيء السويدي الذي يمتد على مسافة طويلة حتى حدود النرويج..

منظر الشمس وهى تغرب وتطوي النهار يضفي ألوانا ًوظلالاً مفعمة بالغبطة على البحر، واحمراراً جميلاً في الأفق طالما أبهر الناظر إليه.

وقد ذكرني هذا المنظر البديع ببيت شعر للشاعر الراحل محمد سعيد جرادة وهو يناجي حبيبته ويقول فيه "**والشمس قد عكست على وجناته شفق المغيب**" وهو بيت من قصيدته الرائعة "وقفة" التي غناها واستهل بها ألحانه الفنان محمد مرشد ناجي في بداية حياته الغنائية في عدن في نهاية أربعينيات القرن العشرين.

بعد المغيب هرع الركاب من سطوح السفينة إلى المطاعم والسوق الحرة والمقاهي والبارات الصغيرة الموزعة في أدوارها الأحد عشر.

حجزنا طاولة لتناول وجبة العشاء بعد أن انتظرنا طويلاً في الطابور .. أعطيت لنا بطاقة تحمل رقم الطاولة والوقت والاسم...

وعند دنو الموعد المحدد تحركنا إلى صالة الطعام لتناول العشاء من البوفيه المفتوح الذي حوى كل مالذ وطاب من المُقبلات، والوجبات الساخنة والباردة ولم تزد قيمة الوجبة عن 17 يورو للفرد الواحد أي ما يوازي نحو 23 دولاراً أمريكياً.

سلسلة المطاعم تستقبل وتودع أفواج المسافرين... السفينة العملاقة "اسكندنافيا" عالم كامل يضج بالحركة والحياة والحيوية وقد صممت لتحاكي مستوى الفنادق الراقية التي توفر نفس القدر من الراحة للمسافرين...

النزلاء يتنقلون بين المطاعم دور السينما أو يذهبون إلى الحفلات والمرابع الموسيقية بما تبقي من زمن الرحلة غير آبهين بشيء مما يجري في العالم فهم في إجازه وللنفس الحق في الراحة، على هذه السفينة العملاقة التي لا تشعر فيها بأدنى حركة اهتزاز ولو بسيطة وكأنك تقف على أرض ثابتة لا سفينة مبحرة ومثلما يعطون للعمل حقه في بقية السنة، فإن أيام الإجازات هي لحظات، للتخفف من أعباء الحياة وإيقاع العصر السريع وزحمة وضجيج المدن لإعطاء الجسد والفكر حقهما من الهدوء والراحة محطة الاسترخاء للتزود بوقود لقادم الايام.

وحتى نحن في البلدان العربية وبلدان العالم الثالث عموماً حيث نخلط بين كل الأوقات، ويختلط عندنا الحابل بالنابل، ويضيع العمر في ركض بلا جدوى، فلا نعرف كيف نعطي العمل حقه، ولا كيف نعطي النفس حقها من الراحة وأنا لا استثني نفسي من ذلك لأننا وحتى ونحن في هذه الرحلة الجميلة كنا نتابع عبر الهاتف مايحدث في وطننا اليمن، فلم تتوقف المكالمات التي تمطر علينا أخبارها المزعجة، فهذه حالنا منذ بداية القرن العشرين وحتى نهايته، وها هي تسحب نفسها على القرن الواحد والعشرين وإن وطننا ينزف ويعود إلى الوراء...

وقد زاد هذا النزيف خلال السنوات الأخيرة، ونأمل ألا تطول معاناة شعبنا الذي طالت أبناءه في الداخل كما في الخارج...

هذا ما يشغلني ويشغل كل غيور على وطنه وشعبه حتى في مثل هذه الأجواء.. فما يحدث هناك في بلادي يسرق مني أجواء الفرح.

لم يكن ينقصنا إلا رؤية القمر... وقد اعتلى كبد السماء، لكي يكتمل بضوئه بهاء الليل الاسكندينافي ونحن في شمال أوروبا.

وقد استأثر منظر القمر في تلك اللحظة من الليل خيال صديقي ورفيقي في رحلتي الدكتور لؤي صالح، فسارع إلى التقاط صورة له بكاميراته من خلف زجاج النافذة ...

وهو نفس مافعله ونحن على سطح السفينة عندما أخذ صورة للشمس لحظة الغروب الرائعة... تعرف الشمس كيف تطوي النهار وتختبيء منا في مكان ما، لتفاجئنا صبيحة اليوم التالي في إشراقة جديدة، وكأنها تمارس لعبة استغماية.

الإيواء إلى غرفة النوم، ودفء الفراش، بعد نهار حافل، والإبحار فوق المياه والهواء المبلل بندى البحر، هو ما تحتاجه لتستقبل يومك الجديد... وهذا ما فعلته.

الضوء المتسلل من خلف أو من بين ثنايا ستائر الغرفة هو ما أيقظني في السابعة صباحاً بتوقيت اوسلو... لا اعرف العودة إلى النوم كما هي عادتي بعد أن أرى ضوء النهار..

وقد وجدت مؤخراً تفسيراً علمياً لهذه الظاهرة، فالضوء الذي يسقط على عينيك يعد من أعظم العوامل أثراً، نظراً للعلاقة التي ترتبط ما بين العين والنواة العصبية فوق التقاطعية... لهذا فان الضوء يستطيع التأثير على إيقاع النوم والاستيقاظ بشكل مباشر. بعد أن أديت صلاة الفجر فتحت ستارة النافذة فرأيت سلسلة من الخلجان على يساري بينما السفينة تواصل مسيرها عبر طريقها المعتاد عند الخيوط الأولى للصباح... كما ظهرت نفس الخلجان عبر الشاشة المثبتة في الغرفة والتي ترسم المسار المحدد لرحلة السفينة منذ لحظة انطلاقها من كوبنهاغن، وهي كتلك التي نراها في الطائرات الحديثة... وعلى الخارطة جسم أحمر صغير يتحرك ببطء يؤشر باتجاه الطريق التي تسلكها السفينة طوال الرحلة حتى محطة الوصول وتراها في أي مكان كنت في السفينة..

الغابات... القرى... المنازل، تظهر ببطء وتتابع فوق التلال... وفي الأسفل.. حالمة، منذورة للفرح، تبدو مثل جنة أو أرض خيالية... لكنها أرض حقيقية لا متخيلة... أرض في الواقع، جنة أمام ناظريك الأمر الذي يشغلني في هذه اللحظة هو المقارنة غير العادلة بين الجنان الأرضية والجبال الجرداء والصحاري القاحلة المحروقة في بلادنا حيث الطبيعة القاسية والقوم الأشداء، القساة، الذين استعصوا على الطبيعة.. وعلى الحكام، وكأنهم يتوكأون على عكاز التعب الأزلي، ويخاصمهم الفرح ويخاصمون المستقبل.

الشمس ترتفع رويداً رويداً... ونحن نتناول طعام الافطار على سطح السفينة العملاقة التي كانت تبطئ حركتها كي ترسو على رصيف الميناء... وتعود إلى الخلف.. وكانت النوارس في استقبالنا على سطح السفينة وخارجها وكأنها ترحب بنا وبمن معنا من الركاب والزوار الى هذا الميناء

في ميناء اوسلوا من على ظهر السفينة

منظر من بحيرة في خور مكسر التي تربط بالبحيرة

تفتح بوابتها الخلفية الكبيرة ليخرج أو يهبط منها مئات السيارات والركاب والمسافرين الذين كانوا في جوفها... ويصعد إليها مسافرون وركاب جدد بالمئات أيضا في رحلة معاكسة. وفيما الحضارة قد روضت (الفايكينغ) سكان البلاد الاصليين –القبائل– الذين كانوا قراصنة وغزاة عانت من هجماتهم كثيراً من دول اوروبا وينعمون اليوم بخيرات بلادهم بينما لم تستطع لا الحضارة بكل منجزاتها ولا المال ترويض اقوامنا الذين ظلوا على طبيعتهم وممارسة نفس وظيفتهم.

السفينة اسكندنافيا عند وصولنا الى اوسلو

كان الجو جميلاً ودافئاً... ولكن رجال الجمارك بددوا فرحتنا حين أصروا على تفتيش حقائبنا دون بقية المسافرين.. وهذه هي المرة الأولى التي نخضع فيها للتفتيش منذ غادرنا دمشق... يبدو أن سحنتنا السمراء هي ما دفعهم إلى هذا... حيث يعدون كل أسمر أو يشكون أنه من منطقة الشرق الأوسط في عداد الإرهابيين بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر 2001م... أو من المهاجرين غير الشرعيين الذين يدخلون بوثائق مزورة أو بجوازات يمزقونها عند الوصول إلى عاصمة أي بلد أوروبي للحصول على الاقامة والجنسية فيها، ولكن بعد أن رأوا جوازات سفرنا الدبلوماسية التي لم تجنبنا التفتيش أعادوها إلينا، وسمحوا لنا بالدخول مع تمنياتهم لنا بإقامة

سعيدة في أوسلو. وهنا تذكرت بعض أبيات من قصيدة (الحب لا يقف على الضوء الاحمر) للشاعر نزار قباني يقول فيها :

لا تسافر بجوازٍ عربي ..

وانتظر كالجرذ في كل المطارات،

فإن الضوء أحمر ..

لا تقل باللغة الفصحى ..

أنا مروان.. أو عدنان .. أو سحبان

إن الإسم لا يعني لها شيئاً ..

المفاجأة كانت أننا لم نجد في استقبالنا الشخص الذي وجه لنا الدعوة لزيارة أوسلو ورسم لنا عبر أحاديثه عنها صورة وردية وعن الرحلة وعن معالم المدينة وما حولها... الشخص المعني هو عمر كتمتو، وهو فلسطيني، وكان سفيراً لفلسطين في أوسلو ومتزوج من نرويجية، وتابع عن كثب مفاوضات اتفاقية أوسلو السرية 1993م التي وقعها الزعيم الفلسطيني الراحل ياسر عرفات مع إسرائيل.. وهي الاتفاقية التي قال عنها الرئيس السوري الراحل حافظ الأسد إن كل بند فيها يحتاج إلى اتفاق... وكان صادقاً في رأيه وفي رفضه لها..

لكن أبو عمار كان له بعدٌ أخر... فقد أراد أَن يكون للفلسطينيين موطيء قدم، ولو صغير على أرضهم فلسطين، فبعد أن اغتصبت إسرائيل عقب حرب حزيران 1967 ما تبقى من أرض فلسطين وفوقها أراضٍ من دول عربية ثلاث... وبعدما أصاب الجسد العربي من تهتك بعد (اتفاقية كامب ديفيد) بين مصر وإسرائيل 1979، واتفاقية وادي عربة بينها وبين الأردن 1994، وبعد أن اجتاحت اسرائيل بقواتها بيروت وطردت من لبنان القوات الفلسطينية 1982، شعر عرفات بأن الحلم الفلسطيني باستعادة أرضه سوف يضيع وسط الخلافات العربية والتعنت الصهيوني وانه لن يحظى بشيء ففضل أن يفوز ولو بجزء يسير من أرضه بدل أن يضيع منه كل شيءإلى الأبد، ويراهن على الوقت... ويثبت الزمن صواب موقف عرفات عندما ننظر إلى ما حل بالفلسطينيين على أيدي بعض العرب، وانقلاب حماس في غزة على السلطة الوطنية الفلسطينية عام 2007م، واثناء الصراع المسلح في سوريا بين السلطة وفصائل المعارضة المسلحة السورية وغير السورية الذي اضعف القضية الفلسطينة وشطر فلسطين الى شطرين متنازعين.

هل أخطأ عرفات؟

التاريخ وحده سوف يحكم على ذلك....

يكفيه أنه اجترح شرف المحاولة، وقاد النضال الفلسطيني منذ انطلاقة الكفاح المسلح في 1965/1/1م وحتى استشهاده بالسم على يد الموساد وحمل قضية فلسطين في قلبه من منبر إلى منبر، ومن ساحة إلى ساحة، ومن معركة إلى معركة، ومن عاصمة إلى عاصمة، وأوصلها إلى الأمم المتحدة، وحتى أوسلو... وحتى حطت رحالها في غزة وأريحا.... وعلى ذكر اوسلو يقول دبلوماسي فلسطيني أن قضية فلسطين اسهمت بشهرة هذه المدينة النائية بعد توقيع اتفاقية اوسلو عام 1993م.

لقد أثمر التعب الفلسطيني... وحبَّلها أبو عمار كما نقول بالعامية... وسوف تلد عاجلاً أم آجلاً عن دولة فلسطين!... لقد عاد المناضل ابو عمار إلى جزء من وطنه وفق اتفاق (غزة – اريحا) بسلاحه ورجاله لأول مرة منذ عام 1948م، ونقل المعركة إلى قلب إسرائيل بدلاً من المعارك التي كانت تدورمن خارج حدود فلسطين... من لبنان... والأردن... أو بواسطة الجيوش العربية من مصر وسورية... والأردن... والعراق أو عبر العالم... نيويورك، جنيف، واشنطن، لندن، باريس، وغيرها، المهم أن عرفات مات وهو يناضل في سبيل حلم الفلسطيني باستعادة وطنه المسلوب، وإقامة سلطته المستقلة على جزء من تراب أرضه الغالية... مات دون أن يحقق كل الحلم الذي أفنى عمره وهو يناضل من أجله... مات دونه شهيداً كما كان يتمنى ويقول دائماً... لا أسيراً.... بل شهيداً، شهيداً... شهيداً..... ودفن في جزءعزيز من أرض فلسطين ولم تقبل اسرائيل دفنه في القدس مسقط رأسه. ولم يقبر في بلاد غريبة كغيره من القادة الفلسطينيين الذين طالتهم أيادي العدو الاسرائيلي في منافيهم وبلدان الشتات مثل غسان كنفاني، وكمال ناصر، وكمال عدواني، وأبو اياد، وأبو جهاد... وسواهم العشرات او المئات وعشرات الآلاف الذين ماتوا في الشتات ودفنوا فيها بعيداً عن فلسطينهم ومنهم المناضل الكبير "الحكيم" جورج حبش.... زعيم الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين الذي كان لا يستطيع الاعتراض كثيراً على ما كان يفعله الرئيس الراحل ياسر عرفات لأنه كان بحكمته يدرك أنه يتحرك في حدود الممكن ولن يفرط بمصالح شعبه.

هل أخطأت عندما قبلتُ دعوة صديقي عمر كتمتو بزيارة أوسلو...؟

تعرفت إليه عن طريق شقيقه وصديقي العزيز الراحل محمد صبري كتمتو (أبو فراس) الذي كان ممثل الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين في عدن، وبقي فيها أكثر من عشر سنوات كان خلالها ممثلاً لفلسطين في اليمن الديمقراطية، وأقام أفضل وأعمق العلاقات مع كثير من اليمنيين الذين أحبوه لصدقه ووفائه ولا يزالون يذكرونه بالخير حتى بعد وفاته...

أول وجه قابلناه في أوسلو بعد رجال الجمارك كان سائق التاكسي الذي أقلنا إلى الفندق الذي سبق وحجزناه لإقامتنا، وهو من أصل باكستاني[66].

الفندق يطل على مدينه أوسلو، على ارتفاع 350 متراً ويبعد عنها نحو 15 كيلومتر، وهو فندق قديم بني قبل أكثر من مائة عام... ومن ذلك الارتفاع تستطيع أن ترى أغلب معالم المدينة، الهضاب، المرتفعات، الغابة، الميناء، وتصافح عيناك الفيلات الجميلة المنتشرة حوله، والأفق الذي يحتضن مدينة أوسلو...

حدثنا مرشدنا السياحي عن أوسلو أن مساحتها تبلغ 454 كيلومتراً مربعاً.. وعدد سكانها 580 ألف نسمة بواقع كيلومتر مربع لكل 1200 شخص، فيما يبلغ عدد سكان أوسلو وضواحيها حوالي نحو مليون نسمة... نسبة المهاجرين 26% من عدد السكان، ويبلغ ارتفاع أعلى قمة فيها 629 متراً.. وعدد البحيرات فيها 343 بحيرة.

تأسست المدينة حوالي الألف بعد ميلاد السيد المسيح "عليه السلام" سنه 1536م أصبحت النرويج جزءً أو تابعة للدنمارك، وسنه 1624م تم تغيير أسم أوسلو إلى كرستينا نسبة إلى ملك الدنمارك الرابع... وفي سنة 1811م تأسست فيها أول جامعة، وفي سنة 1814م انفصلت عن الدنمارك وفى نفس العام أعلن عن ولادة الدستور النرويجي، كما اتحدت في نفس السنة مع السويد، لكنها انفصلت عنها سنة 1905م وتوج الملك هاكون السابع ملكاً على مملكة النرويج، وفي عام 1925م استعادت المدينة أسمها القديم أوسلو، بعد أن فقدته قبل 301 سنة.

عند الساعة الحادية عشرة صباحاً بتوقيت اوسلو، دخلنا الفندق الذي أوصلنا إليه السائق الباكستاني... لكن موظفة الاستقبال فاجأتنا بأننا لن نشغل غرفنا إلا عند الساعة الثالثة ظهراً... خمنا أنها قد تكون مأهولة بنزلاء آخرين لن يغادروها قبل هذا الوقت بقليل..

أرسلنا حقائبنا إلى مستودع الأمانات بالفندق في انتظار أن تتكرم موظفة الاستقبال بالسماح لنا بدخول غرفنا في الموعد الذي حددته لنا... الثالثة عصراً، أمامنا أربع ساعات حتى ذلك الحين، عرجنا على إحدى الاستراحات... وهناك وجدت الناس يستمتعون بالشمس ويقضون الوقت بالأحاديث بلغات مختلفة وباحتساء البيرة، وتأمل المناظر الخلابة التي توفرها الطبيعة السخية في هذا الفصل من السنة... ولا يحدث هذا إلا بوجود حيز للشمس والدفء، والبحر، والبحيرات، والغابات، والماء الذي يختصر الولادات لتستمر الحياة.

[66] - توجد جالية باكستانية كبيرة الى حد ما، وقد استقدمت النرويج الباكستانيين لاحتياجها إلى العمالة، واختارت الباكستانيين التي كانت دولتهم حليفة للولايات المتحدة المتحدة، ويزيد عمر هذه الجالية في النرويج عن نصف قرن وهم بعيدون عن التطرف ونتائجه الوخيمة.

كانت لجنة نوبل التي تصدر الجوائز وتمنحها لمستحقيها من دعاة السلام، وللعلماء، والأدباء والكُتاب من أنحاء العالم مجتمعة[67] في أوسلو في ذلك الوقت.. وقد أنشئ مركز نوبل للسلام في حزيران –يونيو سنه 2005م ومن مهامه تنظيم المعارض بالإضافة إلى نشر المعلومات الخاصة عن صاحب الجائزة "الفريد نوبل" وجوائزه.. وكان من بين الذين منحوا هذه الجائزة الزعيم الفلسطيني ياسر عرفات بالاشتراك مع رئيس الوزراء الإسرائيلي اسحق رابين ووزير الخارجية شمعون بيريز، لدورهم في عملية سلام الشرق الأوسط التي بدأت بعد مؤتمر مدريد مرة اخرى في اوسلو ولم يكتب لها النجاح بسبب رفض اسرائيل الموافقة على تسوية تاريخية تنهي الصراع العربي– الاسرائيلي...

هذه الجائزة منحت للرئيس المصري أنور السادات، ورئيس وزراء إسرائيل مناحيم بيجن بعد توقيعهما على اتفاقية كامب ديفيد... ومن غرائب القدر أن "رابين" اغتيل في ديسمبر 1995م على يد متطرف يهودي من أصل يمني... كما اغتيل قبله السادات في اكتوبر 1981م على يد متطرف ينتمي الى تيار الاسلام السياسي، واغتيل بعدها الرئيس الفلسطيني ياسر عرفات مسموماً على يد الموساد الاسرائيلي

جائزة نوبل للسلام التي منحت للرئيس الفلسطيني ياسر عرفات

أما جائزة نوبل للآداب فقد منحت لعدد كبير من مواطني هذا العالم من الشرق ومن الغرب ومن الذين حظوا بها الكاتب الأمريكي ارنست همنجواي، صاحب رائعة "الشيخ والبحر" ورائعته الأخرى "ولا تزال الشمس تشرق"، و"رجال دون نساء"، و"وداعا للسلاح"، التي كشف فيها

[67] في الأسبوع الأول من تشرين الأول – أكتوبر 2010 م أعلنت اللجنة منح جائزة نوبل للفيزياء لعالمين روسيين وفاز يابانيان وأمريكي بجائزة نوبل للكمياء... كما فاز الكاتب البيروفي "ماريو فارغاس يوسا" بجائزة نوبل للآداب في نفس العام.

وحشية البشرية في الحروب، ومدى تجردها من الأخلاق والقيم، وهو ما يؤدي إلى تلك الملايين من الضحايا الأبرياء، في الحربين العالميتين الأولى والثانية.. ويحفل الأدب الروسي من ناحية أخرى بالعديد من الكتاب الذين نالوا شرف جائزة نوبل للآداب، كميخائيل شولوخوف مبدع رواية الدون الهادئ، وبوريس باسترناك صاحب رواية "دكتور جيفاكو" التي تحولت إلى فيلم لعب بطولته الممثل المصري العالمي عمر الشريف.. كما نالها قبل كل هؤلاء الشاعر الهندي العظيم طاغور، والكاتب الكولومبي غابرييل غارسيا ماركيز، صاحب "مائة عام من العزلة".. كما حمل شرف هذه الجائزة من العرب الأديب والروائي المصري "نجيب محفوظ" صاحب ثلاثية "بين القصرين" والسكرية وقصر الشوق ورواية أولاد حارتنا والعديد من الروايات والأعمال الخالدة.. والعالم العربي الوحيد الذي نال شرف هذه الجائزة في العلوم (نوبل في الكيمياء) هو الدكتور المصري "أحمد زويل"..

وأخيراً وفي العام 2011 نالت الناشطة اليمنية توكل كرمان هذه الجائزة تقديراً لجهودها في الثورة السلمية التي قامت في اليمن ضد الاستبداد والفساد. وقد أثار نيلها الجائزة جدلاً واسعاً لاسيما أنها المرأة العربية الأولى التي تنال الجائزة وتنتمي لحزب سياسي إسلامي هو التجمع اليمني للإصلاح [68]. أحد مكونات جماعة الاخوان المسلمين الدولية.

شهد نفس هذا الفندق الذي اجتمعت لجنة نوبل فيه والذي سنتخذه نزلاً لنا، سلسلة لقاءات بين الوفدين الفلسطيني والإسرائيلي كما اخبرني بذلك السفير عمر كتمتو الذي حضر معظم تلك اللقاءات والمباحثات بين عرفات وبيريز، وبين عرفات وايهود باراك، ورئيس وزراء إسرائيل اسحق رابين والتي أفضت إلى اتفاقيه أوسلو...

الفندق يطل على مدينه اوسلو وقد أغراني المنظر الذي رأيته من نافذة غرفتي، لأهم معالمها بالنزول لرؤية المدينة عن كثب بسبب الموقع الفريد للفندق.

[68] - لم يكن يخلو منح هذه الجائزة الرفيعة للسيدة كرمان من بعد سياسي أوضحه رئيس لجنة نوبل للسلام السيد "ثوربيون ياجلاند" في خطابه لدى تسليم الجائزة في 2011/12/10م مشاركة بين السيدة كرمان وسيدتين ليبيريتين، مضمونه: "أن الحضارة الغربية ليست ضد الاسلام".

تجولت في سيارة يملكها صومالي... وبمجرد أن راءنا عرف أننا عرب... قال ان اسمه عبد الشكور.. طاف بنا في أهم معالم المدينة، كالقصر الملكي، والبرلمان، والجامعة، والحديقة

العامة، وبعض الكنائس، والمدارس والعديد من المواقع والمباني ذات الأهمية الثقافية التي تعكس مظاهر التراث الحضاري والمعماري للنرويج.

مدينة اوسلو لا تكتسب قيمتها فقط لكونها عاصمة للبلاد، بل لأنها أرض ذات جمال أخاذ، تحيط بها قمم الجبال المكسوة معظم العام بالثلوج، والتلال المزدحمة بالغابات، والتي تكثر فيها البحيرات، وتشكيلة مدهشة من التنوع الجغرافي للمناطق البيئية من البحار، والبحيرات، والغابات، والقمم الجبلية التي يبلغ أعلاها 926 متراً فوق سطح البحر.. وقد حرصنا على التقاط الصور التذكارية أمام العديد من المعالم التي اشتملت عليها جولتنا في المدينة...

عبد الشكور بلا سؤال، وبلا معرفه كافية، يحدثنا طوال الوقت عن الجالية الصومالية واللاجئين الصوماليين في أوسلو والذين بلغ عددهم كما قال 80 ألف جاءوا هرباً من الحروب في أراضي الصومال الحارة التي تقع على خط الاستواء إلى هذه البلاد البعيدة الباردة أو شديدة البرودة والتي تكسوها الثلوج وتهبط درجة الحرارة فيها إلى 4 تحت الصفر في الشتاء وترتفع إلى عشرين درجة في الصيف... قاطعين عشرات آلاف الكيلومترات للنجاة بحياتهم من طاحونة الحرب التي التهمت الأخضر واليابس، وقتلت مئات الآلاف والمستمرة باشكال اخرى بين المجموعاة الارهابية التي تسمى "الشباب" وبين الحكومة منذ نحو ثلاثين سنة.. بسبب صراعات كانت قبلية في جوهرها ومضمونها ناتجة عن نظام استبدادي للرئيس السابق المرحوم محمد سياد بري الذي قاد انقلاباً على نظام ديمقراطي في 5 اكتوبر 1969م وبقي في السلطة حتى عام 1991م

رئيس الوزراء علي ناصر محمد في كسمايو على خط الاستواء
في الصومال على الحدود الكينية 1976م

بعد عدة سنوات سيتكاثر الصوماليون الذين جاءوا والذين ولدوا هنا في النرويج، والذين سيولدون فيها فيما بعد... وقد يأتي يوم ما يحكم فيه هذه البلاد رئيس وزراء نرويجي من أصل صومالي، كما حكم الولايات المتحدة الأمريكية ذات يوم رئيس أمريكي من أصل كينى، هو باراك حسين أوباما.. الذي هاجر أباه المسلم من كينيا وقبله أجداده الذين هاجروا من السودان إلى كينيا إلى أمريكا... أرض الأحلام وفي هذا الصدد يقال أيضا أن جده لأبيه نزح من حضرموت إلى كينيا! لكن ليس هناك وثائق تؤكد ذلك.

الحجاب الإسلامي منتشر في كل أحياء المدينة.. ونادراً ما تشاهد امرأة صومالية أو عربية مسلمة سافرة، وقد أنتشر النقاب في السنوات الأخيرة ليس في البلاد العربية والإسلامية فقط... بل حتى في المهاجر الأوربية والدول الاسكندينافية بسبب المتشددين الإسلاميين الذين حبسوا المرأة في قمقم أسود، وأعادوها إلى عصر الحريم بعد أن كانت قد اكتسبت حريتها خلال النصف الأخير من القرن العشرين، وقبله بقليل بفضل حركة تحرير المرأة التي انطلقت من مصر بقيادة قاسم أمين وهدى شعراوي وأمينة السعيد وسواهما..

المواطن النرويجي والاوروبي يقبل ولكن على مضض الحجاب الذي لم يألفه في بلاده.. لكنه قبل التكيف معه كنوع من تقبل الآخر المختلف عنه ديانة وثقافة وتعبيراً عن احترام ثقافته، لكن بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر في نيويورك، والعديد من عمليات الإرهاب التي جرت على يد متطرفين ينتمون الى الاسلام السياسي في عدة عواصم اوربية، أو ضد مصالح اوربية وامريكية، نشأت لدى بعض مواطني هذه البلدان الأصليين روح العنصرية والعداء لكل ما هو عربي أو إسلامي.. وهي جزء من ثقافة الخوف التي يغذيها الإعلام الغربي الخاضع في اغلبه لنفوذ صهيوني في عقول الغربيين يضاف إلى ذلك الشعور بأن هؤلاء المهاجرين ينافسونهم في أعمالهم، ولقمة عيشهم في كل مكان، في الطرقات، في المطاعم، في المتاجر، الباصات، سيارات الأجرة، أعمال البناء، وخدمة الحدائق، وأعمال النظافة في الشوارع، ويقبلون بأقل الأجور...

زعم عبد الشكور انه يحصل من عمله في سيارة الأجرة التي يمتلكها في الشهر الواحد على نحو 6000 كرون نرويجي[69]، أي أن دخله ليس مرتفعاً ومع هذا فهو قادر على أن يرسل أولاده إلى مصر كل عام لتعلم القرآن وتلقي التربية على الطريقة الإسلامية لأنه يعتبر التعليم في النرويج خطراً عليه وعلى أولاده وأولاد المسلمين المقيمين فيها، لأنهم حسب قوله يعلمونهم الجنس!!

عبد الشكور لم يكن صادقاً... وهو من أمة تحترف الكذب المنهي عنه في القرآن في اوطانها ومهاجرها، وقد بالغ في الحديث عن قلة دخله من أجل الحصول على بقشيش مرتفع، فمعروف أن الطالب النرويجي وغير النرويجي يحصل على منحة شهرية وكذلك المهاجر وقدرها /8000/ كراون اضافة إلى السكن ويمكن الأشارة الواضحة إلى كذب العرب وحتى وهم في الخارج وفي نعمة من نعم الله. الستة الاف كراون أقل من 100 دولار.

حصل عبد الشكور وأولاده على الجنسية النرويجية كغيره من الصوماليين والعرب الذين استقروا في هذه البلاد.. لكنه لا يزال يخشى كيف سيتعامل في المستقبل مع الواقع النرويجي، فهو ينتمي إلى ديانة وثقافة أخرى، ولا يجد هو وغيره من العرب والمسلمين أوجه تشابه مع ثقافة وديانة أهل البلد الأصليين... لهذا يجدون صعوبة في الاندماج في مجتمعاتهم الجديدة برغم اكتسابهم لجنسيته التي تعطيهم مستوى حياة لائق لم يكونوا يحلمون بها في بلادهم الأصلية التي جاءوا منها إما بسبب فقر أو حرب أو مجاعة أو اضطهاد..

[69]– يبلغ متوسط دخل الفرد في الصومال 600 دولار امريكي في السنة فقط، وللمقارنة فأن هذا السائق الصومالي يحصل على دخلٍ شهري يفوق متوسط دخل الفرد السنوي بالضعفين تقريباً عما هو في وطنه.

هذه الإشكاليات هي سبب عزوف أكثرهم عن المشاركة في الحياة الثقافية والسياسية لسكان البلاد، فكثيرٌ من العرب والمسلمين لا يولون أهمية كبيرة لتعليم أولادهم، بعكس الجاليات الأخرى التي تولي الاهتمام للتعليم والعمل الثقافي والذين وصل البعض منهم إلى مناصب هامة سواءًا هنا في النرويج، أم في السويد، وغيرها من المدن والبلاد الأوربية[70].

أمام مبنى بلدية اوسلو

اتفاق أوسلو

بعد أن التقيت بالسيد عمر كتمتو حدثني مطولاً عن اتفاقية اوسلو بين منظمة التحرير الفلسطينية وبين اسرائيل التي كان له دور كبير في مختلف مراحلها وهي اتفاق تمهيدي يؤدي لو نفذته اسرائيل نصا وروحا بمصالحة تاريخية واتفاق سلام نهائي وقعته إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية في مدينة واشنطن الأمريكية في 13 سبتمبر 1993، وسمي الاتفاق نسبة إلى مدينة أوسلو التي تمت فيها المحادثات السرّية عام 1993م.

[70] – حسب احصائيات الجامعة العربية تعد العمالة المغربية التي تقدر بنحو 5 مليون نسمة هي الأكبر ومعظمهم في اسبانيا وفرنسا وبقية المهاجرين من مختلف الجنسيات العربية من أطباء ومهندسين وعلماء وخريجي الجامعات الذين يستقرون في هذه البلدان بعد تخرجهم وتتصدر قائمة التحويلات اللبنانية قائمة تحويلات المهاجرين العرب.

تعتبر اتفاقية اوسلو، أول اتفاقية رسمية مباشرة بين إسرائيل ممثلة بوزير خارجيتها آنذاك شمعون بيريز، ومنظمة التحرير الفلسطينية، ممثلة بأمين سر اللجنة التنفيذية محمود عباس رئيس السلطة الوطنية الفلسطينية الحالي والذراع اليمنى للرئيس الراحل عرفات قبل استشهاده.

ورغم أن التفاوض بشأن الاتفاقية تم في أوسلو، إلا أن التوقيع تم في واشنطن، بحضور الرئيس الأمريكي الاسبق بيل كلينتون والرئيس الراحل ياسر عرفات ورئيس وزراء اسرائيل الراحل اسحق رابين ووزير خارجيته شمعون بيريز ووزير خارجية روسيا.

وتنص الاتفاقية على إقامة سلطة حكومة ذاتية انتقالية فلسطينية (أصبحت تعرف فيما بعد بالسلطة الوطنية[71] الفلسطينية)، ومجلس تشريعي منتخب للشعب الفلسطيني، في الضفة الغربية وقطاع غزة، لفترة انتقالية لاتمامها في أقرب وقت ممكن، بما لا يتعدى بداية السنة الثالثة من الفترة الانتقالية.

ونصت الاتفاقية، على أن هذه المفاوضات سوف تغطي القضايا المتبقية، بما فيها القدس، اللاجئون، المستوطنات، الترتيبات الأمنية، الحدود، علاقات التعاون مع جيران آخرين.

ولحفظ الأمن في الأراضي الخاضعة للسلطة الفلسطينية، نصت الاتفاقية على إنشاء قوة شرطة فلسطينية قوية، من أجل ضمان النظام العام في الضفة الغربية وقطاع غزة، بينما تستمر إسرائيل في الاضطلاع بمسؤولية الدفاع ضد التهديدات الخارجية.

في إسرائيل حدث نقاش قوي بخصوص الاتفاقية؛ فاليسار الإسرائيلي وقوى السلام دعمها، بينما عارضها اليمين. وبعد يومين من النقاشات في الكنيسيت حول تصريحات الحكومة بشأن الاتفاقية وتبادل الرسائل، تم التصويت على الثقة في 23 أيلول/سبتمبر 1993 حيث وافق عليها 61 عضو كنيسيت وعارضها 50 آخرون، وامتنع 8 عن التصويت كان من بينهم رئيس الوزراء اليميني الأسبق الذي رأس الوفد الإسرائيلي في مؤتمر مدريد في اكتوبر 1991م السيد اسحاق شامير.

المواقف الفلسطينية كانت منقسمة أيضاً، فـ "فتح" التي مثلت الفلسطينيين في المفاوضات قبلت بإعلان المباديء، بينما اعترض عليها كل من حركتي حماس والجهاد الإسلامي والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين (المنظمات المعارضة) لأن مواثيقها الداخلية ترفض الإعتراف بحق إسرائيل في الوجود في فلسطين وعارضها رمزان فلسطينيان بارزان هما الشاعر الكبير محمود درويش والمفكر الدكتور ادوارد سعيد.

[7171] ـ السلطة الوطنية الفلسطينية: اسرائيل لا تقبل كلمة "الوطنية".

على كلا الجانبين كان هناك مخاوف متبادلة من نوايا الطرف الآخر.

بناءً على إدعاء حكومة إسرائيل، فإن ثقة الإسرائيليين بالاتفاقية فقدت لأن المقاومة للاحتلال تكثفت بعد توقيع الاتفاقية، الأمر الذي فسره البعض على أنه محاولة من قبل بعض المنظمات الفلسطينية لإفشال عملية السلام. بينما رأى آخرون أن السلطة الفلسطينية لم يكن لديها رغبة في إيقاف تلك الهجمات، بل كانت تشجعها. وكدليل قالوا أنه عندما تفجرت موجة العنف عام 1996، أدارت الشرطة الفلسطينية أسلحتها بإتجاه الإسرائيليين في الصدامات التي أسفرت عن سقوط 51 فلسطينياً و15 إسرائيلياً.

خشي العديد من الفلسطينيين أن إسرائيل لم تكن جادة بخصوص إزالة المستوطنات من الضفة الغربية وقطاع غزة، خاصة من المناطق المحيطة بالقدس. وانها تسرع وتيرة الاستيطان ببناء مستوطنات جديدة وتوسيع الموجود منها وهو ما حدث ويحدث اليوم فعلاً.

فندق راديسون بلو الذي جرت فيه المفاوضات السرية

بدأت القصة في السنوات السابقة لتوقيع الاتفاقية...

يقول السيد عمر كتمتو: في منتصف العام 1991.. حدث أن كنت في تونس حاملاً معي بعض الأفكار الخاصة بالعلاقة الثنائية الفلسطينية النرويجية بصفتي سفيراً للمنظمة في أوسلو خاصة وأن النرويج بدأت تتعامل معنا بنشاط واضح ومنذ شهر شباط فبراير 1989 في أعقاب الزيارة التي قام بها السيد تورفالد ستولتينبيرج Thorval Stoltenberg وزير الخارجية حينها والتقى بالرئيس أبو عمار في العاصمة التونسية, واثناءها تمت أول مباحثات رسمية فلسطينية نرويجية.

في العام 1991 كنت مع الرئيس أبو عمار في منزل السيد حكم بلعاوي[72] وقررت أن أطرح على الرئيس ما يجول في فكري من رغبة قوية لنقل دور الوساطة السويدية بيننا وبين إسرائيل إلى النرويجيين إذ أن السويديين, وبنشاط ملموس لعبوا دوراً ممتازاَ في السعي إلى بدء محادثات سرية أو علنية بين منظمة التحرير وإسرائيل لكنها جميعها لم تصل إلى النتيجة المرجوة.

وكان أبو عمار سعيداً ومرتاحاً للدور السويدي, لأن السويد كانت دولة حيادية, وهي لم تشارك في الحربين العالميتين, فضلاً عن أن "أولاف بالمه" رئيس وزرائها الراحل كان أول من دعا عرفات لزيارة رسمية إلى السويد بعد خروج أبو عمار الثاني من لبنان والسويد كانت من أوائل الدول الاوروبية التي اعترفت بالدولة الفلسطينية.

خلال تلك الجلسة في مقر سفيرنا في تونس وبوجود السيد خالد الحسن رحمه الله, أفضيت بما لدي للرئيس عرفات, ثم طلبت منه أن يسعى لدى النرويجيين كي يدخلوا وسطاء بيننا وبين الاسرائيليين لكن الجواب الذي حصلت عليه من عرفات كان كالتالي:

"**إيه ياعمر, أنا بعرفك تفهم سياسة, وإنما اللي بتقوله ده هو سذاجة سياسية**".

شعرت حينها بامتعاض –والكلام لعمر كتمتو– وصمتُّ عن الكلام أوعلى الأقل احجمت عن الاستمرار بطرح وجهة نظري, وما هي إلا دقائق ليست طويلة, حتى بادرني الراحل (أبو السعيد) خالد الحسن بسؤال أعادني إلى ما كنت أود أن أوصله لعرفات, حينما قال:

يا أخ عمر، لماذا تقترح النرويج ؟

قلت لأسباب كثيرة أولها:

- ❖ النرويج دولة صديقة لإسرائيل، وقادتها الآن أصدقاء للرئيس عرفات، وهي عضو في حلف الناتو أي أنها حليفة لأميركا بينما السويد (لا) وبالتالي فمثل هذا الدور سوف يحصل على مباركة أمريكية.
- ❖ النرويج لم تكن أبداً دولة احتلال بل كانت دائماً دولة محتلة كما نحن عليه الآن.

[72]– سفير فلسطين لدى تونس

- ❖ النرويج ليست دولة عظمى لأن الدول العظمى لن تستطيع أن تكون حيادية إذا ما دخلت وقامت بدور الوسيط.
- ❖ النرويج دولة غنية ومستعدة –بتقديري– للقيام بهذا الدور بل، ومستعدة أيضاً لتمويل عملية السلام المنشود.

ساد الغرفة صمتٌ عميق, وكان أبو عمار يستمع, بل وكله آذانٌ صاغية لما أقول, أما خالد الحسن فقد هزّ برأسه إيجابياً دون أن يقول شيئاً.

هذا اللقاء كان قد حصل قبل أكثر من عام على اجتياح الكويت عام 1991 ونجم عنه وضع صعبٌ جداً للمنظمة بحيث أنها أصبحت غير قادرة على تأمين احتياجات مؤسساتها خاصة الدبلوماسية, وفي صيف عام 1992 خلال شهر آب / أغسطس وصل الأخ بسام أبو شريف إلى العاصمة النرويجية دون أن يخبرني كي أكون في المطار, ثم اتصل بي بعد أن استقر في الفندق الذي شهد فيما بعد المحادثات السرية, وكان اسمه في ذلك الحين فندق "بلازا" (plaza) وسمي فيما بعد فندق Radisson SAS "راديسون ساس" أما اسمه الآن فهو Radisson Blu , و Plaza.

مع الصديق عمر كتمتو أمام فندق الرديسون
الذي عقدت فيه المفاوضات الفلسطينية الأسرائيلية للمرة الأولى سراً ومن دون علم الأطراف الأخرى في النزاع حتى الولايات المتحدة ومخابراتها لم تعلم بأمر هذه الاجتماعات التي افضت بالنهاية لتوقيع اتفاقيو أوسلو

ويضيف السفير عمر كتمتو، اتصل بي بسام وكنت في طريقي بالسيارة عائداً من مدينة اسمها "درامين" Drammen إلى أوسلو. فقلت له: أنا في طريقي اليك الآن إذْ كانت المسافة

بين أوسلو ودرامين (40) كم فقط. لدى وصولي إلى غرفة بسام في الفندق أخبرني مباشرةً بأنه مكلف بمهمة من الرئيس تستدعي ذهابنا معاً للقاء وزير الخارجية السيد "ستولتينبرغ" ولما سألته عن السبب أجابني بأن الرئيس يرغب في استخدام النرويج وسيلة محادثات فلسطينية إسرائيلية, مستجيباً لما طرحته عليه قبل أكثر من عام.

عندها قلت لبسام: إذاً دعني أتصل بالرئيس وبمجرد ماطلبته تم ايصالي به وسمعته يقول: "دلوقت ياعمر يمكن أن نمضي بالفكرة التي حدثتني عنها العام الماضي, وعلى بركة الله أنت وبسام".

اتصلت مباشرة بوزارة الخارجية وطلبت الحديث مع الوزير وتم إيصالي به. بعد السؤال لماذا أريد لقاءه, أجبت لأنني أحمل له رسالة شفوية مع أحد مستشاري الرئيس ياسر عرفات, وجاءني صوت الوزير قائلاً: أهلاً وسهلاً بكما في الساعة الثالثة بعد الظهر, وكانت الساعة حينها الواحدة والنصف ظهراً, وهكذا أخذت النرويج دورها التاريخي في البحث عن حل للصراع العربي الإسرائيلي...

مع صديقي السفير هانس

مساء اليوم التالي لوصولنا، سعدت بلقاء صديقي السفير النرويجي هانس ويلهم لونجوي، السفير المتجول بوزارة الخارجية النرويجية، والذي كان سفيراً لبلاده في عدن والكويت ودمشق وقد التقيت به في منزل عمر كتمتو...

مع السفير هانس ولهلهم لونجوي وعمر كتمتو

دار بيننا حديث طويل عن الأوضاع في اليمن والمشاكل والتعقيدات التي يمر بها... وقد تصدرت مشكله الجنوب الذي يطالب بعض سكانه بالانفصال الأولوية على رأس هذه المشاكل بسبب سلسلة من التصرفات والسياسات المنهجية التي أجهضت رؤى وجوهر مشروع الوحدة، والتي دأب نظام علي عبد الله صالح انتهاجها ضد الجنوب وشعبه... وكانت قضيه الحوثيين في صعدة في اقصى شمال اليمن الذي يطالب سكانه بحقوق متساوية، والتي تعرضت ل 6 حروب من قوات النظام حاضرة كواحدة من أهم المشاكل التي تواجه اليمن... كما حضرت بقوة مشكلة إرهاب والقاعدة التي تتسبب في هروب الاستثمارات وانهيار الوضع الأمني في البلاد من ضمن ما استعرضناه في اللقاء... والمعروف أن حكومة علي عبد الله صالح كانت تتهم برعاية الإرهاب القاعدة في اليمن، وتستثمره لتخويف الجيران الخليجيين والأمريكان معاً، وأيضاً لابتزازهم مالياً، وعسكرياً، وسياسياً، واقتصادياً، وما لم يدفعوا له فإنهم يعرضون أمن المنطقة ومصالحهم الاستراتيجية للخطر!

وقد شَّبه البعض هذا السلوك بالثعبان الذي يخرجه الرئيس علي عبدالله صالح من كيسه كلما أراد تخويفهم!!

وللكاتب اليمني والسياسي الكبير عبد الباري طاهر مقولة معبرة هي ان الرئيس علي عبد الله صالح يضرب القاعدة أحيانا ويضرب بها في أحيان كثيرة.

ولم نغفل المشكلة الاقتصادية وانهيار العملة الوطنية في البلاد، اذ وصل سعر صرف الدولار الواحد إلى 260 ريال حينها، بينما كان سعره في أوج قوته نحو عشرة ريال فقط للدولار الواحد عام 1990 م.. وما تلقيه الأزمة الاقتصادية من أعباء ثقيلة على كاهل المواطنين.

ولم يكن من الممكن إلا أن نعرج إلى القضية الفلسطينية التي تفرض نفسها على أي لقاء أو حوار يجمع بين العرب والأوربيين. وقد تطرقنا إلى عملية سلام الشرق الأوسط وما يحيط بها من تعقيدات رغم انطلاق هذه العملية عقب هزيمة 1967م... وشمل حديثنا الصراع أو الخلاف الدائر بين حماس وفتح حيث تمركزت الأخيرة في جزء صغير من فلسطين، وأقامت "دويلة" في غزة واتهمت من قبل فتح بالتمرد على الشرعية عام 2007م وتحول الصراع من صراع مع إسرائيل إلى صراع فلسطيني –فلسطيني بدلاً من قيادة واحدة معترف بها عربياً ودولياً تقود نضاله منظمة التحرير الفلسطينية، وأصبح برأسين متنافسين يرفع احدهما شعار المقاومة ولا يمارسها إلا في النادر بينما المقاومة الحقيقية للاحتلال الإسرائيلي تمارس يومياً في الضفة الغربية المحتلة.

أما المشكلة الأخيرة في حديثنا فقد كانت حول الفتاة النرويجية التي قتلها فاروق ابن الملياردير اليمني شاهر عبد الحق في لندن، والتي هرب بعد حادثة القتل إلى صنعاء بطائرة خاصة قبل اكتشاف البوليس البريطاني للجريمة، وقلت حينها أنه من الافضل لمستقبل الشاب "فاروق" ان يسلم نفسه ويمثل امام العدالة في بريطانيا، واكدت ذلك في لقاء صحفي مع احدى الصحف النرويجية وهو ما اثار حفيظة السيد شاهر عبد الحق الذي ازعجه ما نشر في الصحيفة وعند لقائي به في دبي (10 مارس 2013) وبحضور السفير مصطفى نعمان أكدت مجدداً لشاهر أنه من الافضل حل مشكلة فاروق عبر القضاء وليس بهروبه الى اليمن حرصاً على مستقبله، وقبل فترة (2013) علق احد الوزراء وقال أنه لو سلم فاروق نفسه منذ ذلك التاريخ 2008 لكانت قد حلت مشكلته.

أسترسل السفير هانس لونجوي عن ذكرياته في المنطقة العربية، وخاصة في عدن وتجربة اليمن الديمقراطية التي عايشها عن كثب حين كان سفيراً لبلاده ولم يكن هناك علاقة اقتصادية او تجارية بين البلدين ... وقد أشاد بها خاصة الفترة التي سبقت الوحدة، وتحديداً حتى عام 1986 م لما أتسمت به من واقعية وانفتاح كان يمكنها أن تدخل بالبلاد إلى مرحلة جديدة، قبل أن تجهض.

في الخارجية النرويجية

كل تلك القضايا والمواضيع كانت حاضرة في اللقاء الذي رتبه لي الصديق السفير لونجوي، مع مسئولي دائرة الشرق الأوسط بوزارة الخارجية النرويجية –في الرابع من سبتمبر 2010 م–.. جرى اللقاء في قاعة اكتظت بعدد كبير من المختصين باليمن وشؤون المنطقة والعالم في مقدمهم سيدة جميلة طويلة ومثقفة هي نائب مدير دائرة الشرق الأوسط التي رحبت بنا بحرارة.. وهذا المستوى في الحضور رغم أن زيارتنا لم تكن رسمية واستجابتهم وبهذا العدد للحضور دليل على اهتمامهم ليس بشخصي فقط بل تعبيراً عما يعتريهم من قلق على أوضاع اليمن والمنطقة، وعلى مقربة من أحداثها وقضاياها.

قدمني السفير لونجري إليهم وتحدث عن العلاقات التي تربط بيني وبينه منذ سنه 1984 م عندما كان سفيراً في عدن، وعن تكرار لقاءاتنا في دمشق التي شغل منصب سفير لبلاده فيها.

عندما جاء دوري تحدثت أولاً عن الأوضاع في اليمن وعن مجمل القضايا الأخرى التي سبق وأشرت إليها في لقائي مع السفير هانس في منزل عمر كتمتو.

لكن ما لفت نظري خلال الحوار الذي دار بعد ذلك هو تركيزهم على التغيير في اليمن، وإمكانية انفصال الجنوب عن الشمال، وعن قدرة المعارضة على ذلك سواء في الجنوب أم في الشمال.

أجبت على أسئلتهم حول اليمن ولخصت رأيي في أمرين لا ثالث لهما: تغيير نظام على عبد الله صالح... أو التشطير والانفصال، وعبرت عن رأيي ووجهة نظري وقلت: أن الحل هو في التغيير وإقامة نظام حكم فيدرالي من إقليمين، واحد في الشمال وآخر في الجنوب ما لم فأن الانفصال وارد وقادم لا محالة... وإذا لم يتحقق بسلام وباتفاق الطرفين، فإنّ حرباً أهلية تنتظر اليمن ولن يقتصر تأثيرها عليها وحدها، بل ستؤثر بتداعياتها على الخليج والبحر الأحمر والقرن الأفريقي وباب المندب وجزيرة العرب.. وهذا ما حدث فعلاً في عام 2015م بدخول الحوثيين الى صنعاء وعدن واعلان الحرب من قبل السعودية وحلفائها على اليمن.

كما أن الأصدقاء النرويجيين كانوا مهتمين بمعرفة رأيي حول قضية "مارتينا" الفتاة النرويجية التي قتلها نجل رجل الأعمال اليمنى شاهر عبد الحق... وقد طلبوا نصيحتي عن كيفية التعامل مع هذه القضية التي تشغل الرأي العام عندهم...

قلت أنني أدين هذه الجريمة من الناحيتين الإنسانية والأخلاقية، وهذا أولاً... وثانياً: أرى أن تسلم الحكومة اليمنية الجاني إلى الحكومة البريطانية لمحاكمته على جريمته التي ارتكبت على أراضيها وفقاً للقوانين البريطانية والدولية.

وأثار أحد الحضور أن اليمن يريد محاكمته داخل اليمن.. وقال السفير أن والد الجاني شاهر عبد الحق هو شريك لعلي عبد الله صالح في التجارة، وعدة شركات، وفي أمور أخرى لهذا فهو يحمي الجاني وهو في سبيل مصالحه الخاصة على استعداد بالتضحية بمصالح البلاد وبعلاقاتها مع الأصدقاء ولا أظنه سيغير موقفه هذا...

أظن أن النرويجيين وجدوا أنفسهم أمام موقف صعب إذ كان عليهم أن يحلوا هذه المشكلة بروية وحنكة.. وقد حشدوا دعما بريطانيا اولا ثم دعم دول الاتحاد الاوروبي ولكن التطورات اليمنية منذ ثورة الشباب السلمية عام 2011 وماتلاها احبطت مساعيهم للضغط على اي حكومة يمنية لتسليم فاروق شاهر عبد الحق الى العدالة ويذكر السفير علي محسن حميد أن

طرح موضوع القتيلة على رئيس الوزراء الاسبق محمد سالم باسندوة الذي أصغى ولكن لم يقل كلمة واحدة, لكنها حتما ألقت بظلالها على علاقة البلدين... لكن إلى أي مدى؟؟

هارب من العدالة

بعد عام من زيارتنا لاوسلو حضر السفير علي محسن حميد[73] حفل تكريم السيدة توكل كرمان الحائزة على جائزة نوبل للسلام لعام 2011م وكتب موضوعاً هاماً عن هذه القضية الانسانية " في جريدة الوسط بعنوان ابتسامة في صنعاء وحزن مقيم في اوسلو" ولأهمية ما جاء فيها من الناحية السياسية والقانونية والانسانية اورد اهم ما جاء فيه:

لم أكن أود الكتابة في هذا الموضوع وتمنيت أن أقوم بدور في حله..

محاولاتي لم تكن بنفس حماسي في اوسلو وأنا أسمع تفاصيل حكاية قتل شابة نرويجية على يد شاب يمني ليقيني بأني لن أنجح في ما فشل فيه غيري من نرويجيين ويمنيين.

في حفل إفطار كبير في صنعاء شاهدت في التلفاز رجلا يبتسم ولكنه يحرم آخرين من نفس الابتسامة.

الحكاية تمت في ابريل من عام 2008م عندما أقدم شاب يمني في لندن على قتل زميلته النرويجية مارتينا ماغنو سنوفر هاربا إلى صنعاء مطمئنا لغياب العدالة فيها. وقتها كان علي عبد الله صالح على سدة الحكم ومن غيره يمكنه توفير ملاذ آمن لفار من العدالة وهو الذي كان يعرف كل صغيرة وكبيرة ويوظفها أحسن توظيف لمصالحه وحده. ومنذ ذلك الحين لم تفلح محاولات الأسرة المكلومة التي قادها السيد شلماقنا بوندافيك –رئيس وزراء نرويجي سابق ورئيس مركز اوسلو للسلام وحقوق الإنسان– في رحلاته العديدة إلى صنعاء والقاهرة وفي الأخيرة قابل والد المشتبه به، وفي صنعاء قابل الوزراء ذوي الاختصاص، عدل، خارجية، داخلية وغيرهم بغرض طلب عونهم لحث أسرة المشتبه به على تسليم الأخير للقضاء البريطاني إما لتبرئة ساحته أو لإدانته بعد وضعه على قائمة المطلوبين للإنتربول (الشرطة الدولية) بسبب عدم

[73] **السفير علي محسن حميد**، دبلوماسي يمني مخضرم، اختار منذ زمن طريق المعارضة من دون تحزب لفصيل بعينه. كان في السادسة عشر من عمره حين تحركت قوات عبد الله السلال قبل تسعة وأربعين عاما للاطاحة بحكم الإمام. يُعتبر شاهدا على ثورة السادس والعشرين من سبتمبر عام 1962، كما انه شاهد على الانتفاضة الشعبية والشبابية الاخيرة التي اسقطت النظام عام 2011م، شغل العديد من المناصب السياسية سواء في اليمن أو في جامعة الدول العربية، وله العديد من التابات السياسية والاقتصادية في عدد من الصحف العربية.

تعاون الحكومة اليمنية في تسليمه. ولاشك أن وزير الداخلية في حكومة باسندوة عبد القادر قحطان على علم أكيد بالموضوع لأنه كان مسؤول الإنتربول في اليمن.

ومبدئيا تعارض عائلة الضحية المكونة من أب وأم وأخ وأخت محاكمة المشتبه به في اليمن خشية أن يصدر ضده حكم بالإعدام وهي من منطلق إنساني ضد عقوبة الإعدام برغم خسارتها الفادحة ولأنها لاتزال تقدر العلاقة العاطفية التي جمعت بين الضحية والمشتبه به وتتساءل أيضاً كيف استطاع المشتبه به قتل من أحب وأحبته.

إن الغاية الأساسية للأسرة هي أن تستريح من عناء آلام التفكير بأن العدالة في اليمن غائبة أو مغيبة ولاتستطيع أن تطول المشتبه به وعاجزة عن أن تترجم مبادئ العدالة الإسلامية إلى فعل وتستغرب أنه طليق ومحمي بنفوذ يتعارض مع القانون. وعند الملمات توضع القيم والأنظمة والأديان على المحك.

وستتم المقارنة حتماً بين ماهم عليه ومانحن فيه من أحوال هي أقرب إلى أحوال عصر الجاهلية حيث القوة فوق القانون والقوي أقوى من العدالة وستجرى عملية مفاضلة بين قيم نزعم بوجودها وتأثيرها في حياتنا ولكنها فعلياً غائبة بينما هي حاضرة هناك حيث لا أحد يقلل من قيمة أي مواطن آخر لأنه يعتبر نفسه من الجنس الآري النقي الدم أو يزعم أنه ينتمي إلى خير أمة أخرجت للناس والواقع يكذب كل غطاس. البعض من القراء قرأ تقرير منظمة الشفافية الدولية الصادر في 4 اغسطس عن الفساد في عام 2011م الذي ذكر بأن النرويج هي أول دولة في العالم من حيث قلة الفساد فيها وأن اليمن من بين العشرين دولة الأكثر فسادا في العالم ويتذكر أن اليمن في عام 2011 كان تحت حكم علي صالح و32 عاماً قبله.

من يقرأ هذا التقرير في النرويج ويعلم مأساة مارتينا سيتبين سبب قهر وانكسار العدالة في اليمن وأن هذا القهر هو جزء من الفساد الشامل الذي تميز به عهد وصف نفسه بأنه أزهى عصور الديمقراطية التي يذوق الغريب معنا مرارتها.

صالح كان يعلم علم اليقين بما حدث في لندن وبالتفصيل ولكنه لم يحرك ساكناً لكي يستثمر الحادث لصالحه ولاشك أنه فعل. خلال زيارتي للعاصمة النرويجية اوسلو في ديسمبر 2011 بدعوة من معهد نوبل للسلام لحضور حفل تكريم المناضلة توكل كرمان ومنحها جائزة نوبل للسلام أتيحت لي الفرصة لمعرفة تفاصيل المأساة التي كنت قدتابعتها في الصحافة البريطانية عند حدوثها.

وفي اوسلو لم أملك سوى التعاطف الكامل مع الأسرة التي رأت في مناسبة حصول مناضلة يمنية على جائزة نوبل فرصة أتتها من السماء لتسليط الضوء على محنتها التي تتعاطف معها النرويج حكومة وشعبا. وفي اوسلو سمعت بأن النرويج قررت وقف تقديم أي دعم لليمن حتى تتحقق العدالة لمارتينا ولم تخرق هذا الموقف إلا عندما قدمت دعماً إنسانياً في 8 ديسمبر 2011 قدره 8 مليون كرون (مليون ومائتي ألف دولار). عن طريق الصليب الأحمر الدولي عندما أعلنت عدة منظمات دولية أن اليمن على شفا كارثة غذائية.

وبمناسبة نوبل حشدت الأسرة والمنظمة التي أنشئت في اوسلو للمطالبة بالعدالة لمارتينا التي يرأسها السيد بوند افيك مساء يوم التكريم أنصار قضية مارتينا أمام فندق جراند الذي أقامت فيه السيدة كرمان ورفعت صورا كبيرة لإبنتها الشابة ويافطات تطالب بالعدالة وكان الإعلام الدولي والنرويجي حاضراً أو فعلاً اهتم الإعلام النرويجي بتغطية هذا الحدث وشاهد النرويجيون وغيرهم الصور وقرأوا اليافطات ولعلهم تساءلوا باستغراب عن الصعوبة التي تحول دون تسليم مشتبه به لكي يواجه العدالة ولماذا تأوي دولة (هارب) من العدالة.

قد يعلم هؤلاء وقد لايعلمون أن هذه الدولة التي تأوي مشتبهاً به تدعي الالتزم بحقوق الإنسان وبمواثيق دولية ذات صلة بالعدالة التي أصبحت قيمة إنسانية عالمية ملزمة لكل أطرافها وقطعاً هم لايعلمون أن هذه الدولة تضحك على شعبها برفع شعار 'العدل أساس الملك'!!!.

في ظهر نفس اليوم 8 ديسمبر كان الإعلام النرويجي المرئي والمقروء قد اهتم بالأمر وغطى مؤتمراً صحافياً عقده السيد بوند افيك لتوضيح ملابسات القضية للرأي العام النرويجي وغير النرويجي وليكرر مطالبة الحكومة اليمنية بالمساعدة على تسليم المشتبه به للقضاء البريطاني.

أحد الوزراء اليمنيين نصح الأب بتسليم الإبن وأن ذلك في مصلحة الإبن أنه لوفعل ذلك لصدر حكم مخفف فظروف الحادثة تسوغ للمحكمة إصدار هذا الحكم ولكان قد قضى ثلثي فترة العقوبة لو لم يهرب بعد الحادث إلى صنعاء.

إن قضية مارتينا تستحوذ على تعاطف واسع في النرويج وفي إحدى المدن –وقد تكون اوسلو– سينحت فنان نرويجي تمثالا نصفيا لمارتينا سيذكر الناس لزمن طويل بمقتلها وبفشل العدالة اليمنية عن القيام بوظيفتها وبتواطؤ رسمي يمني لايستطيع احد إنكاره.

صورة تجمع شاهر عبد الحق وابنه فاروق والنرويجية مارتينا

في اوسلو سمع والد الضحية وعودا معسولة بأنه في ظلال تغيير ومجيء حكومة جديدة74 ستفتح العدالة عينيها المغمضتين ويحدث انفراج في القضية. ولكن تفاؤلي لم يكن في محله لذلك اعتذر عن تفاؤل ربما خدر الأسرة لبعض الوقت وأطرح القضية الآن للرأي العام وللمحامين ولمنظمات حقوق الإنسان لتبنيه وللدفاع عن حق الأسرة في تحقيق العدالة وإنقاذ العدالة اليمنية مما لحق بها من تلوث وفساد.

إن لليمن مصلحة في إنقاذ سمعته قبل فوات الأوان بالضغط على أسرة المشتبه به على تسليمه شاءت أم أبت وبذلك نبرئ الإسلام كدين مما ليس فيه، أما تبرئة المسلمين فتلك حكاية أشبه بحكاية سيزيف. أما عن بريطانيا مسرحاً لجريمة فإنها تقف مع النرويج ولولا ظروف اليمن الاستثنائية وخاصة مواجهتها الإرهاب لكانت قد أوقفت أو خفضت مساعداتها له. وبحسب علمي فإن التعاطف الغربي مع قضية مارتينا كبير وقد يأتي وقت تجبر فيها اليمن على التخلي عن موقفها السلبي. لقد أرسلت الأسرة رسائل إلى أعلى المستويات في الدولة ولا أحد يعلم مصيرها. الإمام الراحل أحمد حميد الدين كان لاينام إلا بعد أن يرد على كل برقية تصله وخاصة إذا كانت 'جوابلي'. ما بالنا لوكان قد تسلم رسالة 'جوابلي' من شمال الكرة الأرضية تطلب العدالة وليس سواها. إن لمارتينا أُماً تتعذب كل يوم كما للمشتبه به أم سعيدة بالتهرب من العدالة لا تشعر بعذاب أختها في اوسلو. وبعيداً عن الحزن المقيم في اوسلو والسعادة المؤقتة والزائفة في صنعاء هنا كعدالة يجب ألا تنتظر أكثر مما انتظرت. لنبرهن أننا في بلد الشريعة فيه هي المصدر الوحيد للتشريع فعلا وأن النفوذ ليس فوق الشريعة، أي فوق حكم الله. ولنعلم أن أسرة مارتينا لن تيأس وأن بعد اوسلو عن صنعاء لن يميت القضية وأنه كلما تحركت الحكومة

[74]– الحكومة الجديدة، حكومة الوفاق الوطني برئاسة محمد سالم باسندوه ورئيس الدولة الجديد التوافقي عبد ربه منصور هادي

بالسرعة المطلوبة كان ذلك أفضل لنا كشعب وحكومة وكحاملي قيم سامية لا تنحاز إلا للعدالة انتهى كلام علي محسن حميد

وفي باريس التقيت ظهر يوم 24 مايو 2017 بمحامي مارتينا (باتريك لونديفال) الذي وصل من أوسلو للقاء معي بعد اتصالات جرت بيننا منذ شهرين عبر القيادي البارز في الحراك الجنوبي أحمد الدياني والذي كان له نشاط بارز منذ بداية الحراك وواصل نشاطه في الخارج من النرويج واميركا وغيرها من الدول الاوروبية. كان المفروض أن يقوم بزيارة على رأس وفد الى القاهرة أو بيروت لمناقشة التطورات في اليمن والمنطقة ولكن هذا اللقاء تأجل بسبب انشغالنا وعلمت أثناء اللقاء أنه يحمل دعوة من رئيس الوزراء النرويجي لزيارة أوسلو وأنهم يرحبون بعقد مؤتمر للمعارضة في اليمن شمالا وجنوبا وأن الحكومة النرويجية تتكفل باتخاذ كافة الترتيبات والتسهيلات لنجاح هذا اللقاء ولكنني لم أقتنع بكلامه وكنت أخشى أن يتحول هذا اللقاء الى مناقشة قضية الفتاة مارتينا واعترف المحامي أنه في نهاية هذا اللقاء سيطالبون المشاركين في هذا المؤتمر باصدار بيان للمطالبة بمحاكمة السيد فاروق شاهر عبد الحق ولكنني رفضت هذا العرض لأسباب سياسية مع تعاطفي انسانيا مع قضيتها وسبق وأن أكدت أكثر من مرة أنني مع حل هذه القضية وفقاً للأنظمة والقوانين للدولة التي جرت فيها هذه الحادثة

محامي مارتينا باتريك لونديفال

الناشط السياسي في الحراك الجنوبي أحمد الدياني

من أوسلو... إلى جوتنبرج في السويد

عند الساعة الثانية والنصف من بعد الظهر انطلق بنا الباص في طريقنا إلى جوتنبرج، بعد أن غيرنا وسيلة مواصلاتنا القطار في أخر لحظة، حيث كان من المفترض أن نستقله في السادسة مساء لكننا رأينا الاستفادة من فارق التوقيت بين موعد رحلته وموعد الباص للوصول

مبكراً وموافاة مضيفنا السيد خالد السعدي، شقيق طارق السعدي الذي كان يعمل معي في دمشق، لكنه هاجر إلى كندا وتزوج هناك وكون أسرته، وهما ابن أخت صديقي محمد صبري كتمتو "أبو فراس" وأخيه عمر كتمتو الذي ودعنا في المحطة.

انطلق الباص بعد صعود الركاب بثوان في موعده دون أي تأخير، جلسنا إلى مقاعدنا، بينما أخذ الباص يشق طريقه بعد مسافة قصيرة مر خلالها داخل نفق طويل، وعندما خرج منه رأيت البحيرات على يميني عبر طريق مكسوة بالغابات... وبينما كنت ومرافقي مبهورين بروعة وجمال المنظر والطبيعة الخلابة، كان بقية الركاب أما مسترخين في مقاعدهم، أو نائمين غير مبالين بشيء، فهم معتادون عليها ولا يشعرون بالانبهار نحوها مثلنا... أقصد الطبيعة وجمالها.

الباص يسير ببطء.. سائقه رجل في الخمسين من عمره تقريباً.. طويل، أنيق، مظهره، بدلته، ربطة عنقه الحمراء، قميصه الأبيض، نظارته الشمسية، كلها تمنحه مهابة، وتجلب له احترام الركاب الذين كانت ملابسهم دون أناقة السائق بكثير... فهو المسؤول في الباص، ويفتح بابه بجهاز التحكم في قمرة القيادة بمجرد الضغط على زر صغير بأصبعه لصعود أو نزول الركاب الذين يمرون عليه قبل الجلوس إلى مقاعدهم، شتان بين أناقة ونظافة هذا السائق والسواقين في بلادنا، فملابسهم متسخة، والأوسخ منها ثياب مساعديهم في الرحلات الطويلة (جراج بوي أو جيرش بوي باللهجة العامية) بعضهم يعتبر ذلك من مظاهر الرجولة والفتوة، وأحياناً "البلطجة" وفى اليمن يزداد الأمر سوءً إذ يخزنون القات ويدخنون بشراهة، ويقودون بتهور، ويكثرون من الثرثرة مع الركاب، ويفقدون التركيز، ويتسببون بالحوادث، لهذا تجد أعداد الموتى في الطرقات أكثر من الذين يقتلون في الحروب الصغيرة والكبيرة ومأأكثرهما، ولا يتورع البعض منهم في احتساء الكحول المغشوش والمخدرات ويكون لذلك بالإضافة إلى الحرمان من النوم تبعات قاتلة، بعد نشوة القات! لا يبلغ السائق الذي لايحترم مهنته ولاسلامة الركاب ذروة الكيف والانبساط إلا عندما يرمي بقنينة الخمر على حجر، أو على قارعة الطريق ليسمع صوت ارتطامها، وتحطمها، وتحولها إلى شظايا متناثرة..! وإذا علقت "القارورة" في الرمل يشاركه آخرون في اطلاق النار عليها من مسدساتهم، أو الكلاشنكوف!! هذه بعض افرازات ثقافة العنف وممارسته كسلوك لم يجد من يتولى ترشيده.

يتوقف الباص لدقائق... ينزل بعض الركاب في محطتهم... تصعد إليه أربع فتيات، شقراوات بالغات الطول والجمال... يعلق لؤي صالح بأنهم من الجنة الموعودة..

الباص يتحرك من جديد... سرعته لا تزيد على المائة كلم/سا حرصاً على حياة الركاب. على اليمين رأينا وعولاً وظباء ترعى بهدوء.. فهي محمية ولا أحد يطلق عليها النار كما يفعل الناس

في بلادنا كلما رأوا حيواناً حتى انقرض الكثير منها... وبعضها من النوع النادر فيخلون بالبيئة من حيث لا يعلمون كما حدث في جزيرة كمران –التي كانت محمية طبيعية يمنع فيها الصيد– حيث انقرض العديد من الحيوانات النادرة التي كانت تعيش فيها.

بعض من الحيوانات التي انقرضت نتيجة صيد الانسان لها

نمر بجسر معلق فوق نهر كبير يربط بين الحدود النرويجية – السويدية.. يتوقف الباص... يصعد إليه شخص يبدو انه من حرس الحدود، يطلب من الركاب النزول مع حقائبهم للتفتيش.. نمتثل لأمره، ننزل ونمر أمام كلب أسود ضخم، علق أحد أصدقاء الرحلة "سينبح" إذا اكتشف وجود مخدرات مع أحد الركاب أو في حقيبته لكن الكلب لم ينبح.. وهذا يعنى أنه لم يشتم شيئاً مثيراً للريبة... بدلاً منه اندفع أحد الضباط نحو حقيبة ملابسنا "ونبح" هو (وليس الكلب) يبدو أن حجمها الكبير هو ما أثار ريبته، فقد كانت الوحيدة بهذا الحجم إذ كان بقية الركاب يصطحبون حقائب صغيرة يسحبونها على عجلات متحركة... بينما كانت حقيبتنا الكبيرة تنوء بثقلها من الملابس التي لم يكن من مبرر لتكديسها بهذا الشكل في رحلة قصيرة كهذه... هذه الحقيبة التي عانى ماهر حداد مرافقي في هذه الرحلة الكثير من ورائها حيث كان يجرها وراءه عند انتقالنا من محطة إلى محطة..

بعد أن فتشوا الحقيبة، لم يجدوا فيها شيئاً ذي بال... اعتذروا بلطف وطلبوا إلينا والى بقية الركاب العودة إلى الباص... وأغتنم الركاب فرصة التوقف في الذهاب إلى الحمامات وفي التدخين، واخذ بعض الراحة لبضع دقائق قبل أن ينطلق الباص مجدداً لإكمال رحلته إلى مملكة السويد، شاقاً طريقه عبر عالم كله اخضرار وطريقاً سالكة مريحة تشعرك بالراحة والاطمئنان بأنك ستصل بسلام.

في محطة الوقوف الواقعة في قلب مدينه جوتنبرج[75]، كان السيد خالد السعدي في انتظارنا، رحب بنا واقلنا بسيارته التاكسي...

مع خالد السعدي في غوتنبرغ – السويد 2010

ذَّكرني بأنه التقى بي سنة 1982 م في مدينة سرت الليبية عندما كنت في طريقي الى كوبا، وقد شاركنا مع العقيد القذافي في حفل تخرجه مع دفعة الكلية الجوية[76]، وكان من ضمن دفعة الجبهة الشعبية –القيادة العامة التي يرأسها أحمد جبريل والتي تتخذ من دمشق مقراً لها... فيما بعد اختلف مع جبريل الذي سجنه لسنة ونصف، وبعد إطلاق سراحه هاجر إلى السويد التي استقر فيها بعد مروره وإقامته في عدد من الدول الأوربية، وقد حصل على الجنسية السويدية هو وأبناؤه، وألحق أولاده بالمدارس والجامعات. اخبرني أن ملك السويد كرم ابنته "لين" لتفوقها ومنحها منحة مالية قدرها 25 ألف كرون ومجموعة من الكتب، هذه المنحة ترجمة عملية لمبدأ المواطنة المتساوية التي نفتقدها في اليمن وفي البلاد العربية، وقال أن الجميع هنا مرتاحون في السويد، وان الجاليات الفلسطينية واليمنية والسورية والصومالية، متآخون ومتحابون ويعيشون في وئام في هذا البلد.. وأنه تجمعه صداقة شخصية مع فارس فضل السلامي –ابن الشهيد فضل السلامي– الذي هاجر من عدن إلى هذه المدينة..

---

[75] - **غوتنبرغ**، تأسست المدينة في عام 1621 بواسطة الملك السويدي غوستاف الثاني أدولف بعد أن غزا المنطقة التي كانت تحت حكم الدنمارك – النروج وهي مدينة وبلدية تقع في الساحل الغربي من السويد بالقرب من بحر الشمال وهي ثاني أكبر مدن السويد بعد ستوكهولم، وأهم موانئ البلاد. تلقب المدينة محلياً بـ "لندن الصغرى" تقع المدينة حيث يتفرغ نهر غوتا ألف (Göta älv) في كاتيغات، ويقسم النهر المدينة لنصفين. تحتوي المدينة على جامعة غوتنبرغ وجامعة تشالمرس للتكنولوجيا، وتعتبر من المدن التعليمية فيوجد بها أكبر عدد من طلاب الجامعة في إسكندنافيا .كما يوجد فيها مصنع فولفو للسيارات.

[76] - ذكَّرني الصديق خالد السعدي -الطيار السابق- بالطياريين اليمنيين الذين شردهم "صالح" من أعمالهم، وقطع ارزاقهم وأضر بمستقبل أولادهم، واضطروا بعد بيع ما خف وغلى أن يشتغلوا بائعي قات أو سائقي تكسي كالسعدي، ولكن في الجنوب وليس في السويد وبعضهم اصيب بالجنون أو بمرض نفسي وهذه واحدة من مخرجات "صالح" التدميرية للاسرة اليمنية والشعب والوحدة في الشمال والجنوب.

كان السيد خالد السعدي عائداً لتوه –كما أخبرني– من مظاهرة احتجاج على مباراة كرة قدم أقيمت في المدينة بين فريقين إسرائيلي وسويدي.. وقد دخلوا الملعب الذي جرت فيه المباراة بالأعلام الفلسطينية ولافتات الاحتجاج وهم يهتفون ضد إسرائيل... وقد تدخل البوليس السويدي لتفريق المظاهرة واعتقل عدداً من المتظاهرين لتجنب الصدام بين الفلسطينيين والإسرائيليين.

وأخبرني أن السيدة "أم فراس" أرملة خاله وصديقي الراحل محمد صبري كتمتو، ورئيسة "البيت الفلسطيني" كانت هي التي تقود المظاهرة بنفسها وقد تلقت ضربة على بطنها من البوليس أثناء إسعافها لإحدى الفتيات الفلسطينيات التي سقطت على الأرض بعد أن تعرضت للضرب من البوليس وأغمي عليها.

كان خالد السعدي يخبرنا بذلك ونحن في طريقنا إلى العشاء في مطعم تركي... عندما وصلناه كانت الساعة تشير إلى الثامنة وعشر دقائق، عشرات الأتراك والعرب والمسلمين وغير المسلمين يتناولون طعامهم.. ابنة صاحب المطعم قدمت لنا الطعام بنفسها، وقد علمنا أن والدها هو الذي يخبز الخبز ويحضر الوجبات، بينما تتولى زوجة أخيها تقديمه للزبائن، وهي جميلة وتتكلم العربية بطلاقة دون لكنة تركية.

العشاء الذي تناولناه كان لذيذاً.. وهذه هي المرة الأولى التي أتناول فيها مثل هذا الطعام الشهي منذ حوالي شهر، فالمطبخ التركي قريب من المطبخ الشامي إن لم يكونا واحدا.سلمنا على صاحب المطعم وأبدينا إعجابنا بطعامه الشهي وكان سعيداً بذلك.. ثم انتقلنا إلى منزل مضيفنا خالد السعدي لتناول الحلويات والشاي.

خلال ذلك تناولنا أطراف الحديث... وكان الغائب الحاضر ياسر عرفات "أبو عمار" هو المهيمن على جزء غير يسير من حوارنا أثناء تلك الجلسة حول القضية الفلسطينية، باعتبار مضيفنا السعدي فلسطينياً، وقد هاجم عرفات والقيادات الفلسطينية، التي وصفها بالخائنة للقضية!

دافعت عن (أبو عمار) العاشق لفلسطين، والذي ناضل في سبيلها حتى الرمق الأخير من حياته، فنذر نفسه لها، ومات من أجلها شهيدا.. شهيدا.. شهيدا، حتى أخذه الموت الذي لا مفر منه، وأعربت عن رأيي بأن يتجاوز الفلسطينيون خلافاتهم خاصة بين حماس وفتح لأن المستفيد الوحيد منها هو العدو الصهيوني. وهنا ذكرت له حادثة أخبرني بها خاله عمر كتمتو عن أبي عمار..

في شهر أكتوبر تشرين الأول لعام 2003, كان عمر كتمتو في زيارة عمل للمقاطعة برام الله برفقة وزير الخارجية النرويجية آنذاك السيد (جان بيترسون) Jan Petersen وكان الحصار شديداً على عرفات, وحينما تدخل إليه في المقاطعة, تمر من خلال هرمين عاليين من الدمار الذي فيه تراب وحجارة وسيارات محطمة تم تجميعها على طرفي الممر المؤدي إلى مكتب الرئيس كي يرى كل من يأتي إليه من القادة أو السياسيين الشاهد الحي لجرائم رئيس الوزراء الإسرائيلي شارون.

في تلك الجلسة أبلغ الوزير النرويجي عرفات بأنه طلب خلال زيارته لشارون أن يفك الحصار عنه وأن يسحب قواته المحاصرة وآلياته ودباباته المحيطة بمقر عرفات, وطلب من أبي عمار العمل مائة بالمائة على إيقاف العنف!.

كان جواب عرفات قراءة قائمة موجودة أمامه بأعداد القتلى المدنيين الفلسطينيين من أطفال ونساء وشيوخ, وأعداد البيوت التي نسفت والنساء اللواتي أجهضت على الحواجز والمدارس التي دمرت والمزارع التي جرّفت, والأسرى الذين اعتقلوا وكل ما من شأنه التأكيد على استمرارشارون بنهجه العدواني. كرر الوزير طلبه أكثر من مرة وأجابه عرفات بنفس الجواب انتهى اللقاء دون مؤتمر صحفي, عاد بعده الوزير لسيارته لكنه قضى ليلته في رام الله, وعاد عرفات إلى مكتبه الذي ينام فيه ويقاتل ويصلي فيه أيضاً, وكان حزيناً جداً ومتعباً جداً, فرافقته بينما ذهب الوفدان إلى الفندق للقاء يجمع الوزيرين نبيل شعث و بيترسون بعد ساعة, وذهبت بعد ذلك للمشاركة في اللقاء المذكور.

لكنني وبعد أن عدت مع أبي عمار إلى مكتبه، والكلام لايزال للسفير عمر كتمتو وبعد أن حدّق في الأوراق الموجودة على طاولته دون أن يقول شيئاً, استأذنته بأن أقول أنا شيئاً ما بصفتي سفيره في النرويج, فقال لي "نعم تفضل وقول اللي عندك ياعمر"

قلت يا سيادة الرئيس. هذا الرجل السيد بيترسون هو زعيم حزب المحافظين ثاني الأحزاب النرويجية قوة, وله في الوزارة حصة الأسد مع الحزب الديمقراطي المسيحي, وكان من المفترض أن يكون رئيس وزراء الحكومة الائتلافية الحالية, وهو وزير خارجية دولة تقدم لنا سنوياً ملايين الدولارات, لذا برأيي وبعد إذْنك كان الوزير يسعى للحصول على شيء سياسي منك يعود به إلى بلاده فما رأيك؟ نظر لي أبو عمار وقرع الجرس الموجود في طاولته وقال لأحد المرافقين "أعملوا قهوة للسفير" ومن ثم قال لي بلهجته المصرية المحببة:

(أسمع ياعمر, النرويجيين دول كانوا صادقين معايا مالياً وسياسياً مقدرش أكذب عليهم. هو عاوزني أوقف, أوقف إزاي وهم يقتلوا أطفالنا ونساءنا وشيوخنا وبينسفوا بيوتنا وبيقتلوا شبابنا وأنا شكلت كتائب الأقصى على شان أوقف, مستحيل, دا اللي اعطيته لاسرائيل لا يجرؤ أي زعيم عربي أو مسلم أن يعطيه وشوف عملوا بييا أيه, لأ دول كمان قتلوا رابين لأنهم مش عاوزين سلام.. تعرف ياعمر دول عاوزين إيه؟, دول عايزين الأرض كلها, وأنا لذلك عايز الأرض كلها, يا بخرج من هنا لدولة عليها القيمة, يا بخرج محل ما ربنا عايز, إنما أنا ياسر عرفات, أنا مش حخون, مش حخون, مش حخون..)

أحسن السعدي ضيافتنا واهتم بنا وبعد شكره على كرمه غادرنا الى فندقنا.

بتنا الليلة الأولى لنا في "جوتنبرج" في الفندق، وفي الصباح قمنا بجولة لأهم معالم المدينة برفقة خالد السعدي، القصر الملكي.. وبعض المباني التاريخية.. والبحيرات.. والقناة التي قال خالد أنها أطول قناة تربط بين السويد وألمانيا والنرويج.. وحرص أن نشاهد الفرع الذي يلتقي عنده الماء الحلو أو العذب بالماء الأجاج على شكل مجموعة متتابعة من الموجات تتوسع من المركز لتشكل دوائر منتظمة قبل أن يختلط الماء العذب بماء البحر المالح.

الطبيعة في هذه المدينة جميلة وسخية مثلما هي في بقية أراضي السويد الغنية... غمرنا خالد السعدي بلطفه وكرمه وجعل من إقامتنا القصيرة في "جوتنبرج" مريحة وممتعة حتى انه عرض علينا أن ينقلنا بسيارته إلى كوبنهاجن التي قدمنا منها.. ولكننا اعتذرنا عن قبول عرضه شاكرين له كرمه وضيافته الكريمة.

المكان: جوتنبرج

الزمان: 4 سبتمبر 2010 م

الوقت: الواحدة والنصف ظهرا بتوقيت السويد

أصر خالد السعدي على وداعنا حتى باب القطار الذي سيقلنا إلى كوبنهاجن، بعد أن اعتذرنا عن عرضه بنقلنا بسيارته إلى كوبنهاجن.. كرم كبير و دماثةأخلاق من خالد السعدي أخجلتناوأشعرتناكأننا في بلادنا وأنه واحد منا ونرتبط معه بعلاقة قديمة.

العربات قليلة... المقاعد مريحة... والركاب كعادة هذه الشعوب، يقضون زمن الرحلة بالقراءة.. وحتى إذا تكلموا إلى بعضهم، أو بالهاتف "الموبيل" فأنهم يفعلون ذلك بهدوء يشبه الهمس فلا ترتفع أصواتهم.. والبعض يسترخي، أو يخلد إلى النوم كأن لا هموم عندهم، إلا الانشغال بكيفية الترتيب والتخطيط لمثل هذه الرحلات، والإجازات ولميزانية الأسرة، وتربية الكلاب والقطط والذهاب الى السينما والمسرح. وطبعاً إعطاء العمل حقه من الجهد والإتقان، وغير هذا فإن حكامهم المنتخبين هم الذين يهتمون بشؤون السياستين الداخلية والخارجية.. وحين يشعرون بتقصيرهم في أمر من الأمور يحاسبونهم على ذلك،كأن يقصروا في تنفيذ وعودهم الانتخابية، أو يتورطوا في الفساد، أو في عمل من الأعمال غير المشروعة بما فيها الأخلاقية.. أما إذا وفوا بوعودهم، وحققوا النجاح في برامجهم فإنّ الفوز يكون من نصيبهم، في إعادة انتخابهم وتلك تكون جائزة هؤلاء السياسيين بعكس الامور في بلادنا حيث تحول الكل الى سياسيين أو بالاحرى (طباخين) وأفسدوا الطبخة

هموم شعوب بلداننا مختلفة تماماً.. الفقر.. البطالة.. الفساد.. الاستبداد.. انعدام الحريات والعدالة الاجتماعية.. نهب ثروات الشعوب من قبل مسئوليها.. ثراء الأقلية على حساب فقر الأغلبية الساحقة.. والتخلف، وتدني مستويات التعليم والصحة والخدمات.. وغيرها، تعرض المنطقة وشعوبها لمخاطر حقيقية، وتنعكس كلها على مستوى معيشتها، وعلى نوع اهتمامها وأولوياتها، وطبيعة مشكلاتها، وهمومها التي صارت مزمنة وبدون حل. وتنتج عنها صراعات سياسية تعاني منها المنطقة منذ بدايات القرن العشرين وحتى اليوم.. وللأسف لا تزال مؤجلة، ولا يزال حكام بلادنا عاجزين عن تقديم الحلول لها على رغم طول أمدهم في السلطة.. فبعض الحكام والرؤساء يستمر حكمهم لأكثر من أربعين وخمسين عاماً (عبد الدايم أحد حكام الخليج وابنه عبد الصبور) ومع هذا لا يرحلون أو يتركون كرسي الحكم إلا إذا افتكرهم "عزرائيل" بعد

عمر طويل! أو أدركتهم رصاصات الرفاق!! أو سجون الأبناء الذين يستعجلون وراثة الآباء.. أو المنافي..

على أعتاب ألفية جديدة وقرن جديد فإن الذي يصنع الحضارة الجديدة هو الغرب المتقدم.. ولسنا مشاركين في صناعتها.. جل ما نقوم به هو أن نستورد منتجات حضارتهم ليس إلا التي هي في أغلبها إما ترفيهي أو تدميري!! ونعيش في حالة من الصدمة الحضارية عندما نزور بلدانهم ونرى انجازاتهم..

كل الدلائل والشواهد والمقارانات والارقام والممارسات تؤكد أننا متخلفون عن هذا الغرب بمراحل، والفجوة بيننا وبينه في اتساع كل يوم، بل كل لحظة، نحن مشغولون بسباق الهجن ومباريات كرة القدم وشراء النوق وتخزين القات والمسابقات الغنائية (أحد الأثرياء اشترى ناقة واحدة بعشرين مليون دولار وآخر دفع 20 مليون درهم ثمن رقم سيارة مميزة!!!..) بينما الشعوب تموت من الجوع ولا تجد من يقدم لها شيئاً.. هذا ما يدفع البعض إلى أحضان الإرهاب والتطرف الذي يجدون فيه متنفساً يلجأون إليه تحت دعوى شيوخهم بالجنة الموعودة والحور العين والولدان المخلدين.

أتأمل وجوه ركاب القطار الهادئة المسترخية.. أحاول الاقتراب منها، أو فهم ما يدور في خلدهم مهما كان... فهمومهم، ومشاكلهم، وتطلعاتهم نحو المستقبل هي غير همومنا، ومشاكلنا، وتطلعاتنا المستقبلية.. فهم مطمئنون على الأقل إلى حاضرهم ومستوى تطورهم... والمشكلة أن هذا الغرب هو الذي يقودنا في عصر هو من صنعه، وليس لنا القدرة على اللحاق به والاستفادة من تجاربه وحروبه.

اكتفي بهذا القدر من التأمل والتفكير في إجراء المقارنات بيننا وبين هؤلاء القوم، التي قد يرى غيري أنها غير مجدية..

استعين بمناظر الطبيعة التي توفرها لي نافذة القطار للانتقال إلى حالة أخرى غير مرهقة لتفكيري... أجدها في المناظر المتتابعة لـ بحيرات.. خلجان.. مزارع.. مصانع، وتفاصيل لا يمكن رصدها بمجرد العين وحدها، ولكن كاميرا رفيق رحلتنا لؤي صالح تلتقط الصور لما حولنا من مشاهد جميلة و طبيعة رائعة ومعالم تفوق الخيال والقدرة على استيعابها فهي اشد إعجازا في جمالها وروعتهاوخاصة عندما تقرر أن توصفها على أوراقك.

"فادى بارى" محطة يتوقف فيها القطار.. يصعد إليه موظف، أومفتش، للتأكد من تذاكر الركاب، ينزل ركاب.. ويصعد إليه آخرون.. ينطلق مرة أخرى...

الأزرق.. والأخضر من جديد.. بحر.. بحيرات.. غابات.. تجتاح أعماقنا بألوانها، نطير في زهورها، ونبحر في نسيج غنائها، فتسكب فينا السكون وتسكن فينا راحة نفسية مفقودة.

رفيق رحلتي لؤي، انساقت عيناه وأفكاره نحو شقراء جميلة كانت تجلس على يمينه تقرأ.. بينما كان السيد لؤي يتصفح جسدها... ويبوح بما في نفسه.

يقول: أن أجمل ما في المرأة قلبها وركبتها!! والكلمة الأولى لا تعني القلب ومصدرها قلَب بفتح اللام ، والثانية يتغيير معناها بفتح الراء وتسكين الكاف.

يضحك مجدداً... ويضيف:

هذه الفتاه السويدية جميلة، وكأنها من "الحور العين" التي ورد ذكرها في القرآن الكريم..

ويعلق: في الجنة سيحتاجون إلى مثل هذه الفتاة.. ولن يجدوا مثلها!

يواصل ضحكه..

هل كانت تلك هي حقيقته ؟ أم انه كان يمزح فقط؟ أم رغبته الذاتية في السويدية الشقراء.. الفائقة الجمال إلى درجة تشبيهها بالحور العين؟!!

وكان كلما تكلم مع امرأة يكثر من استخدام كلمة "مرسي" الفرنسية، مع معرفته بأن الاسكندينافيات لا يتحدثن الفرنسية كثيراً، إلا العاملات منهن في الفنادق والأماكن السياحية بحكم عملهن.

الدكتور أو السيد لؤي، رجل مثقف، مهذب، ومتحدث لبق، وان كان يكثر من الكلام، ويفيض في الشرح خاصة عن باريس، فهو يعيش فيها منذ سنوات، ويعرفها أكثر مما يعرف بلاده سورية، أو مدينته حمص.

الوقت يمر سريعاً... وكذلك القطار يمر بنا فوق جسر معلق طوله نحو 8 كيلومترات، هو الحد الفاصل بين السويد وكوبنهاجن.. مررنا بمدينة "مال ماو" على الحدود الدنمركية... لم يوقفنا أحد للتفتيش أو رؤية وثائق سفرنا، أو تأشيرة دخولنا.. بل يمكن للمرء أن يتنقل بين بلدان القارة الأوربية بتأشيرة واحدة من أي منها، والسفر بعد ذلك إلى حيثما يريد..

اجتزنا الجسر المعلق، وهبطنا منه إلى نفق آخر إلى هامبورج التي وصلناها بالعَّبارة في العاشرة والخمسة عشر دقيقة مساء بعد رحلة استغرقت أكثر من تسع ساعات.. ونحن بحاجة ماسة إلى الراحة والنوم أكثر من أي شيء آخر.

وليس هناك أفضل من النوم في فندق جميل وفراش مريح بعد يوم حافل..

وقد جاءني النوم الهانئ بسهولة ويسر فى الفندق الذي نزلنا فيه، وأسمه "رويال مريديان" الواقع عند بحيرة "Aussenalster Lake "[77] الجميلة... قضيت الليل دون مقاطعات أو أحداث تذكر.. بعد نوم عميق استيقظت مبكراً.. شاعراً بالنشاط والحيوية والرغبة بالتواصل مع العالم الخارجي، والاستمتاع بالحياة ومواصلة الرحلة.. تأملت عميقاً في الأفق وشاهدت لحظة الشروق...، اللوحة والألوان التي ترسمها على صفحة السماء الصافية بعض السحب العابرة ورذاذ خفيف من المطر، تمنحك شعوراً مدهشاً بأنك تحب الحياة وتستحق أجمل مافيها وبأنك رأيت هذه اللحظة الإعجازية من خلق الله..

الطقس معتدل، متقلب بين الحرارة والبرودة الخفيفة في هذا الوقت من السنة قبل قدوم الخريف، وهجوم الشتاء بثلوجه وبرودته القاسية، تحتجب الشمس قرابة أكثر من خمسة أشهر، وتهب رياح الشتاء الباردة، وتحمل معها الغيوم الداكنة والأمطار الغزيرة، ومع ذلك فإن الناس الذين تعودوا على أجواء بلادهم هذه يستمرون في الحياة مهما كان الطقس مفرطا في قساوته أحياناً كما هو الحال مع سكان سيبريا أو الاسكيمو، مثلما نحن متعودون على حرارة شمس الجزيرة العربية اللاهبة، ورطوبتها القاتلة... التي شكى منها رئيس الوزراء السوفيتي كوسجين عند زيارته لعدن في نهاية سبتمبر عام 1979م وعند خروجه من باب الطائرة قال بدهشة كيف تعيشون هنا؟ طلب منا الغاء مراسم الاستقبال والانتقال الى دار الضيافة بعد ان سلم على كبار المسؤولين في المطار، وكانت امنيته أن يسبح في خليج عدن إلا ان الاطباء نصحوه بعدم السباحة بدعوى انتشار كوليرا في المنطقة انذاك، ولم يكن ذلك صحيحاً حينها وانما كان من منطلق الحرص على صحته وحياته .

الرابع من سبتمبر الساعة الثانية عشرة ظهرا.. قطار –T.J.V– ينطلق بنا إلى "بازل" على الحدود السويسرية، وهي المدينة التي عقد فيها المؤتمر الصهيوني العالمي عام 1897م الذي أدت مقرراته من ضمن أشياء أخرى أهم إلى قيام دولة إسرائيل في فلسطين عام 1948م وتشريد أغلبية شعبها الى دول الجوار وغيرها..

وكما هو حال معظم الدول الأوربية التي زرناها حتى الآن، كانت الطبيعة سخية أيضاً هنا، إذ كان قطارنا "يبحر" بين ضفتين من الأراضي الخضراء كأنها بساط ممدود.

---

[77]– بحيرة الستر الخارجية Aussenalster Lake هي بحيرة صناعية تبلغ مساحتها 1.6 كم^2 وكانت تقع خارج أسوار مدينة هامبورغ على احد شواطئها، يمارس أهل المدينة رياضة الركض حول شاطئها الجميل وتتميز أيضاً بانتشار البنوك حولها.

وكالعادة أيضا فأن الركاب ومعظمهم أوربيون كانوا لا يعيرون مناظر الطبيعة الباذخة التي كان القطار يمر بها، نفس اهتمامنا نحن بها، ودهشتنا لسحرها بل أخذوا ينشغلون بالقراءة، ومتابعة اهتماماتهم عبر"الانترنت" أوإنجاز أعمالهم عبره.. فالكمبيوترات المحمولة والانترنت يوفران الكثير من الوقت والجهد بفضل ما تقدمه الشبكة العنكبوتية من معلومات وخدمات سريعة لمستخدميها، ومثلا في رحلتنا هذه كنا نحجز الفنادق، وتذاكر رحلتنا، دون أن نكون مضطرين للذهاب إلى مكاتب الحجز، أو مكاتب السياحة بل عن طريق الانترنت، وحتى ونحن في قطار مسرع.. لكن أوربا ليست بلاد الإنجازات والمخترعات العلمية والتكنولوجيا الحديثة فقط، بل هي أيضاً بلاد التقليعات، والأزياء، والموضات الغريبة.. في القطار رأيت شابين يضعان أقراطاً ذهبية في أذنيهما.. وأحدهما يضع عدستين لاصقتين.. والآخر حلقة متدلية من أذنيه مثل البنات والنساء في بلادنا.. بينما جلست أمامهما فتاتان لا تلبسن الحلق أو الخروص كما نسميها في اليمن.. بل استبدلوها بوضعها على الآنف، أو على السرة المكشوفة ليراها الناس... وضع الحلق في الأنف عادة قديمة في دثنية وشبوة وحضرموت وبعض مناطق الهند عند المرأة، وفي بعض المناطق الجنوبية الأخرى قبل أن تتحول إلى موضة لدي النساء الأوربيات في السنوات الأخيرة..وحلق الرأس من الجانبين، وإبقاء خصلة وسط الرأس كما نراه اليوم في أوروبا، كان موجوداً لدينا وكان يسمى "قنزعة" وإطلاق الشعر الطويل وإرساله إلى الخلف لدي الرجال، كان موجوداً أيضاً عندنا، ويسمى "القصلة" ورجال البدو ورجال القبائل يتباهون بالشعر الطويل والقصلة التي يلفونها إلى أعلى.. وبسبب طولها يربطها صاحبها أكثر من مرة حتى آخر الشعر الذي يظهر كعرف الديك في أعلى رأسه ويدهنها بالسليط "الزيت" السمسم الذي يسيل وقت المقيل على مؤخرّة ظهره، وحتى قدميه وهو يغسل جسمه العاري من لون "النيل" Indigo النيلة السوداء...

ولم يكن غريباً أن أشاهد في القطار، وفي الكثير من الأماكن التي زرتها خلال رحلتي الاوربية هذه شباناً شعورهم أطول من شعور صديقاتهم، فوجدت صعوبة في التفريق بينهم، أيهما الفتيان وأيهن الصبايا.. ولكن يجب الاعتراف بأن الملابس والأزياء ليسا المقياس لرجولة الشباب، أو أنوثة المرأة هنا في اوروبا التي تجاوزت ذلك، باعتباره نوعاً من الحرية الشخصية، بقدر ما يعدون العمل ومقدار مساهمة الفرد في الإنتاج القومي، وتطور المجتمع هو مقياس للحكم على الشخص ومنفعته، ثم أن هذه التقليعات هي ظاهرة مؤقتة سرعان ما تزول مثلما زالت أو انحسرت موضة الهيبيز، والخنافس، والشارلستون، ورقص التويست التي كانت سائدة في الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين الماضي، والتي غزت حتى بلداننا العربية كنوع من الانبهار بكل ما يأتي من الغرب، خاصة ما يتعلق بالموضة والتقليعات، وعموماً فأغلب شبان

وشابات اوروبا جادون ويدركون أنه بدون العلم والعمل سيكون مصيرهم كمصير فقراء ومتعطلي دول العالم الثالث.

أما عن المرأة فنعلم أن المرأة العربية والشرقية عموما تهتم بمظهرها وأناقتها أكثر من اهتمامها بالعلم والعمل.. وتقضي ساعات طويلة في تجميل نفسها بكل مساحيق الدنيا وأحدثها، المستوردة من الغرب ومن الدول الأخرى الصانعة لها.. وتتعطر بأفخر العطور الباريسية وتتزيا بآخر أزياء الموضات العالمية، وبعضهن من الثريات، أو زوجات الأثرياء يتباهين بأنهن يسافرن خصيصاً إلى باريس من أجل شراء الملابس والعطور "والمكياجات" وخاصة نساء في بلاد الشام والدول الخليجية.. وفي بلدان الخليج تنفق المرأة على الموضة "والمكياج" وأدوات الزينة مليارات الدولارات[78]، فصرف المال على الجمال والزينة لا يهم بقدر ما هو المهم إرضاء رغبات النساء، ورغبة وشهوة الرجال! ولا شك أن القوة الشرائية الهائلة قد أدت إلى ارتفاع أسعار العطور وغيرها وهو ما يشكل استبعادا كليا لمحدودي الدخل.

وحديثي هنا طبعاً عن نساء الأثرياء وليس عن نساء الفقراء، فهؤلاء بالكاد يحصلن على كفاف يومهن والتبرج يعد نوعاً من الترف الذي لا يملكن حتى التفكير فيه، ناهيك السفر إلى عواصم الموضة لشراء آخر صيحاتها!!

على قطارنا أن يمر بنوفو، وفرانكفورت، قبل الوصول إلى بازل، وزيورخ.. المحطة الأخيرة له.. نظراً للسرعة التي سافرنا بها لم يتمكن السيد لؤي صالح مرافقي في الرحلة، من حجز مقصورة لنا على القطار الذي أقلنا من هامبورج إلى بازل..

بعد انطلاق القطار بوقت، انتقلنا إلى مقصورة تتسع لستة أشخاص، المقصورة كبيرة، والكراسي مريحة جداً، وبينها طاولة جميلة من الخشب هي التي أكتب عليها هذه اللحظة انطباعاتي وملاحظاتي عن الرحلة.. والكتابة هي عادتي اليومية المفضلة التي أدون خلالها أهم تفاصيل الأحداث، واللقاءات، والأشياء التي تخلق لدي حافزا قويا لتسجيلها أو الكتابة عنها، والتي تكون قد مرت بي أو عشتها خلال اليوم... وحتى عندما تنتابني حالة حزن فأنني أفرغ كل مشاعري التي لا أستطيع الإفصاح عنها صراحة، وأبوح بها إلى أعز رفيقين لي: الورق والقلم... فهما اللذان يحفظان أسراري إلى حين أقرر إخراجها، أو الإفصاح عنها...

[78] دول الخليج تقوم سنوياً باستيراد منتجات قيمتها ما يفوق الأربعة مليارات دولار تتوزع بين دول مجلس التعاون تنفق على التزين والزينة ومستحضرات التجميل وهذه المبالغ تفوق ميزانيات دول كثيرة تعاني شعوبها من الفقر المدقع فمعدل واردات الدول العربية وحدها من مستحضرات التجميل ارتفع بشكل كبير من سنة 2002 حيث بلغ 2.7 مليار دولار إلى أكثر من 4،6 مليار دولار سنة 2009

وعندما أعود بين وقت وآخر إلى تلك المفكرات أو اليوميات في دفاتري الكثيرة تمنحني الراحة، وتشعرني بالحنين إلى الماضي، بكل إيجابياته، وسلبياته، ففي هذه الدفاتر عصارة تجارب حياتي..ورأيي في أهم القضايا، الأحداث.. الأشخاص الذين عاصرتهم، وبعضها كنت من الصانعين لها بحكم الأدوار التي هيأتها الظروف لي في بلادي.. و أجد فيها اليوم حين أعود لقراءتها مادة غنية جدا.. وهي تجمع بين الانطباعات الشخصية، وعناصر السيرة الذاتية، وأهم أحداث العصر الذي لازلت أعيش فيه.. وقد دونت اغلبها وأهمها في مذكراتي.

وأنا استمتع كثيرا بالقراءة والكتابة، وبالسباحة، ولعبة الشدة، أو "البطة" كما نسميها في اليمن... لكن الكتابة تكاد تكون متعتي اليومية الوحيدة التي مازلت مواظباً على ممارستها دون انقطاع إلا فيما ندر بالإضافة إلى القراءة.

فيما مضي كان التدخين متعتي المفضلة.. هذا إذا اعتبرنا التدخين متعة في الأساس ولم تكن آفة.. بل كارثة.

كنت مدمناً سابقاً على التدخين بأنواعه، السيجارة، السيجار الكوبي، المداعة، الشيشة.. وأدخن في اليوم الواحد 100 سيجارة، وأحيانا 120 حتى أن أصابع يدي اليمني استحال لونها إلى الأصفر، ورئتي إلى الأسود، أما دمي فقد أشبع بالنكوتين..

وفي بعض الأحيان كنت أدخن نحو ثمانية عشر ساعة متواصلة في اليوم الواحد.. كان ذلك عندما كنت رئيساً ورئيسا للوزراء ووزيراً للدفاع في عدن، في سبعينيات وثمانيات القرن الماضي، حيث كانت تضغط عليَّ ظروف وهموم العمل والقضايا والمشاكل التي تواجه الدولة في اليمن الديمقراطية بقوة، وقد تعرضت لأكثر من حادث صحي، وقد منعني الأطباء من التدخين، وفى

النهاية تعرضت للخطر في عام 1997 م مما أضطرني إلى إجراء عملية دقيقة في القلب في لندن على يد الجراح المصري العالمي "مجدي يعقوب"[79]...

الدكتور مجدي يعقوب

وقد قدم لي مشكوراً الأستاذ ادريس حنبلة بعض الصور والمعلومات الذي أسس مركزاً صغيراً للتوثيق في منزله في الشيخ عثمان، ومعروف عن الاستاذ "حنبلة" أنه كان يهوى جمع الوثائق والصور وحتى علب السجائر التي كان يدخنها ويعدها ويحولها الى كروز (عروسة) ثم الى كراتين ثم الى حمولة سيارات، وهو يستشهد بذلك على الفترة الطويلة في حياته وهو يدخن لعشرات السنوات حتى توقف بسبب ما ألم به من التدخين الذي يعاني منه جميع المدخنين في العالم وهو يقول أنه من السهل على الانسان أن يتوقف عن التدخين ولكن من الصعب أن يواصل ويعود إلى التدخين مرة أُخرى.

[79] – مركز القلب فى أسوان، أسسه ويشرف عليه، جراح القلب العالمى «السير» مجدى يعقوب، ليكون ملاذاً لقلوب البسطاء وليكتب بمشرطه قصة نجاح وأمل جديدة على أرض مصر، وهو مؤسسة أهلية مصرية غير هادفة للربح، ويعتمد على التبرعات ويهدف إلى تقديم أفضل الخدمات الطبية المجانية للمرضى، خاصة الفئات الأقل حظاً، والأكثر احتياجاً، مع إعطاء اهتمام خاص للمرضى من الأطفال، ويعد أكبر مركز للأبحاث والتدريب والعلاج فى مجال أمراض القلب، ويقدم خدماته الطبية مجاناً لغير القادرين، خصوصاً للأطفال. وكان السيد مجدي يعقوب قد عرض علي عام 1998م دراسة لمثل هذا المشروع وتمويلها من قبل بعض المسؤولين العرب وبالفعل فقد عرضتها على بعض المسؤولين في الخليج ورفضوا اقامة هذا المشروع في اسوان ولكنهم رحبوا باقامته عندهم ولكن العظيم الدكتور مجدي يعقوب ورفض هو الاخر هذا العرض واقام المركز في اسوان حيث يجب ان يكون.

الشاعر ادريس حنبلة

كنت خلال عملي المرهق والمعقد هذا، والطويل أيضاً الذي يستحوذ على معظم وقتي، أغتنم ساعةً للسباحة، وكانت هذه الساعة أو ساعة نوم في القيلولة تعوضني كثيراً عن ساعات نومي القليلة في الليل، وتعيد إلي النشاط والحيوية، لاستئناف بقية مهامي وانشغالاتي اليومية المكثفة التي استمرت نحو 15 سنة تقريباً، والحقيقة أن ساعة السباحة قبل الغروب أو ساعة نوم القيلولة بعد الظهر كانتا تجعلاني في وضع أفضل للاستمتاع بعدها بإنجاز بقية اهتماماتي وتحقيق أهدافي، والحصول على الراحة والقسط الكافي من النوم والحياة السعيدة، التي لم يكن يعكر صفوها إلا المشاغل والمشاكل التي ترتبط في أغلبها بالصراعات بين الرفاق.. الصراعات التي أضاعت الكل وكانت من اسباب ماوصل اليه اليمن اليوم.

بعد قرابة الساعتين، وصلنا إلى "هانوفر" مدينة جميلة تكثر فيها البحيرات، ومولدات الطاقة الكهربائية بالرياح التي شاهدنا بعضها.. إلى جانبنا رجل ضخم، مفتول العضلات، زنداه وذراعاه وكفاه مليئة بالأوشام والكتابات والأرقام المخططة، مرقطة، منقطة، و بعضها يشبه جلد الثعبان...

والبعض وشم على كتفه علم وشعار النازية، اعتزازا بدورها في بناء قوة ألمانيا، وشن الحرب العالمية الثانية لتعزيز مكانتها في العالم، وأمثال هؤلاء لا يخشون من اتهامهم بالنازية.. وقد ظهرت بعض النزعات العنصرية والنازية خلال الفترة الأخيرة في ألمانيا التي يسمون فيها "بالنازيين الجدد" لكنهم غير مؤثرين في سياستها وحياتها، إذ تعتبر المانيا اليوم أقوى دولة في اوربا اقتصادياً، وهي التي أنقذت اليونان من الإفلاس الذي تعرضت له مؤخراً في عام 2012م.

نظر إلينا الشاب الضخم شزراً، وكأنه شعر بأننا كنا ننظر إليه أو نتحدث عنه، فقلت لمرافقي د.لؤي : لا تشيروا إليه فهو معجب بنفسه وضخامة عضلاته والوشم على يده، والخرصة في أذنه

ومازحت الدكتور لؤي:

احذروا هذا الرجل، فبوكس واحد منه كفيل برميك من القطار إلى البحيرة..!!

وكنا فعلا نمر بجانبها..

ضحك لؤي كعادته.. لكننا لم نتوقف عن الحديث عن هذا الشاب العملاق المفتول الساعدين والوشم الثعباني..

الطول والضخامة والوسامة ليست امورا غريبة في أوربا.. حيث يمتاز الرجال بالطول الفارع الذي يزيد عند بعضهم عن 1.95 مترا والمترين بسبب الجينات والتغذية الصحية، والرياضة، وتمتعهم بالصحة وخلوهم من كثير من الأمراض رفيقة الناس في العالم الثالث.

في اليمن يسحق الفقر والقات البشر والشجر والتربة ويضعف المناعة ويستهلك المياه الضرورية للزراعة، فقلت المحاصيل اللازمة للإنسان مثل القمح والحمضيات أو النقدية مثل البن والقطن.. وضعفت مناعة جسم الإنسان ففتكت به الأمراض، وسوء التغذية.

ويشكو كثير من اليمنيين من أمراض الكلي، أما بسبب مياه الشرب غير الصحية، أو بسبب الأتربة التي تعلق بأوراق القات التي يجري ابتلاعها بدون غسلها.. حيث يعتقد البعض انه إذا قام بغسل القات، فإنه يفقد مذاقه، وبالتالي يعطل مذاق المقيل ومزاج المخزن... ومؤخراً بسبب المبيدات الكيميائية.

كان للقات قبل تحديث طقوسه طقوس الخاصة وكان البعض يحرص عليها حتى وان كانت غير صحية، كشرب الماء مع القات من ملعقة واحدة، أو تناوله في غرف مغلقة بدون تهوية، أو التدخين من أرجيلة أو مداعة واحدة، يتبادلون خرطومها الطويل من فم إلى فم.. بعد أن يمسح البعض فم القصبة أو "البربيج" بطرف أصابعه، وتسليمها إلى الجالس بجانبه.. وهكذا يسهل انتقال العدوى أو المرض من شخص إلى أخر بسبب هذه العادة الذي لا يدرك البعض أضرارها عليهم.. في صنعاء وبعض المناطق الشمالية، يطلقون على "المداعة" (قحبة المقيل) لأنها تنتقل من شخص إلى أخر!! ولكنهم لا يعلمون خطورة الأمراض الصدرية والرئوية التي تنقل إليهم بسبب هذه العادة بالذات.. وهو ما يشبه الأمراض التي تنتقل عن طريق الدعارة والمومسات كالزهري والسيفلس والايدز.. وكلها ناقلة سريعة للامراض.

يعيش 60% من اليمنيين تحت خط الفقر وبعضهم يشحتون على أبواب الحكام في صنعاء وعند كل إشارة مرور وبعضهم يأكل من براميل الزبالة من دون أن تتوفر لهم أدنى

مقومات الحياة فلا طعام ولا صحة ولا تعليم[80].. وفي الوجه الآخر للعملة بعض السياسيين ومشايخ القبائل لايخجل من الشحاذة على أبواب ومجالس الحكام في الخليج مايعد اساءة كبيرة إلى اليمن وشعبه وتاريخه وإبائه. لقد أفسدهم حكام صنعاء وشجعوهم على هذا السلوك الذي تأباه القيم القبلية لكي يضعفهم ويذلهم بعد أن جرب ونجح في تقصير قاماتهم بنفسه عن طريق المال العام مال الشعب والرتب العسكرية والمناصب الوهمية والسلاح وتطبيق مبدأ فرق تسد. لكن ماتسمى بالحكومة الشرعية في الرياض برئاسة عبد ربه منصور هادي بين 2015 ونهاية 2018 اساءت لليمن شعبا وحكومة ورئيسا بل هي أسوأ من القيادة السابقة فهو مقيم في الرياض منذ بداية الحرب 2015 وأكدت الأمم المتحدة أنه بعد مضي ثلاثة أعوام من الحرب فان سلطة الحكومة الشرعية قد تآكلت لعدم سيطرة الرئيس هادي على الارض وسيطرة الحوثيين على صنعاء والمناطق الشمالية.

هذه المقارنة غير العادلة بين صحة الالمان والاوربيين، وصحة اليمنيين اضطرتني أن أخرج لبعض الوقت من سكة القطار إلى سكة القات والاحداث... وأبعدتني قليلاً عن الاستمتاع بمناظر وروعة الطبيعة من نافذة القطار المنطلق في سكته، والتي خطفت نظري منذ النظرة الأولى، لكن الوطن يظل في القلب حتى وإن بعد عنه المرء آلاف الكيلومترات... وسنين طويلة وعندما افكر بالوطن فأنا أضعه في حدقات عيوني وفؤادي لا أفرق بين شمال وجنوب، ويلح على قول شوقي في هذه اللحظة اكثر من اي شيء اخر : "وطني وان شغلت بالخلد عنه نازعتني إليه في الخلد نفسي".

يقطع حبل أفكاري وأنطباعاتي التي كنت أكتبها عن اليمن وهمومها موظف أو مفتش القطار الذي فتح باب مقصورتنا واخذ يسأل الركاب عن تذاكرهم كان جم التهذيب ويتحدث إلى الركاب رجالاً ونساءًا بلطف وأدب.

بعد قليل يدخل راكب إلى المقصورة شاب في العشرين من عمره تقريبا، أشقر، طويل الشعر، يضع سماعتين على أذنيه، غير مهتم بما يجري، ويبدو أنه كان يستمع إلى موسيقي أو أغاني شبابية في تلك الأثناء، ولقد رسم على ذقنه وشما أسود.. وربط على معصمه قطعة جلد موشاة بحلقات صغيرة.. وفي المعصم الآخر قطعة قماش حمراء، والى جانبها رباط أسود ملفوف بحبات تشبه المسبحة.. على ذراعه أثر جرح قديم.. ويضع في أذنيه حلقتين صغيرتين، ويلبس

[80] يبلغ متوسط الدخل السنوي للفرد في اليمن 1260 دولار وبمقارنة بسيطة نجد أن اليمن من أفقر الدول العربية فلا يقله في الدخل سوى الصومال وقطاع غزة.. بينما ومع ارتفاع اسعار النفط قفزت المدخولات بالنسبة لمواطني الخليج العربي فأحتلت قطر مثلاً الترتيب الآول عالميا في مستوى دخل الفرد الذي بلغ 88.222 ألف دولار بالسنة وحلت الأمارات سادساً بمستوى دخل بلغ 47.439 ألف دولار بالسنة

جاكتاً رمادياً من النوع الذي يلبسه الرياضيون، تاركاً صدره مفتوحاً.. ويبدو من هيئته تلك أنه شاب أزعر أو بلطجي.. أوعلى الأقل من النوع المشاكس وقد يكون انطباعي عنه غير صحيح[81].

نصحت مرافقي الودود ماهر أن لا يشير الى الشاب أو ينظر إليه حتى لا يثير حفيظته من حيث لا يقصد.. فلو وجه له لكمة او ضربة فإنه لن يتحملها.. فهو شاب خلوق ومسالم، لا يجيد إلا استخدام "الكمبيوتر" وكتابه الرسائل، والحديث فى "الفيس بوك" مع أصدقائه من الشباب والفتيات.

أحمرّ خداه وهو الخجول بطبعه وحبه للعمل، وسمَّر عينيه على الأرض بدل النظر الى ذلك الشاب الذي كان يضع تحت شفته السفلى دبوساً فضياً.. المهم أن شيئاً يثير حفيظة الشاب لم يحدث، فمر الموقف بسلام. بينما قطارنا السريع يواصل رحلته عبر سلسلة هضاب وجبال وأنفاق وجسور فى الطريق الى فرانكفورت.. قبل أن يبلغ محطته الأخيرة في زيورخ.

ألقيت نظرة نحو اليسار فاذا بمزيد من الغابات والبحيرات، وهو ما كنا نراه طول الطريق منذ بدء رحلتنا بالقطار من هامبورج.. كانت بحيرات حقيقية لا مجرد سراب، كما حدث لنا ذات يوم في صحراء حضرموت، ونحن فى طريقنا إلى العبر، انا وصديقي الرئيس الأثيوبي السابق منجستو هيلامريام لحضور مناورة عسكرية خلال زيارته لليمن الديمقراطية عام 1979م، وهو القادم من بلد مخضر يفيض بخيره من المياه على دول مجرى النيل حيث خدعته الصحراء التي كنا نجتازها فى الطريق الى موقع المناورة، بواحدة من خداعها المعروفة التي يحسبها الظمآن ماء.. فتهيأ لصديقي منجستو انه شاهد بحيرات ومياه.. فسألني مدهوشاً:

كيف هذا ونحن في الصحراء؟!!

أجبته:

انه سراب يا سيدي الرئيس.. سراب !!

فليس في هذه الصحراء قطرة ماء واحدة ناهيك عن وجود بحيرات فيها.. ويتنقل سكانها البدو من مكان إلى مكان جرياً وراء الماء والعشب.. ويصارعون الطبيعة القاسية لكي يتمكنوا من البقاء مع حيواناتهم القليلة..

[81] - يقول الأخ علي محسن حميد: أثناء مظاهرات 14 فبراير2003م في لندن للاعتراض على حرب بوش وبلير ضد العراق، التي شارك مع اسرته كلها فيها من الهايد بارك إلى ميدان الطرف الأغر أنه لاحظ شباباً لا تشير هيئاتهم ولا شعورهم ولا ملابسهم بأن لهم اهتمامات سياسية ومع هذا فالشكل في الغرب ليس هو الجوهر دائماً، ولا تحكم على الشكل وحده إلا مواطني دول الشكليات دون الجوهر والمضمون.

بدأ التأثر على الرئيس منجستو فقال: سأعطيكم أرضاً فى أثيوبيا تزرعونها... عندنا نحو 65 مليون كيلومتر قابله للزراعة، والمياه متوفرة بكثرة فيها..

وبالفعل أوفى بوعده، وأمر بإعطائنا 7000 هكتار من الأراضي الزراعية على بعد 200 كيلو من العاصمة أديس ابابا، وهي أراضي خصبة تحتوى على أنهار.. ونصت الاتفاقية بين البلدين على أن تكون 99% من الإنتاج لليمن الديمقراطية، وواحد فى المائة فقط لإثيوبيا، مقابل حق السيادة على الأرض، وليس الحصول على فائدة من زراعة الأرض.. وقد بدأنا زراعتها فور استلامنا لها، لكن استثمارها توقف بعد سنة 1986 م على إثر مغادرتي للسلطة في عدن كما علمت..

القطار يبدو كالثعبان.. وقد رأيت مقدمته من مقصورتي في المؤخرة أثناء انعطافاته والتواءاته في السلسلة الجبلية التي يمر بها..

وعندما هدأ من سرعته... كان ذلك إشارة إلى أننا اقتربنا من محطة جديدة هي فرانكفورت... لينطلق القطار بعدها مارا عبر جبال مكسوة بالأخضر طوال السنة... تتخللها الأنهار والبحيرات النظيفة.. وتنتصب فى قلب الجبال البيوت والفيلات الجميلة فمن ذا الذي تتاح له فرصة السكن في مكان كهذا ويرفض...؟!

أنهار بلداننا التي تأتي من تركيا، ومن بحيرة تانا بالهضبة الإثيوبية وبحيرة فكتوريا ليست بهذا النقاء والنظافة، فهي تحمل ما تحمل من الطمي والطين، وأحياناً بعض الملوثات ما يجعلها دون هذه الأنهار والبحيرات بمراحل، لكنها سبب للحياة فى مصر والسودان وسوريا والعراق... أما فى اليمن فإننا نعتمد على مياه الأمطار الموسمية، وعلى مياه الآبار الارتوازية.. وأحيانا يلجأالحكام والمواطنون إلى صلاة الاستسقاء للتقرب إلى الله عله يكرمهم بماء من عنده.. والله على كل شيء قدير..

فجأة يسود الظلام وكأننا دخلنا المساء، لكن ذلك لم يكن إلا لدقائق قليلة فقط، خرج بعدها القطار من النفق الذي دخله والذي تم شقه بين هذه الجبال لاختصار المسافة.. بقوة الإنسان وبعلمه وإبداعه، ورغبته، وحبه للحياة المريحة، رَوض الصخر، وتحدى الحجر، وطَّوع الزمن على معزوفة إرادته..

ها هو يخرج بنا من ذلك النفق الى قرية سويسرية جميلة.. يعتلي جسوراً معلقة، ترتفع إلى مستوى بيوت القرية، ويتوقف في إحدى محطاتها.. تصعد إليه ثلاث مسنات لم يكفن عن الكلام والثرثرة بصوت عال بالألمانية طوال ما تبقى من الرحلة كعادة العجائز في هذه السن...

البحيرات تتوالى صغيرة وكبيرة.. وكنت أراها على يساري وقطارنا ينطلق إلى لوزان[82] محطتنا الأَخيرة فيه، بينما سيواصل رحلته الى زيورخ[83] كما علمت...

في هذه المدينة التقيت قبل سبع سنوات بالسيد يحيى الحوثي، أحد أبناء السيد بدر الدين الحوثي "رحمه الله" وشقيق عبد الملك وحسين الحوثي وزير التربية والتعليم في حكومة الامر الواقع في صنعاء المكونة من انصار الله الحوثيين وجزء من المؤتمر الشعبي الموالي لصالح

وصلنا الى "كارلس هوها" ومن ثم الى "بادن بادن"[84]وهي منتجع صحي مشهور يزوره الأَثرياء والمرضى، وفيه مركز لإعادة تأهيل الجسم وإعادة الحياة الى ما عطب منه ويرتاده بعض العرب كما أخبرتنا السيده لبنى.. حرم وزير خارجية لبنان السابق جان عبيد.. ومنهم غازي باعشن، وحميد الأحمر، والثري المصري أنسي سوارس.. وتقع على مسافة ساعة من "بازل" أما "فراي يورج" فمدينة جميلة جداً وسكانها خليط من الجنسيات.. وبوسعك أن ترى فيها

---

[82]– **لوزان:** مدينة تقع بالجزء الناطق باللغة الفرنسية في سويسرا، وتقع على سواحل بحيرة جنيف، من المدن الشهيرة والجميلة في سويسرا وهي تبعد عن جنيف مسافه 60 كلم تقريبا وعلى الطريق بين المدينتين توجد مناظر خلابة حيث تكون بحيرة جنيف على اليمين وتكون التلال الخضراء والتي تتناثر عليها البيوت ذات القرميد الأحمر على اليسار وجبال الألب الشاهقه خلف البحيرة في منظر من أجمل المناظر الطبيعية على مستوى العالم. ويوجد بمدينة لوزان المتحف الأوليمبي الشهير وحديقة الحيوانات. وفي منطقة أوشي في وسط لوزان على ضفاف البحيرة توجد فنادق فخمة ومطاعم ومناطق رائعة للجلوس للاستمتاع بهواء البحيرة العليل وتناول المرطبات، وتُعدّ لوزان، ثاني أكبر مدينة سويسرية تقع على ضفاف بحيرة جنيف الشهيرة، حيث تجمع بين دينامكية المدينة التجارية مع موقعها المهم كمنتجع سياحي جذاب. وتعجُّ أيضاً عاصمة إقليم " فود" بالحركة والحيوية والنشاط بوجود جامعتها واستضافة المؤتمرات. كما أنّ الرياضة والثقافة تمنحان هذه العاصمة الأولمبية مكانة عالية ومرموقة.

[83]– **زيورخ Zürich: وتُلفظ تْسُوْرَخ بالفرنسية Zurich:** إحدى أهم مدن سويسرا وأكبرها على الإطلاق، تقع في وسط شمال البلاد على مقربة من الحدود الألمانية على بحيرة زيورخ، تشتهر المدينة بشركات الخدمات المصرفية والتي تصنّف الأفضل في العالم. وقد حصلت مدينة زيورخ السويسرية على أفضل مدينة للعيش في العالم لثلاثة أعوام على التوالي، تعد أفضل مدن العالم أمناً ونظافةً وهدوءاً والشي الجميل فيها هو جمعها بين الحاضر والماضي فالأبنية الموجودة فيها تعود إلى عدة قرون ويوجد فيها أكبر سوق للذهب وترتيب بورصتها هو الرابع من العالم بعد نيويورك ولندن وطوكيو، ويُصنف المعهد الفدرالي للتكنولوجيا "زورخك" ثالث أفضل جامعة في أوروبا بعد جامعتي كامبردج وأكسفرد تَعدُّ مدينة زيوريخ "عاصمة للخبرات" وتتميز بمحاذاتها للمياه، وبمنظر رائع من جبال الألب المغطى بالثلوج في الأفق. ويقدّم وسط مدينة زيوريخ في سويسرا مزيجاً فريداً من عوامل الجذب– إذ يوجد فيها أكثر من 50 متحفاً وأكثر من 100 من المعارض الفنية، والأزياء العالمية، والحياة الليلية الأكثر إثارة وحيوية في سويسرا. بالإضافة إلى مجموعة من الأنشطة الترفيهية والتي تتضح لدى زيارة الضفة ومناطق الاستحمام والسباحة على ضفاف البحيرة في قلب المدينة. تقدم زيوريخ مستوى معيشة عالي الجودة فمنذ عام 2002 وحتى عام 2008 صنفت مدينة زيوريخ من قبل "ميرسير" لاستشارات الموارد البشرية، 7 مرات على التوالي على أنها مدينة ذات الجودة الأعلى في المعيشة في العالم، واستند التحليل على مثل تلك المعايير كالسلامة والنظافة والفعاليات الثقافية والطعام والمناطق الترفيهية القريبة من بعضها.

[84]**بادن . بادن**Baden–Bade : بلدة ألمانية تعد من أشهر المنتجعات الصحية في العالم، تقع في الشمال الغربي من الغابة السوداء في ألمانيا، يبلغ عدد سكانها 54.855 نسمة (إحصائيات 2006). تعتبر المدينة من أجمل المدن السياحية الألمانية, وتشتهر بمياهها المعدنية. وقد استخدم الرومان هذه الينابيع قبل ألفي عام تقريبا. و يوجد فيها آثار حمام روماني قديم.

كل ألوان العيون: السوداء، الخضراء، الزرقاء، والشعر الأشقر والأسود كما كان يحدثنا عنها أحد الركاب..

ها نحن نقترب من مدينة "بازل" ربع ساعة فقط ونصل الى وجهتنا.. الغيوم.. وعلى جانب الطريق أشجار الكروم المزروعة فوق المدرجات تبحر فى المدى.. تملأني الحسرة على مدرجات اليمن التي كانت ذات يوم مزروعة بأشجار البن، والعنب وغيرها من المحاصيل الزراعية، وغدت اليوم (محتلة) من أشجار القات الذي يفترس كل شيء فيها... الإنسان والنبات!! ولعمري أنها سياسة ممنهجة اتبعها النظام في صنعاء لإلهاء الناس وانخراطهم في الأزمات المتلاحقة والتدهور الأخلاقي والقيمي والفساد، فقد كان مقيل القات في السابق نخبوي وأشبه بمنتدى للعلماء والمثقفين والشعراء في الأعم الأغلب قبل ان يصبح شعبويا يرتاده حتى الاطفال الذين لايكتفون بتعاطي القات بل يدخنون السجائر.

حضرني وأنا أمر بهذه الطبيعة الرائعة أبيات للشاعر الأمير أحمد فضل القمندان الذي يتحدث فيها عن سويسرا.. فقد كانت ثقافته العربية كبيرة جداً, وقد زار كثيراً من البلدان العربية والآسيوية.. لكنه كان يتهكم على سوء الأحوال في بلاده وقارنها بالأحوال في سويسرا.. فقد سأل أخاه العائد من سويسرا:

كيف أوروبا؟ وما شاهدتموه اسويسر لند وحش كاليمن؟!!

أجياعٌ أَعراةٌ أهلها في شقا جهل وبؤس ومحن؟!!

والقمندان شاعر مبدع أشتهر في العديد من الأغاني في ديوانه الشهير "المصدر المفيد في غناء لحج الجديد"، بالتغني بالطبيعة الجميلة والخلابة في لحج، وهو العارف بأسرار الأرض ومواسم الزرع والحصد.. وكان القمندان قد حَّول بستان الحسيني في شمال الحوطة في لحج الى جنة خاصة به زرع فيها كل أنواع الفواكه التي جلبها من أَسفاره الكثيرة وكان يتغزل بجمال حديقته وبفواكهها وبفلها وكاذيها وياسمينها.. ويقول:

يا ورد يا فل يا كاذي ويا ورد نرجس بس الجفا يا كحيل الطرف بس الجفا بس

حس الهوى لوّع الخاطر وحرق ومسمس ساعة من الزين لوجادت مزونة شفاني

وقد ابدع في ادائها المطرب فيصل علوي في لحن مليء بالحيوية.

مزارع الكرمة في بعض المرتفات التي كانت تمتد على مرمى النظر ومنها يجنون العنب التي يصنعون منها الخمور

وبهذا الصدد قال لي السفير علي محسن أحمد أن المرحوم السفير محسن الحنيفي أخبره بأنه كان يرافق وفودا اجنبية تزور صنعاء في الاشهر الاولى لثورة 26 سبتمبر1962 وكان يذهب بها الى وادي ضهر المشهور بخضرته وفواكهه التي تحولت مساحته في معظمها لزراعة القات ويقول لها منتشيا وفرحا (ولا في سويسرا) يعني أنها لم تجد مثل جماله وخضرته في سويسرا وبعد فترة عين في قنصلية الجمهورية العربية اليمنية في برلين الشرقية لجمهورية المانيا الديمقراطية وزار سويسرا وتذكر ماكان يقوله للوفود وأنه لايمكن مقارنة وادي ضهر بالجمال الشامل والمتنوع في سويسرا وألقى بعتابه على الجهل والعزلة التي عاشها اليمن واليمنييون من قبل الثورة وبعضها لم يغرب بعدها قيل عكس ذلك.

الساعة السابعة مساء يصل قطارنا السريع الي بازل[85] من محطة القطار نتوجه مباشرة الي فندق "Hotel Schweizerhoc Bosel"..

[85]– **مدينة بال:** بزلة أو بازل بالفرنسية تسمى بال، والإيطالية بازيليا، هي ثالث أكبر مدينة في سويسرا بعد زيورخ وجنيف، تقع على نهر الراين في شمالي غربي البلاد في كانتون مدينة بازلال ملاصق للحدود الألمانية والفرنسية، تعتز مدينة بازل بتقاليدها وثقافتها العريقة، وانفتاحها الحضاري، وتعد بازل أحد أهم مراكز الفن والموسيقا وفن الهندسة المعمارية في سويسرا؛ وذلك بفضل موقعها المركزي عند نقطة التقاء الحدود السويسرية الألمانية والفرنسية بمحاذاة نهر الراين، كما تعتبر هذه المدينة من المراكز الهامة لاستضافة المعارض والمؤتمرات. لبازل أقدم جامعة تعليمية في سويسرا (1460) ، كما أنها تعد مركزا مهما للصناعات الكيميائية والصيدلانية.

أمام فندق Hotel Schweizerhoc Bosel

فندق قديم يقع بالقرب من محطة القطارات والباصات وفندق هيلتون... والفندق من فئة الأربع نجوم، لكن مستوى نظافته وخدماته أفضل من فنادق خمس نجوم في كونبهاجن.. وقد أخبرني لؤي صالح مرافقي بالرحلة بأن موظفة الاستقبال اللطيفة أعطتنا بطاقات مجانية لركوب باصات المدينة طوال 48 ساعة.. وقد زرنا معظم معالمها التاريخية، والتقطنا لها الصور التذكارية..

مدينة المؤتمر الصهيوني الاول:

خلال زيارتي للمدينة، كنت حريصاً على زيارة "الكازينو" الذي عقد فيه أقطاب المؤتمر الصهيوني[86] اجتماعهم التاريخي في 29 أغسطس 1897 م... وقد شارك فيه شخصيات يهودية من 17 بلداً، على رأسهم "تيودورهرتزل" مؤسس الصهيونية وقد توفي في 1940م, حيث عقدوا اجتماعهم في صالة الحفلات الموسيقية في الكازينو، وكان قد حضر المؤتمر 204 مندوبين و46 مراقبا اختارتهم التجمعات اليهودية المختلفة على أساس جغرافي من اوروبا والولايات المتحدة الامريكية والجزائر. وآخرين شاركوا بصفة شخصية، يذكر هرتزل في مذكراته حين يتحدث عن هذا المؤتمر فيقول: "يمكن تلخيص ما حدث في هذا المؤتمر في جملة واحدة: أنني أسست دولة يهودية!" وأضاف: " إذا لم يحدث ذلك خلال خمس سنوات فإنه سيحدث حتماً بعد خمسين سنة".

المؤتمر الصهيوني الأول – بال سويسرا 1897م

وقد تحققت نُبوأته بالفعل بعد 51 سنة بالضبط، حين أعلن بن غوريون في 14 ايار – مايو سنة 1948 م من قاعة أحد المتاحف عن قيام الدولة الاسرائيلية... وكانت تلك الولادة

[86]– المؤتمرات الصهيونية: على امتداد قرن من الزمان بلغ عدد المؤتمرات الصهيونية ثلاثة وثلاثون مؤتمرا فى الفترة من 1897 حتى 1997.

للدولة المعلنة على أرض فلسطين العربية وليس فى أي مكان آخر.. ومن لحظتها ونحن نعيش ضياع فلسطين أو كما قال الشاعر العربي نزار قباني:

فليعلم الصغار حكاية الأرض التي ضيعها الكبار والأمم المتحدة

وجدنا صعوبة في الاستدلال على مكان الكازينو الذي عقد فيه المؤتمر الصهيوني العالمي الشهير... أو القاعة التي شهدت البداية لفكرة نشوء الدولة اليهودية وضياع فلسطين.

قال لنا البعض الذين سألناهم عنها، أنها في كازينو بالقرب من المطار..

ذهبنا إلى هناك دخلنا مبنى الكازينو، رحب بنا موظفو الاستعلامات.. وأشاروا الى قاعة اكتشفنا أنها ليست سوى قاعة للقمار!!

وكانوا قد نبهونا إلى أننا لا نرتدي بدلات رسمية.. أخبرناهم أننا نبحث عن الكازينو القديم من القرن التاسع عشر.. أعتذروا لنا بلطف وقالوا: هذا كازينو جديد، لكن هناك كازينو قديماً في المدينة بالقرب من الكنيسة.. بعد ساعتين من البحث، أستقلينا خلالها الباصات والتاكسيات دخلنا مبنى قيل لنا أنه المكان المقصود، لكنه كسابقه لم يكن سوى مكان للطعام ولعب القمار...

اعتذروا لنا وقال لنا أحد العاملين فيه: أن القاعة التي تريدونها تقع بالمبني المجاور..

دخلنا المدخل المجاور.. على أننا فوجئنا بأنه مبنى حديث أو جرى ترميمه وإعادة بناء بعض أجزائه...

سألناإحدى الموظفات في المكان عن القاعة الشهيرة...

أخبرتنا أن المكان والقاعة مغلقان... وأنه يجري التحضير مساء اليوم لحفل موسيقي..

لم نشأ أن نعود أدراجنا بعد كل ما عانيناه من تعب، وبذلناه من وقت دون رؤية ما جئنا من أجله.. تطوع الدكتور لؤي صالح أو "سالي" كما يحب أن يطلق على نفسه ليسهل على الفرنسيين نطق اسمه حيث لا يوجد فى لغتهم حرف الحاء (ح) كما هو الحال فى اللغة الروسية والأوكرانية والعبرية وعدد من اللغات الأخرى.. مثله مثل حرف الضاد.. وبهذا نكون أمة الضاد والحاء أيضاً!!! والحاء هو حرف لاوجود له أيضاً في الفارسية ولذلك يقول الإيرانيون: "اللهم صلي على مهمد وآل مهمد".. أي محمد (ص).

تطوع وقال للفتاه: "بأننا يهود من المغرب"، وقد جئنا لزيارة القاعة التاريخية، وأننا سنغادر المدينة بعد ساعة فقط.. ولا أدري كيف خطرت له هذه الفكرة التي فتحت أمامنا طاقة القدر كما يقال.

وضحك كعادته... كان يتحدث بالفرنسية لفتيات يتكلم معظمهن الألمانية ويبدو أن إحداهن أدركت ما كان يقوله، فقالت أنها سوف تتصل بالشخص المسؤول وترى ماذا بوسعها أن تفعل

وفعلاً جاء الرد بالموافقة... نزلت فتاه جميلة من الطابق الأول، واستقبلتنا عند باب القاعة الكبرى..

بعد أن قامت بالسلام علينا فتحت لنا الباب، فإذا بنا في قاعة المؤتمر الصهيوني الأول.. انفتحت علينا رائحة المؤامرة الصهيونية التي تناسلت منها مؤامرات أضاعت وطنا بأكمله اسمه فلسطين فيه أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين / القدس، وشردت شعباً بأسره من أرضه ووطنه، بالإضافة إلى ما قتلت وزهقت من أرواح خلال حروبها و مجازرها عبر الزمن الذي وجد فيه هذا الكيان المسمى إسرائيل.. التي ولدت هنا ذات يوم في آواخر القرن التاسع عشر من مجرد فكرة... سرعان ما غدت حركة ومؤامرة متعددة الاطراف والاهداف وأصبحت دولة عدوانية توسعية عنصرية واستيطانية.

القاعة، الجدران، الزخارف، المنصة كلها تحمل رائحة تلك المؤامرة الخبيثة، وتختزل أطماع أولئك الذين اجتمعوا هنا لإرساء البداية لاغتصاب وطن ليس وطنهم، وغرس رايتهم في أرض ليست أرضهم لكنهم كانوا يعرفون ما يريدون، وعملوا جهدهم لتحقيقه لإيجاد وطن لليهود ودولة فصلت الجسم العربي بالتآمر مع بعض الدول العربية والاقليمية والدولية.. التقطنا صوراً للمكان.. الجدران.. الزخارف، الألوان التي تغطيها..

عند خروجنا سألتنا الفتاه الجميلة.. لماذا لم تصوروا اللوحة التذكارية؟ وكانت تشير الى اللوحة! التي كتب عليها: المؤتمر الصهيوني الأول من 29 إلى 31 أغسطس 1897 م... باللغتين الألمانية والعبرية.. وعلى نفس اللوحة كتب: الدكتور ثيودورهرتزل 1860 – 1904 م..أي انه عاش 44 سنة فقط.. ولم يدرك تحقيق حلمه بقيام دولة يهودية كما رسم لها في ذلك المؤتمر الصهيوني الأول في مدينه بازل لكنه كما قال في مذكراته عن ذلك المؤتمر (لقد أسست دولة يهودية).. وقد كان!!!

كنت قد التقطت بعض الصور التذكارية بناء على نصيحة الفتاة التي دلتنا على اللوحة التاريخية للمؤتمر وغادرنا القاعة بسرعة كي نلحق بقطارنا الذي سيقلنا إلى لوزان.. لا ندري إذا ما كانوا قد اكتشفوا إننا لسنا يهوداً من المغرب كما زعم لهم الدكتور لؤي صالح.. لكن كذبته فتحت لنا باب القاعة التاريخية الشهيرة التي شهدت المؤتمر الصهيوني العالمي الأول.. الذي أتخذت فيه هذه القرارات، وبهذه المغامرة نكون العرب الوحيدين الذين دخلوا إلى هذه القاعة والتقطوا صورة للوحة التذكارية الخاصة بالمؤتمر أو المؤامرة الدولية على فلسطين.

لقد زار هذه المدينة مئات الآلاف من العرب منذ عام 1879 وعاش فيها الآلاف ولكن أحد لم يفكر أو يغامر بزيارة مقر المؤتمر الصهيوني الأول الذي ندفع ثمنا باهظا لما قرره حتى اليوم.

كان من قرارات المؤتمر تحقيق هدف صهيوني لنخبة يهودية محددة هو إقامة وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين بالوسائل التالية:

–تشجيع الهجرة اليهودية إلى فلسطين

–تنظيم اليهود وربطهم بالحركة الصهيونية

–إتخاذ السبل والتدابير للحصول على تأييد دول العالم للهدف الصهيوني (إعطاءه شرعية دولية)

– تشكيل المنظمة الصهيونية العالمية بقيادة (تيودور هرتزل)

– تشكيل الجهاز التنفيذي"الوكالة اليهودية" لتنفيذ قرارات المؤتمر ومهمتها جمع الأموال في صندوق قومي لشراء الأراضي وإرسال المُهاجرين لإقامة المستعمرات لليهود في فلسطين

قاوم الشعب الفلسطيني بكل ما يملك الاستيطان اليهودي، ولكن جواره العربي كان في سبات ولم يعمل ويتضامن مع فلسطين كما تضامن اليهود في شتى أنحاء العالم، وللأسف أن بعض العرب كانوا جزء من المخطط الدولي لسرقة فلسطين واغتصاب أرضها وتشريد شعبها وحتى جامعة الدول العربية منذ تأسيسها لم تقم بأي دور يذكر بشأن القدس والقضية الفلسطينية.

في قمة ليزان

عند الساعة الثانية وثلاث دقائق، تحرك قطارنا إلى مدينة أيجل أو (النسر)..

هذه هي المرة الأولى التي نستقل فيها القطار المخصص لتسلق الجبال الشاهقة.. الى ارتفاع 2500 مترا.. قطار مجنزر كما قيل وركوبه يحقق السعادة للمسافرين، اذ يتيح لهم رؤية المناظر من على ذلك الارتفاع خلال رحلة صعوده.. الجبال.. وفي الأسفل الأودية السحيقة.

وفي حين يعبر البعض عن سعادته برحلة كهذه، يلتزم البعض الآخر الصمت، أو تأخذهم الأحلام إلى آفاق أخرى أبعد أو أنه مع التعود على ركوب هذه القطارات لم تعد تثير فيه شيئاً بعد أن غدت وسيلة نقل مهمة للوصول إلى القرى والمنتجعات السياحية المنتشرة على هذه الجبال.. أحدهم قال إنها تستطيع الوصول إلى ارتفاع 3000 متر وسط ثلوج الشتاء!!.. هذه الرحلة التي كانت فيما مضى تستغرق يوماً أو يومين على ظهور البغال والحمير استبدلت بسكك الحديد المجنزرة.

من نافذة القطار المتسلق كنت أستطيع رؤية ذلك المدى من الجبال والوديان، وأطل على فضاء جماله لامتناه، فيرخي الكون أنفاسه ليلامس أهداب جسدي، ويندح الزمن على معزوفة الوقت..

القطار يرتفع فوق الجبال وفوق السحاب أحياناً وصعوده سهل وسلس، وعندما يصعد في كل هذا الارتفاع تشعر بعناء الذين أنجزوا هذه العملية أو الذين مهدوا السبيل لهذا القطار المتسلق، وربما كانوا لا يعرفون جيداً أية مهمة يفعلون.

نزلنا... لكننا لم نعرف الطريق إلى الفندق الذي حجزناه لإقامتنا عبر "الانترنت" فوراً.. بعد بحث طويل في الدليل السياحي، وجدنا عنوان الفندق الذي يقع خلف أحد الجبال البعيدة.. فعدنا أدراجنا من حيث أتينا الى مدينة "أيجل" ومنها الى "بيرال" الواقعة فوق إحدى الهضاب.. وتضم عدداً من المنتجعات والشالهيات وفنادق الخمس نجوم... ومع أن عدد السكان الأصليين لا يزيد عن ألفي نسمة لكن المدينة تتسع لآلاف السواح الذين يأتون إليه خصيصاً للتزلج في فصل الشتاء..

وصلنا الى فندق "شاليت رويال" تناولنا طعام العشاء وتوجهنا الى غرف نومنا التي سبق وحجزناها والمطلة على المنتجع.. الذي بتنا فيه ليلة واحدة فقط ونحن في طريقنا الى جينيف.. فباريس.

عند بزوغ أشعة الصباح الأولى أزحت الستائر وفتحت الشباك وخرجت الى الشرفة، أبصرت في السماء سحاباً وضباباً، ورذاذ مطر خفيف، الطقس جميل ورائع في هذا الوقت المبكر من الصباح بالرغم من أننا على أرتفاع أكثر من 1400 متروالهواء يغري بالقيام بنزهة على القدمين.. فقررت النزول لأمارس هوايتي المحببة في المشي.. الطريق خالية من السيارات والباصات.

فيرال مدينة يرتادها السواح فى الشتاء أكثر من الصيف.. هكذا قال لي رجل الاستعلامات التونسي في الفندق وهو يجول بي في هذه المدينة الصغيرة.. أهم ما لفت نظري في زيارتنا أنني علمت بأن هناك بعضاً من أولاد الأمراء السعوديين والكويتيين يتعلمون في مدرسة في فيرال،.. كما يقول التونسي.. هذه المدرسة تقع بين جنيف ولوزان وتطبق نظاماً صارماً مع طلابها، وقد أسست منذ مائة وعشرين عاماً ويرتادها طلاب من 75 دولة... وكما علمت فقد كان من طلابها الملك فؤاد ملك مصر،والعديد من أبناء الملوك والأمراء العرب والأجانب نظراً لما تتمتع به من سمعة عالية وإعداد للنخبة.. مساحة الأرض التي تشغلها المدرسة 35 هكتاراً تتوزع عليها مباني المدرسة، والملاعب والأقسام الداخلية الخاصة بالطلاب والطالبات وقاعات المحاضرات وصالات الموسيقي والمسرح وغير ذلك من الأنشطة..

انتهت زيارتنا إلى فيرال التي لم تكن سوى محطة قصيرة على الطريق، ومنها انطلقنا الى جنيف بسؤال: ماالذي ينقصنا لكي نؤسس مثل هذه المدارس النوذجية في البلدان العربية ومثلها المستشفيات الاوروبية التي تعج بالمتعالجين العرب فيما تذهب ثروات بلدانهم في شراء السلاح وبناء القصور الفارهة وسهرات المجون.

جنيف عاصمة السلام

جنيف مدينة سويسرية وهي عاصمة كانتون جنيف، تقع على النهاية الغربية لبحيرة جنيف، حيث ينبع نهر الرّون وتحيط بهذه المدينة الرائعة قمم جبال الألب[87] القريبة والتضاريس الجبلية في يورا مع تقاليدها الإنسانية ونزعتها المنفتحة على العالم. يبلغ عدد سكانها 109206 نسمة هي ثاني أكبر مدن سويسرا وأكبر مدن الجزء الناطق بالفرنسية.

كانت جنيف مقراً لعصبة الأمم (1920م وحتى حلها عام 1946م) بعد انشاء منظمة الأمم المتحدة UNITED NATIONs ORGANISATION التي وافقت على الانتداب البريطاني لفلسطين وانشاء وطن قومي لليهود فيها عام 1922م وارثر بلفور وزير خارجية بريطانيا صاحب وعد بلفور المشئوم عام 1917 هو الذي قدم مقترح بلاده لوضع فلسطين تحت الانتداب البريطاني وربط هذا الانتداب بتطبيق وعد بلفور. فيها أقدم منظمتين دوليتين هما الاتحاد البريدي العالمي والصليب الأحمر الدولي، ويوجد فيها المقر الاوروبي للأمم المتحدة ومنظمة العمل الدولية ومنظمة الصحة العالمية ومنظمة التجارة العالمية ومنظمة الملكية الفكرية والمنظمة الدولية للمقاييس ومنظمة حقوق الانسان ومنظمة الأمم المتحدة للتنمية الصناعية وغيرها.. وتعرف جنيف بأنها عاصمة السلام.

بالنسبة لنا نحن اليمنيين وخاصة مواطني جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية ترتبط جنيف بذكريات الاستقلال عام 1967م والمفاوضات مع البريطانيين، حيث أعلن وزير الخارجية البريطاني (جورج براون) في 14 نوفمبر 1967 أن بريطانيا على استعداد تام لمنح الاستقلال للجنوب في 30 نوفمبر 1967 وليس في 9 يناير 1968، كما كان مخططاً له سابقاً وعلى أثر ذلك توجه الوفد البريطاني ووفد الجبهة القومية[88] الى جنيف للمفاوضات بشأن استقلال الجنوب.

وقد حرصت على زيارة فندق انتركونتنتال الذي كان مقر اقامة وفد الجبهة القومية. رأس المفاوضات من الجانب اليمني قحطان محمد الشعبي وعضوية فيصل عبد اللطيف الشعبي وعبد الفتاح اسماعيل ومن الجانب البريطاني وزير المستعمرات اللورد شاكلتون، وقبيل إعلان الاستقلال بأيام احتضنت مدينة جنيف السويسرية جلسات مفاوضات الاستقلال التي استمرت ثمانية أيام متواصلة ابتداءً من 21 – 28 نوفمبر وفي يوم التاسع والعشرين من نوفمبر

[87]– جبال الألب: هي سلسلة جبال في أوروبا تمتد من النمسا وسلوفينيا شرقاً، مروراً بإيطاليا وسويسرا ولختنشتاين وألمانيا وحتى فرنسا غرباً. وكلمة ألب تعني أبيض باللغة اللاتينية. أعلى قمة في سلسلة الألب هي قمة مون بلا "montblanc" الواقع على الحدود الفرنسية–الإيطالية وتبلغ 4810 متراً. وهي ماركة شهيرة للأقلام والعطور وغيرها.

1967م توصل الوفدان إلى اتفاق يقضي بسحب القوات البريطانية [89]من عدن في 29 نوفمبر 1967م وغادرها الحاكم البريطاني همفري تريفليان الذي كان اخر حاكم بريطاني لعدن بعد احتلال دام نحو 129 عاماً كاملة وهو والد مراسلة الـ BBC لورا تريفليان حتى كتابة هذه السطور.

وفي 30 نوفمبر 1967 تم جلاء آخر جندي بريطاني عن مستعمرة عدن وإعلان قيام جمهورية اليمن الجنوبية الشعبية المستقلة.

علم مستعمرة عدن

وكانت أهم الوثائق التي صدرت عشية ذكرى الاستقلال مذكرة الاستقلال، والمذكرة المالية، والبلاغ الختامي اليمني الجنوبي – البريطاني المشترك، وكذا البلاغ الصادر عن الجانبين إثر الاجتماع الأول في 12نوفمبر 1967م، وقد وقعت الوثائق من قبل رئيسي الوفدين المناضل قحطان محمد الشعبي عن الجانب اليمني الجنوبي، واللورد شاكلتون عن الجانب البريطاني.

مفاوضات جنيف وعودة الوفد المفاوض من جنيف

[89]– عدد القوات البريطانية في عدن كان يبلغ 30000 عسكري، بينما جيش الجنوب العربي كان يحوي 15000 جندي. وكانت خسائر البريطانيين عند الانسحاب من عدن حوالي 500 جندي ما بين قتيل وجريح (قد لا يكون هذا الرقم دقيق).

فندق انتركونتينتال – جنيف

أمام بوابة المكتب الأوروبي لمنظمة الأمم المتحدة – جنيف

كما قمت بزيارة المقر الأوروبي للأمم المتحدة، الذي يتزين مدخله كما هو حال مقر الأمم المتحدة في نيويورك بأعلام الدول الأعضاء في المنظمة وعددهم 192 دوله أخرهم دولة جنوب السودان التي انفصلت في يناير من العام 2011م عن جمهورية السودان نتيجة للتميز والفساد والفهم الضيق للدين وعدم احترام عقيدة الآخر وثقافته ولكن العقلية الفردية والاستبدادية والشهوة للسلطة والنفوذ ادخلت الجنوب في حرب اهلية قبلية بين الرئيس ونائبه لم تتوقف رغم الكوارث التي نتجت في شعب كان متعطشا للعدالة والمساواة والحكم الرشيد. وقبل 43 عاماً رفع هنا سيف أحمد الضالعي وأحمد علي مسعد علم جمهورية اليمن الجنوبية الشعبية، وكان هذا يعني الاعتراف بها دولة مستقلة ذات سيادة وعضو في الأمم المتحدة.

احمد علي صنعه (على اليمين) مع سيف احمد حنالمي
بعد رفع علم اليمن الجنوبي على مقر الأمم المتحدة في جنيف

وقد لفت نظري إلى جانب مبنى الأمم المتحدة مجسم لكرسي ضخم مبتورة إحدى أرجله، تعبيرا عن معاناة ضحايا الألغام التي ما تزال موجودة من بقايا معارك الحرب العالمية الثانية، وفي اليمن وبعض الدول العربية والأجنبية هناك المئات بل الألاف من الالغام والقنابل العنقودية وغيرها من الاسلحة وهي من بقايا الحرب العالمية الثانية (كما هو حال الالغام التي لاتزال مدفونة في العلمين في مصر) والصراعات المسلحة التي جرت فيها واحتكمت اطراف الصراع إليها بدلاً من الاحتكام الى الحوار ودفع ثمنها الابرياء ولايزالون.

الكرسي المبتور نصب تذكاري يدعو الدول إلى مناهضة استخدام الألغام الأرضية ضدالأفراد، كما يحث الدول على الإنضمام إلى اتفاقية (أوتاوا) الدولية التي تحظر استخدام ذلك النوع من الأسلحة أثناء النزاعات المسلحة.

كما زرت ضريح الدوق شارلز الثاني الذي لجأ إلى جنيف وتوفى فيها، تقول القصة التاريخية أن الحاكم الالماني الدوق شارلز الثاني (دوق مدينة برونسفيك Duke of Brunswick) انتقل عام 1870م مع ثروة كبيرة للعيش في مدينة جنيف السويسرية، وكان يتنقل في سكنه بين ثلاثة فنادق تقع على ضفاف بحيرة جنيف منها فندق السلام (Hôtel de la Paix) وقبل وفاته عام

1873م تبرع بكل ثروته الكبيرة لبلدية مدينة جنيف بشرط أن يبنى له ضريح في نفس المكان الذي اختاره، ويعتبر الضريح ((Monument De Brunswick)) قطعة فنيه رفيعة تعكس الذوق الرفيع للفن المعماري في القرن التاسع عشر أما اسمه فقد اكتسبه من مقاطعة برونسويك الالمانية التي حكمها الدوق شارلز الثاني. وبالفعل تم الانتهاء من بناء الضريح في عام 1879م بتصميم منسوخ ومستوحى من شكل مشابه في إيطاليا لضريح من فيرونا لأسرة ايطالية تدعى اسكاليجي كما حدثني بذلك المستشار عبد الرحمن المسيبلي المقيم في جنيف والذي رافقنا في جولتنا في المدينة. وفي جنيف قضى الاستاذ أحمد محمد نعمان بقية حياته ، وكان النعمان الصانع الأول للقضية الوطنية وأول من رفع صوته هو ورفاقه ضد حكم الأئمة في بلد كانت المعارضة لنظام ديني مستحيلة وحالت المناطقية دون منح حقه من التقدير الذي يليق به وبنضاله وبتاريخيه الوطني الكبير . كما توفي فيها الوطني الشريف رئيس الوزراء الدكتور فرج بن غانم الذي رفض منظومة الفساد في صنعاء وآثر الأنسحاب من الحياة السياسية على أن يكون شريكاً كغيره في نظام لم يكن له مستقبل.

ضريح الدوق شارلز الثاني

عودة الى عاصمة الجمال

توجهنا بعد جنيف الى باريس عند الساعة السابعة و17 دقيقة مساء و برفقتي زوجتي د.ريم عبد الغني وابنتي ميسان وابن خالها فارس وسكرتيري الخاص ماهر حداد وصديقي لؤي

صالح غير أن خير رفيق في الدنيا وفي الطريق كان الكتاب... وصديقي في الرحلة هذه المرة كان مذكرات نوبار باشا التي كتبها بين نوفمبر 1890 م ومايو 1894 م باللغة الفرنسية في مدينة كان. نوبار باشا، من أصول أرمنية تقلد مناصب عديدة في حكومات مصرية متعاقبة عمل وزيرا للنقل والداخلية والخارجية وشغل منصب رئيس وزراء مصر سنة 1878 م واختلف مع الخديوي عباس وغادر الحكومة عام 1899 م ومصر في نفس العام الي فرنسا والنمسا، وتوفي في ذات السنة وكأنه لم يتحمل الصدمة.. صدمة تركه الحكومة، وصدمة مغادرته لمصر.. مصر الزمن الجميل لم تكن مصابة بطاعون التمييز ضد الاقليات وقد كرمته مصر بتسمية شارع كبير في قلب القاهرة باسمه.

بعد ثلاث ساعات ونصف ها نحن نصل الي مدينه النور باريس... حيث قضينا فيها عدة أيام وقمنا بزيارة اهم المعالم التاريخية التي لم نتمكن من زيارتها في الماضي كمتحف اللوفر في حديقة كرستوفر كولموبس ولكسمبورج وبولون وغيرها من الحدائق .

خمس ساعات الى "كان" (TGV)

استقليت القطار المتجه من باريس إلى "كان" عند الساعة الثالثة وخمس وأربعين دقيقة من بعد الظهر الثاني عشر من ايلول – سبتمبر، في رحلة تستغرق خمس ساعات وخمسة عشر دقيقة..

وصلنا إلى الفندق الذي نزلناه في زيارتنا السابقة إلى كان.. نفس الجناح .. نفس الإطلالة الرائعة على المسبح، وعلى الجبال الدائمة الإخضرار... ها أنذا مرة أخرى أمام نفس المناظر، التي مهما كانت جميلة ومذهلة سرعان ما تصبح مألوفة ومكررة وتشعرك أنك كنت هنا منذ سنوات وليست هذه زيارتك الثانية..

ها أنذا أقضي معظم الوقت في القراءة.. مذكرات نوبار باشا[90] التي كتبها في نفس المدينة، عدد صفحاتها تزيد عن الـ 700.. كتاب هام وموسوعي عن تاريخ تلك الفترة التي يتحدث عنها.. اذ رافق نوبار باشا محمد علي الكبير وإبراهيم باشا وإخوانه سعيد وعباس وتوفيق، كان شاهداً على أحداث وصراعات تلك الفترة الحافلة من تاريخ مصر التي حكمته أسرة محمد علي الألبانية التي تسمى في مصر بالأسرة العلوية حتى قيام ثورة 23 يوليو 1952م اختفى التمييز من ذلك الزمن الجميل ضد الاقليات ويمكن القول أن مصر سبقت الدول الأوروبية واميركا في تطبيق المواطنية المتساوية وتكافؤ الفرص الذي يعني الحق في تولي أعلى المناصب السياسية لاي مواطن بغض النظر عن اصله ودينه ولم يكن نوبار وحده اذ تولى منصب رئيس الوزراء في مصر بطرس غالي والد بطرس غالي امين عام الامم المتحدة الاسبق.

[90] بوغوص نوبار باشا 1240هـ.. 1825 م / 1317هـ1899م ، أول رئيس لوزراء مصر. شغل هذا المنصب 3 مرات، الأولى كانت من 28 أغسطس 1878 وحتى 23 فبراير1879م، كانت ثاني وزاراته من 10 يناير 1884 إلى 9 يونيو1888. وآخر وزاراته كانت في 15 أبريل 1894 حتى 12 نوفمبر1895 ، وله شارع كبير في القاهرة باسمه ويمتد من باب اللوق حتى قرب حي السيدة زينب

منذ عصر الفراعنة وحتى الخمسينات من القرن العشرين المنصرم لم تحكم مصر من قبل أبنائها المصريين، بل كانت دائماً تحت حكم الغزاة الأجانب أو السلالات الحاكمة التي جاءت من خارج مصر.. كان الزعيم جمال عبد الناصر أول حاكم مصري يحكمها بعد الثورة الذي قادها ضد آخر ملوك أسرة محمد علي.. الملك فاروق.

المصريون.. شعب حضاري عريق..طيب القلب ودود ومسالم وارضهم غنية بمواردها، إلى درجة أن عمرو بن العاص بعد فتحه لمصر كتب إلى الخليفة عمر بن الخطاب يقول "وجدت أرضها ذهب، ونساءها لُعب، ورجالها تبعاً لمن غلب ومع الاسف أن ابن العاص الذي جاء من الصحراء وكان يعيش وقبيلته في كنف الكعبة لم يتحدث عن الحضارة الفرعونية في مصر كالأهرامات وآثار مدينة طيبة بالاقصر وغيرها كما اهتم نابليون وبعثته بكتابة تاريخ مصر وبفك الحروف الهيروقلفية التي كانت مفتاحاً لمعرفة حضارة مصر العظيمة!"، لكن الحقيقة ليست كذلك دائماً، فالشعب المصري شعب راقي في اخلاقه وسام في قيمه وهو باني اهم الحضارات في تاريخ البشرية ومقاوم للغزاة عبر التاريخ كمقاومته لغزوات التتار المغول و للغزو الفرنسي بقيادة نابليون. وثورة عرابي ضد بريطانيا وثورة 1919م بقيادة الزعيم سعد زغلول كما أنه بقدر ما هو طيب وصبور، لديه القدرة على الثورة والغضب في وجه الظلم والطغيان.. عندما يفيض به الكيل. كما حدث في يوليو 1952م، و25 يناير2011م، وثورة 30 يونيو 2013م .

أجمل ما في مصر نيلها.. فمصر هبة النيل كما قال هيرودوت، فلا يمكنك أن تتصور القاهرة، أو مصر بدون هذا النهر العظيم اذا جفت منابعه لو قدر الله، وكيف كانت ستكون حياة المصريين بدونه.. إنه أهم ما يجري في أرض مصر.. ولا يمكنك أيضاً تصور مصر بدون الأهرامات التي بناها المصريون القدماء والتي تحدق في السماء.. وهي مقابر ملكية فرعونية مهيبة بنيت بتراتب فلكي عظيم ومع انها مقابر لكنها ترمز للخلود أكثر مما ترمز إلى الفناء!! وبسبب هذه الأهرامات وغيرها من الأوابد، والآثار الفرعونية، والمنحوتات والتماثيل نفذ بُناتها إلى حياتنا وعصرنا، لقد استحال فناء الفراعنة وعظمتهم إلى خلود نعيشه اليوم.. أحفاد هؤلاء الفراعنة

هم الذين شقوا قناة السويس[91] التي تربط بين البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر لتصبح واحدة من أهم الممرات المائية في العالم.

جاء في مذكرات نوبار باشا أن الحاكم في مصر جند مليون من أبناء مصر لشق القناة بالسُخرة، تم نقلهم من قراهم على حسابهم، وكان طعامهم أيضاً على نفقتهم لا على نفقة الحكومة، وكان هؤلاء يسيرون من قراهم نحو شهر أو أربعين يوماً للوصول إلى موقع الحفر، وكانوا يحفرون القناة في نفس الوقت الذي كانوا يحفرون فيه قبورهم!! وقد مات منهم أكثر من مئة وعشرين الف انسان خلال عمليات الحفر تحت ضربات الشمس والإنهاك والجوع.

ويؤكد نوبار باشا ان السخرة الحقت ضرراً كبيرا بالزراعة التي تاثرت بانصراف الناس الى اعمال السخرة على حساب المحاصيل الزراعية في مصر، وان الضرر أكثر من الفائدة لشق القناة التي يعود مردودها لصالح شركة قناة السويس ورئيسها المسيو فرديناند دي لسبس والذي طالب بان يطلق عليه أمير السويس. وقد رفض مثل هذا الطلب من قبل المسؤولين في مصر.

[91]قناة السويس: ممر مائي صناعي بطول 193 كم تمتد بين مدينتي بور سعيد على البحر الأبيض المتوسط والسويس على البحر الأحمر، تقسم القناة إلى قسمين، شمال وجنوب البحيرات المرّة تسمح القناة بعبور السفن القادمة من دول المتوسط وأوروبا وأمريكا الوصول إلى آسيا دون سلوك الطريق الطويل (طريق رأس الرجاء الصالح) استغرق شق قناة السويس 10 سنوات (1859 – 1869)، وبلغت إيرادات قناة السويس في عام 2010 نحو 4.8 مليار دولار أمريكي. وأكبر رسوم دفعتها سفينة للمرور في قناة السويس كانت 2 مليون و28 ألف دولار، ودفعتها سفينة إيطالية حمولتها 59 ألف طن عند عبورها للقناة في 7 سبتمبر 2011 وفي عام 2014 تم شق قناه ثانية والتي توفر فرصا استثمارية صناعية وخدمية وتستوعب سفنا أكبر ويبلغ دخل مصر السنوي من رسوم العبور 50 مليارات دولار قابلة للزيادة بعد شق الثانية

جاء في المذكرات أيضاً أن فرعون مصر نخاو (Nekao) خطرت له فكرة وصل البحرين عن طريق قناة قبل الدبلوماسي الفرنسي فرديناند دي لسبس[92].. ولكنه استشار أولاً كاهنة معبد دلفي اليونانية وتخلى عن مشروعه بعد أن جاءه رد الكاهنة بأن هذا العمل ستكون نتيجته تسليم البلاد إلى البرابرة وقد صدقت نبوءتها بعد عدة قرون بعد شق قناة السويس إذ سرعان ما أصبحت مصر هدفاً لغزو الفرنسيين والبريطانيين، وتحولت مصر إلى أكبر قاعدة أجنبية في الشرق الأوسط.. ولم تتحرر مصر من هذا الاحتلال الأجنبي إلا بعد ثورة 23 يوليو 1952 عندما أجلى جمال عبد الناصر القواعد البريطانية عن مصر وأمم قناة السويس عام 1956م لتعود القناة لملكية مصر مما استدعى عليها العدوان الثلاثي المشهور الذي اشتركت فيه كل من فرنسا وبريطانيا وإسرائيل في نفس العام والذي انتهى بهزيمة سياسية وفضيحة اخلاقية للدول الثلاث وخروج قواتها من أرض الكنانة.. وأحفاد هؤلاء الفراعنة هم الذين بنوا السد العالي في عهد زعيمهم الخالد جمال عبد الناصر بمساعدة سوفيتية.

نصحنا مدير الفندق الذي نقيم به في كان أن نزور "أنتيب" في موناكو.. يقال أن الاسم عربي أي "عنتيب".. لكن الأجانب ينطقون العين ألفاً نظراً لعدم وجود حرف العين في اللغة اللاتينية.. ومما يجدر ذكره أنه توجد مئات الكلمات العربية في اللغتين الفرنسية والانجليزية وغيرهما، كما توجد مئات الكلمات الاجنبية كالانجليزية والفرنسية والفارسية والتركية في المتداول من لغتنا العربية نتيجة التلاقي الثقافي بين الشعوب.

تجولنا في المدينة.. وتناولنا طعام العشاء في مطعم " بي كون"

أول ما لفت نظري عند دخولنا إليه صورة للملك السعودي الراحل فهد بن عبد العزيز، يتوسط شخصين آخرين غير معروفين.. في منتهى الأناقة، شعره الطويل يتدلى حتى مؤخرة رقبته، ولم تستطع الغترة والعقال فوق رأسه من تغطيته أو إخفائه. كما يبدو فقد ألتقطت له الصورة عندما

[92] **فرديناند دى لسبس:** دبلوماسي فرنسي صاحب مشروع حفر قناة السويس التي ربطت البحرين المتوسط والأحمر لأول مرة عام 1869 . وافتتحت في عهد الخديوي إسماعيل بعد العدوان الثلاثي الاسرائيلي الفرنسي البريطاني على مصر عام 1956 الذي يسمى في الغرب ب "حملة السويس" ازيل تمثال دي ليسبس من المكان الذي كان فيه قرب القناة وهناك من يطالب اليوم بإعادته الى مكانه.

كان لا يزال أميراً شاباً، وقبل أن يتولى حكم المملكة وكان يرتاد هذا المطعم.. كما أخبرنا صاحبه..

لم نعلم أن الجالس بجانبنا في المطعم إلى طاولة مليئة بالورود هو الأمير البيرت أمير موناكو شخصياً، وكان حوله عدد من الرجال والنساء الفاتنات، من بينهم إمرأة لبنانية تعيش في موناكو منذ 25 سنة، وهي التي كشفت لنا عن شخصية الأمير، وعن قربها من عائلته وكانت قد سمعتنا نتحدث العربية عندما كنا نتناول طعامنا قريباً من مائدة الأمير، وحين رأتنا نغادر المطعم سارعت الى لقائنا عند بوابة الخروج، وبدون سابق معرفة أخذت تحدثنا عن علاقاتها مع عائلة الأمير وبالإمارة..

مطعم "بي كون" لا يبعد عن قصر أمير موناكو إلا بنحو عشرين كيلو متراً، ويمتد على شاطيء طويل تغطيه الأشجار بكثافة إلى درجة أننا لم نر منه إلا اسمه عند اقرابنا منه .. وفي الرابع عشر من سبتمبر 2010 م قمنا بارتياد مطعم "شاتو العز" "قلعة العز".. كما يطلق عليه العرب.. مطعم جميل يطل على البحر وعلى سلسلة جبال مهيبة..

في 16 سبتمبر قمنا بزيارة الفالوريس وسامبول التي تطل على مناظر خلابة تأخذ بالألباب. أعداد كبيرة من السواح يسيرون في شوارعها وأزقتها الضيقة إما صاعدين أو هابطين، وسط سلسلة من المباني القديمة. اغتنمت فرصة وجودي فزرت عدداً من المعارض الفنية التي تحتوي على لوحات جميلة وتماثيل برونزية في غاية الاتقان.. كما تزخر سامبول بالمحلات التي تعرض وتبيع الهدايا التذكارية والملابس الشعبية وغيرهما، ولم يحل بيننا وبينها سوى هطول المطر وغروب الشمس...

انطلق بنا سائقنا عائداً بنا إلى مونت كارلو، لنتناول طعام العشاء في أحد مطاعمها المتواضعة بعد أن نصحنا السائق بذلك حيث حذرنا من الذهاب إلى المطاعم الغالية التي يوجد منها الكثير في الإمارة.. اخترنا مطعم آولى ديز ارتست، أو ضفة الفنانين، انتقينا نوعاً من الطعام أو الطعام الذي يناسب أذواقنا.. وبعد إشباع البطون كان علينا إشباع الفضول فمررنا بالكازينو، وفندق دي باري، وبمطعم آخر يقع أمام الكازينو.. ولم يتح لنا المطر الذي كان يهطل بغزارة فرصة النزول من السيارة لالتقاط الصور، فاكتفينا بمشاهدتها من خلف زجاج نافذة

السيارة. بينما السائق يشرح لنا أهم معالم المدينة، وقد نصحنا بزيارة قصر أمير موناكو وعندما وصلنا الى قلب الجبل الصغير برز عسكري أمام سيارتنا فتحدث اليه السائق عن رغبتنا بزيارة موناكو القديمة حيث يقع قصر الأمير فسمح لنا بذلك لكنه بالمقابل طلب إلينا ألَّا نتأخر وألَّا نتوقف بالسيارة.. فكان له ما أراد...

تجولنا قليلاً في المدينة القديمة، ومررنا بالقرب من قصر الأمير.. كانت المدينة خالية من المارة والزوار والحرس حيث أوى الناس إلى بيوتهم وأغلقوا محلاتهم بسبب المطر وتأخر الوقت اذ كانت الساعة تشير الى العاشرة مساءً.. فما كان منا سوى أن نغادرها نحن أيضاً.. ولكن الى " كان".. إلى فندقنا الجميل نوفوتيل حيث بتنا ليلتنا الأخيرة فيه..

وبعد ذلك توجهنا الى مدينة "نيس"من "كان" عبر الطريق البحري و تجولنا في الحي القديم على أقدامنا.. كانت هناك ساحة فسيحة لا يمر فيها الا الترام[93] الخاص بالحي والذي يقل الركاب الذين يقومون بجولة في أحياء المدينة لزيارة أهم معالمها

...

[93] - الترام: عرفت القاهرة الترام الذي تزامن انشاؤه فيها مع الترام البلجيكي في بروكسل، وبينما الترام البلجيكي لايزال في الخدمة اختفى ترام القاهرة في السبعينيات من القرن الماضي ولم يعد في الخدمة سوى "الترولي" في حي مصر الجديدة، كان الترام يصل القاهرة بحلوان، ومتروا القاهرة يسير حالياً على قضبانه التي فوق سطح الأرض.

وأثناء وقوفنا لالتقاط الصور التذكارية، لفت نظري رجل جالس فوق حقيبة ملابسه على طريق الترام، وكان الناس يتفرجون عليه ويشيرون اليه بالابتعاد عن الطريق ولكن دون جدوى...

بعد قليل وصلت سيارة البوليس، وترَّجل منها عدد من ضباط ورجال الشرطة، ودخلوا معه في حوار طويل لاقناعه بمغادرة المكان، اقتنع بعدها فقام مع ضابط البوليس، وساعده شرطي آخر بحمل حقيبته، بينما التقط الثالث "القنينة/ القاروة" التي كانت على الأرض ولم ينهره أحد على ما تحتويه او على مافعله. الشرطي هناك ليس من وظائفه القمع في غالب الأوقات.

الشاب الذي كان يجلس على ممر الترام .. احتجاجاً !!!!

برهة أخرى وجاءت سيارة بوليس ثانية.. هذه المرة كانت تقودها شرطية جميلة وإلى جانبها زميلة لها.. شرطية أيضاً.. نزلتا من السيارة ، وانضمتا إلى زملائهما لإقناع الرجل بالانتقال الى موقع جديد لأنّ فرقة موسيقية شعبية كما عرفنا سوف تعزف في المكان الذي يجلس فيه وكان لا يزال يمتنع، وبعد إلحاح وتأثير هاتين الشرطيتين الجميلتين قَبِلَ الانتقال الى رصيف آخر.. هكذا بكل هدوء.. بالحوار فقط وبدون تهديد، أو اعتقال ، أو إهانة من أي نوع .. حُلت المشكلة..

عَّلق مرافقي ماهر: "لو كان هذا الرجل في بلد عربي لأكل كفين (تطير له السكرة اذا كان سكران أو حتى وإن كان ليس سكران!)، لوضعوا في يديه كلبشات واخذوه لبيت خالته" أي الى السجن، ولن يخرج منه إلا الى بيت العائلة وليس الشارع الذي يتدلل فيه هذا الرجل ذو اللون الأسمر والشعر الأَجعد".. وحتى لو كان كذلك فهو مواطن فرنسي، وهذا سر قوته فهو يشعر بأن حريته وكرامته مُصانتان ولن يعتدي أو يتعدى عليهما أحد... بعكسنا نحن العرب وبلدان العالم الثالث عموماً، حيث لا كرامة للمواطن في وطنه، سواء ذاك الذي يجلس في الشارع أو من يسير فيه.. أو حتى للذي يقبع ذليلاً في بيته.. مع الأسف الشديد..

قال صديقنا الفرنسي جان مارك تيرابوسكي: في بعض الأحيان لا نفع للديمقراطية، ففي سبيل شخص واحد تتعطل مصالح العشرات إن لم نقل المئات على سبيل المثال وكله تحت مسمى الحرية والديمقراطية. ولعل هذا التعليق يثير تلك المقولة المعروفة عن أن حريتك تنتهي عندما تبدأ حرية الآخرين والتي تضع حداً فاصلاً مبهماً بين حريتك وحرية الآخر.

الأدهى من هذا.. أن إهانة المواطن في الوطن العربي لا يقوم بها رجال الأمن فقط.. بل في بعض البلدان كما هو حال اليمن فإن انتهاك حياة المواطن تصدر من أعلى مستويات الدولة.. أو من في بطانتها.. فالرئيس اليمني علي عبد الله صالح الذي حكم اليمن 33 عاماً قال للسفير الاميركي في صنعاء السيد جيرالد فايرستاين، اضربوا الشعب بالطائرات لمعالجة أزمة شبوة ومأرب وسأقول أنا الذي ضربتهم – حسب وثائق ويكليكس الشهيرة كما حدث في مجزرة المعجلة بمحافظة أبين في 2009/12/17م التي راح ضحيتها 62 شخصاً، أما الرئيس الذي خلفه فقد قال أن الطائرات الأميركية بدون طيار لا تطلع وتضرب إلا إذا أمضى هو بالموافقة على كل طلعة لقتل مواطنيه وقال: إنها اعجوبة عندما يشاهد الطائرة بدون طيار تطير وتقصف الذين ماتوا ولو حدث هذا في بلد اوروبي سيسقط هذا النظام حتى لو كان في اميركا نفسها. وموقف هذين الرئيسين يتناقض مع القسم الذي أدياه يوم تنصيبهما لحماية الشعب والزود عن السيادة الوطنية .

على شواطئ اللازوردي تنتشر الكثير من القصور والفلل الفخمة التي يمتلكها أثرياء العالم ومنهم اثرياء عرب، والكثير منها تعود لشخصيات خليجية، وفي صيف العام 2015م قرر الملك السعودي –الجديد– سلمان بن عبد العزيز أن يمضي اجازته السنوية –الصيفية– مع عائلته في قصره الخاص المطل على شاطئ ميراندول بجنوب فرنسا في كان، ولدى قيام اجهزة الأمن الفرنسية باجراء الترتيبات لاستقبال الملك اتخذت عددا من الاجراءات الامنية التي يجب عليهم اخذها ومنها : منع أي شخص من التوجه الى الشاطئ، وعممت السلطات البحرية قراراً يحظر الابحار حتى عمق 300 متر قبالة الفيلا التي تمتد على طول 1 كلم على الساحل في خليج جوان في منطقة فولاريس قرب مدينة كان، وقرار المنع هذا أو الاقتراب من الشاطئ اثار سخط رواده الذين اعربوا عن استيائهم من هذا القرار، متسائلين عن أهمية عامة الشعب بالنسبة للحكومة، ومن الذين اعترضوا على هذه الاجراءات رئيس بلدية المدينة، اضافة الى انتقاد

وسائل الاعلام العالمية لهذه التصرفات أو هذا البذخ الكبير حيث ذكر احد التقارير ان الملك سيزور فرنسا ويرافقه الف (1000) شخص تقريباً كما نشرت بعض الصحف الفرنسية كل ذلك يجري في ظل الحرب التي تشنها المملكة وحلفاؤها على اليمن وشعبها.

من كان إلى ميلانو

إنه يوم جميل، عندالساعة الواحدة ظهراً انطلقت سيارتنا من فندق نوفوتيل بكان الفرنسية في طريقنا إلى الحدود الايطالية..

محطتنا الأولى " فانجتيل" ومنها انطلق قطارنا عند الساعة الثالثة إلَّا دقيقتين, في طريقنا إلى ميلانو[94] في رحلة تستغرق عدة ساعات. وتيرة القطار لم تكن سريعة.. إذ عليه أن يمر بعدة مدن ومناطق منها: سان ريمو، امبريا، تورتانو، بافيا وكان يتوقف كثيراً لكن المناظر التي يمر بها خلال الرحلة في منتهى الجمال خاصة عندما يقترب من شاطيء البحر، حيث ترى الناس لا زالوا يسبحون، أو يتشمسون على الرمال في حالات تتعرى فيها الأجساد وتتستر بطريقة مثيرة ضمن فضاء لا تعرف إن كان يستر المرئي أو يكشف المخفي، قال الدكتور لؤي صالح: هناك شواطئ للعراة ويمنع دخولها كل من يلبس (مايوه) ويعتبر عيباً عندهم فقلت له: "العيب بالذي بيلبس أم العريان".. واتذكر أننا نزلنا قبل سنوات في ليستناو في النمسا بفندق يملكه رجل الاعمال الصديق غازي باعشن وكان غير مسموح لأحد الدخول الى غرف الساونا والبخار إلا

[94]ميلانو(Milano) تقع شمالي إيطاليا وعدد سكانها 1,308,000 نسمة وهي ثاني أكبر مدن إيطاليا بعد العاصمة روما، وتعد العاصمة الاقتصادية للبلاد. كما أنها عاصمة إقليم لومبارديا أكبر أقاليم البلاد الذي يصل عدد سكانه إلى حوالي تسعة ملايين ونصف المليون. ميلانو أيضا عاصمة لمقاطعة ميلانو. ومن أشهر المعالم التاريخية فيها "الدوميو" والذي يعتبر أحد أهم المباني في أوروبا وثالث أكبر كنيسة فيها. كما يوجد بها مبنى عريق وهو "قصر الكاستلو" وهي قلعة قديمة لها تاريخ عظيم كما يوجد بها دار الأوبيرا لا سكالا وهو من اعرق دور الأوبرا في أوروبا ميلانو مدينة عملية للغاية تتسم بالهمة والنشاط طوال الليل والنهار بها ثلاثة خطوط للمترو تربط المدينة بالكامل.. أشهر شوارعها هو شارع كورس بونس ايرس وهو شارع تجارى عريق لا ينام به أشهر الماركات العالمية من الملابس والأحذية والعطور والإكسسوارات واشهر أحياءالاجانب في ميلانو فيا بادوفا.

إذا كان عارياً ويعد مخجلاً أن يدخل الشخص بملابس الحمام، فكررت لصديقي: "العيب في اللباس أم العري" وضحك وقال: هنا العيب في الذي يلبس. وفي مثل هذه البلدان لايفكرون فيمن يلبس أو من يتعرى فهمومهم اخرى.

مقصورة القطار تتسع لستة أشخاص، يجلسون متقابلين، يخيم عليهم الصمت وإن تكلموا فلا يتكلمون إلا بهمس واذا تحدثوا في التلفون فإنهم يفعلون ذلك بصوت خافت يكاد لا يسمع أو يخرجون من المقصورة للحديث في الممرات احتراماً لمشاعر بقية الركاب على عسكنا نحن العرب الذين ترتفع اصواتنا بمناسبة وبدون مناسبة، ولا تحترم مشاعر الأخر وحاجته للهدوء هذا هو ما يطلق عليه التلوث السمعي عندنا ويضاف إلى تلوثات اخرى عديدة لم تسلم منها القيم والأخلاق والذمم.

خرق أحد المسافرين معنا، وهو عربي تونسي هدوء القطار.. وجدران الصمت..

أخذ يتحدث في الموبايل بصوت عالٍ جداً بحيث يسمعه كل الركاب في هذه المقصورة، دون أن يلقي بالاً لراحة المسافرين.. وعلق لؤي صالح ساخراً: ارفع صوتك يا أخي فقد ولى عهد الاستعمار والاستبداد!!

لم يخفض التونسي صوته أو يتوقف إلا بعد أن أحس أن كل الركاب قد سمعوا ما كان يقوله.. رأيت بعض الركاب الأوروبيين يتهامسون ممتعضين ومنزعجين من صوته المرتفع، رغم أنهم أو بعضهم على الأقل لم يكونوا يعرفون الى أية جنسية ينتمي، ولا بأية لغة يتحدث.. المهم أن صوته المرتفع قد سبب لهم منتهى الإزعاج لأن بعضهم كان نائماً وآخرون يقرأون كما هي عادة الاوروبيين.. وهو ما ليسوا معتادين عليه حيث صادر حقهم بالهدوء ولو لبعض الوقت.. لا أدري اذا ما كان صاحبنا قد خجل من نفسه، أو حتى شعر بالإحراج لأنه أنهى مكالمته دون أن يعتذر لِأُولئك الذين تسبب في ازعاجهم (وهذا ليس بمتوقع على أية حال).

بعد ساعتين وعشر دقائق توقف القطار في استراحة قصيرة لمدة عشرة دقائق في مدينة جنوى[95] التي تعتبر من الموانئ الهامة على المتوسط.. ثم انطلق من جديد عبر سلسلة جبلية

[95] **جنوة أو جينوفا Genova** مدينة وميناء بحري شمال إيطاليا، وهي عاصمة إقليم ليغوريا ومقاطعة جنوا.. حاضرة بحرية، ومدينة ذات تاريخ مجيد، وتقاليد عريقة وقوية متعلقة بالثقافة البحرية ليس بمنطقة البحر المتوسط فحسب، يبلغ عدد قاطنيها 611.949

وأنفاق يخترقها حتى أطلت هضبة خضراء.. كل شيء يتداخل الأراضي المسطحة، الأنهار والأبقار ومخلفات القمح والفلاحين الذين يستعدون لموسم جديد بالحرث والبذار قبل هطول أمطار الشتاء، كنت في قمة السعادة لهذه الرحلة فهذه هي زيارتي الأولى إلى ايطاليا، باستثناء زيارة يتيمة إلى روما ليوم واحد وللفاتيكان، أو دولة الفاتيكان التي سخر منها الزعيم السوفياتي ستالين ذات مرة متسائلاً: كم من الفرق العسكرية يمتلك البابا .. ؟! وقد انفجر سامعوه بالضحك، كان ستالين لا يؤمن سوى بالقوة والجبروت العسكري، فالسلاح هو الذي حسم الحرب العالمية الثانية وحقق النصر للحلفاء على النازية والفاشية.. لهذا لم يكن يؤمن بالقوة الروحية للفاتيكان والبابا، أو يضع لها اعتباراً أو يقيم لها وزناً في حسابات القوة والنفوذ! لكن تلك القوة الروحية هي التي اقتلعت الشيوعية بعد عقود من بولندا وبالتالي كل المعسكر الاشتراكي بمافي ذلك بلاد ستالين الاتحاد السوفييتي طبعا ضمن أشياء أخرى كثيرة.

عند وصولنا إلى ميلانو.. توقف القطار في محطتها الضخمة التي بنيت في القرن التاسع عشروتعتبر ثالث أكبر محطة في أوروبافهي تعج بالمسافرين القادمين والمغادرين.. الحركة لا تتوقف.. الكل يركض.. والقطارات تتحرك بدون توقف إلا لدقائق قليلة ريثما يهبط بعض الركاب ويصعد إليها ركاب جدد.. ومن يتأخر عن الموعد يفوته القطار وعليه أن ينتظر القطار التالي.. انه أشبه بقطار الحياة الذي لا يتوقف عن الحركة والجريان أيضاً.. القطار الأيطالي ليس كقطار علي عبدالله صالح وهو يتحدث ويهاجم المعارضه بمقولته الشهيرة "فاتكم القطار، فاتكم القطار... ياللعار" كان صالح يتحدث عن خلافه مع المعارضة في الشمال والجنوب بين عامي

نسمة.. تعد إحدى الأقطاب الاقتصادية الإيطالية الرئيسية، وميناءها في الفرع التجاري من المدينة هو اكبر ميناء في ايطاليا، ومن بين أكبر الموانئ بالبحر الأبيض المتوسط. أدرجت اليونسكو جزءاً من مركزها التاريخي في تموز يوليو من عام 2006 ضمن مواقع التراث العالمي.

2007 و 2011 التي أدت إلى تنحيه نهائياً في فبراير[96] من العام 2012 بعد عام من ثورة الشباب والتغيير التي اتت ضمن ما يسمى الربيع العربي.

هذه الحركة تذكرني بالمخزلين اليمنيين وقت الظهيرة حيث يتراكضون نحو محطة أو سوق القات (المقوات أو المقواته)، وهم في أشد حالات البهجة، فيبتاعون ربط أو حزم القات، وينطلقون وهم يتأبطونها أو يحملونها في أكياس نايلون أو بلاستيك، ثم يذهبون إلى "المقايل" فيلوكون أو يخزنون تلك النبتة الشيطانية وسط أجواء الدخان والثرثرة، وتمضي حياتهم هكذا، دون أن يعرفوا أنها تنسل منهم، أو لا زالوا يجترون ما تبقى منها وسط أصدقاء هرموا، وانهم يركبون قطار الموت الذي لا يتوقف إلا عند قبورهم وأكثرهم يموت في عز الشباب.. ومن حظي ببعض العمر كأن وجوهم وجوه اشباح تحاول استرداد حياتها من بعض زيت لا يزال يضيء.. قات، دخان، كسل وملل نفس الوجوه ، نفس المواضيع، انفاق ببذخ على القات وبخل في الانفاق على التعليم والصحة والسياحة وفقدان ثقافة الادخار للمستقبل.. انهم يسيرون بخطى سريعة نحو الموت، حياتهم تبدأ بالقات وتنتهي بالممات!! والسبب.. هذه الآفة التي أبتلي بها الشعب اليمني دون سائر الشعوب.. وتتسبب في دمار الإنسان، الأخلاق.. الصحة.. الأسرة.. والمجتمع.

---

[96]– في 27 فبراير قام الرئيس علي عبد الله صالح بتسليم السلطة رسمياً إلى نائبه عبد ربه منصور هادي في مراسم أقيمت في صنعاء بحضور دبلوماسيين أجانب وكبار الشخصيات اليمنية وذلك بعد تشكيل حكومة الوفاق الوطني مناصفة بين حزب المؤتمر الشعبي العام واحزاب المعارضة اللقاء المشترك برئاسة الاستاذ محمد سالم باسندوه رئيس المجلس الوطني للثورة الشبابية السلمية.

قال الرئيس علي عبد الله صالح أثناء تسليمه الرئاسة أن أهنئ أخي وزميلي لعبد ربه منصور هادي لانتخابه رئيسا للجمهورية وناشدا الجميع لدعمه من أجل الامن والاستقرار لليمن. وبدوره قال الرئيس عبد ربه منصور اننا نستقبل قيادة جديدة ونودع قيادة الرئيس صالح ...وارساء قواعد للتبادل السلمي للسلطة في اليمن . وأن نجتمع بعد عامين لنستقبل قيادة جديدة وأن اقف محل الرئيس علي عبد صالح لاستقبال الرئيس الجديد مكاني .

- بعد عامين من استلام السلطة لم يفي عبد ربه منصور بوعده واستمر في السلطة حتى 2017 وخلال هذه الفترة جرى تدمير البنية التحتية وتدمير المؤسسات المدنية والعسكرية وتدمير النسيج الاجتماعي في اليمن ولم يكن صادقا مع نفسه ولا شعبه .

في محطة ميلانو وجدنا بعض العرب من مصر والسودان وتونس والمغرب، وهم في العادة يقفون بالقرب من المحطة لمساعدة المسافرين العرب في الذهاب إلى المدينة، أو نقل الحقائب إلى سيارات التاكسي، والبعض منهم يشتغلون باعة على الأرصفة كما شاهدتهم في قلب المدينة...

أخبرني أحد الأخوة المصريين أنهم هنا بالالآف، حيث يأتون بدعوة من أقاربهم الذين سبقوهم إلى الهجرة وبعضهم يجري تهريبهم بطرق غير شرعية ويتعرضون خلال هذه المغامرة للنصب أو الغرق في البحر أو يقعون بقبضة خفر السواحل الذين يكونون لهم بالمرصاد ويحتجزونهم أو يعيدونهم إلى أوطانهم، وهذا حال كل العرب الفقراء الذين يحلمون بالهجرة الى جنة اوروبا هرباً من جحيم بلادهم وأعدادهم في تزايد مثلهم مثل الجاليات الهندية والسنغالية.. هذه الحالة التي وصل اليها العرب اليوم بعد أن كانوا يأتون الى اوروبا فاتحين او ناقلين للعلم والحضارة التي لازالت اطلال الاندلس وصقيلية ومالطا شاهدة عليها[97] بعد اربع سنوات من هذه الذكريات عن الهجرة الى اوروبا قرأت العمود اليومي للكاتب سمير عطا الله بعنوان عرب

[97]– يقدر عدد المهاجرين العرب في الدول الأجنبية بنحو 40 مليون عربي، أي في أوروبا وأميركا الشمالية والجنوبية واستراليا غير المهاجرين العرب الذين يعملون في الدول العربية، ويشكل السوريين واللبنانيين الجزء الأكبر منهم بنحو 15 مليون مهاج ثم المصريين بعشرة ملايين مهاجرر، يليهم المغاربة الذين يصل عددهم بنحو 3 ملايين مهاجر، ثم والتونسيين 1.5 مليون لكل منهما، إضافة إلى مليون سوداني.

الاحفاد.... وعرب الزهو[98] ولأهمية ما جاء فيه ولعلاقته بذكرياتنا عن هذه الرحلة وهجرة العرب الى اوروبا فسوف أضيفه الى هذا الكتاب لما له من فائدة للقارئ

كل يوم هناك مشهد الفقراء العرب الذين يحاولون التسلل إلى موانئ أوروبا خبرا شبه يومي. وأوروبا مع مراكبهم القديمة التي يغرق بعضها بسبب الحمولة الزائدة والعواصف قبل الوصول الى اليابسة. ولست أدري ماذا حدث. فما أعرفه أن أجداد هؤلاء العاثرين جاءوا أوروبا فرسانا أو علماء. وكان الفارق في علوم الطبابة بين العرب وأوروبا ثلاثة قرون على الأقل. وفي القاهرة كان مستشفاها الرئيس في القرن الثالث عشر يضم 8 آلاف سرير وأجنحة لجميع الأمراض بينها العقلية. وما هو أهم من كل ذلك أن مصر سلمت إدارة المستشفى إلى العالم الدمشقي ابن النفيس الذي وضع أول تصور للعلاقة بين القلب وجهاز التنفس. ولم يلحق به الأوروبيون إلا بعد 350 عاما مستفيدين من علمه وتجاربه.

بقي اكتشاف ابن النفيس بالنسبة إلى الطب الحديث في أهمية الصفر[99] الذي أضافه الخوارزمي إلى علم الحساب. وما عرف بعصور النهضة فيما بعد بني الكثير منه على ما أسسه علماء العرب والإسلام. وفي كل مدينة أوروبية قطنها المسلمون أثر من أثر علمي كبير. من قرطبة إلى مرسيليا إلى ساليرنو إلى صقلية.

تمتلئ هذه المدن اليوم بعرب بلا عمل وأحيانا بلا مأوى. أناس غاضبون جاءوا يستردون شيئا من رصيد الأجداد. يتأملون تقدم الغرب ويتأملون عجزهم ويرون أن الحل الوحيد هو إحراق كل ما هو أمامهم.

---

[98]– مقالة "عرب الاحفاد.... عرب الزهو" للكاتب سمير عطا الله نشرت في جريدة الشرق الاوسط بتاريخ 4 يوليو 2012وقد تعودت منذ سنوات على قراءة عموده اليومي وهي الجريدة التي ابدأ بقراءتها من الصفحة الاخيرة ومن العمود الذي يكتبه الاستاذ القدير سمير عطا الله.

[99] – قال المرحوم "روبن كوك" وزير خارجية بريطانيا الذي استقال من منصبه قبل حرب العراق احتجاجاً على اشتراك بريطانيا في العدوان على العراق "أنه لولا اختراع العرب للصفر لما امكن اختراع الكومبيوتر"، وللمرحوم "كوك" موقف نبيل عندما وقف في جبل ابو غنيم في الضفة وهو يقول للمستوطنيين الاسرائيليين: "هذه أرض محتلة" وقد قاطعت الحكومة الاسرائيلية ويومها كان نتنياهو هو رئيس الوزراء مأدبة عشاء اقامتها السفارة البريطانية في تل أبيب على شرفه بمناسبة زيارته لاسرائيل. وللمفارقة فقد احتفلت رئيسة وزراء بريطانيا تريز اماي بمرور 100 عام على وعد بلفور وقالت ان بريطانيا فخورة بهذا

القرون الماضية كانت قرون الحلم لا اليأس، والعلوم لا التخلف والعقل النقدي وليس النقل والبحث العلمي والتعليمي. كان سيلفستر الثاني أول بابا فرنسي في الفاتيكان. وقبل أن يتوفى عام 1003 أقر بأهمية دور المسلمين في الطب والعلوم الأخرى، وتبنى للمرة الأولى الرقم العربي بعدما رمى جانبا تعقيدات الترقيم اللاتيني. تقدمت أوروبا في القرن الثاني عشر عندما بدأت تترجم منجزات الحضارة العربية والاسلامية عندما هاجر علماء من إيطاليا وبريطانيا إلى الأندلس لكي يدرسوا العربية وينقلوا علومها. ونشطت حركة الترجمة، سرا وعلنا، حتى أصبحت قاعدة التقدم العلمي الاوروبي في القرن الثالث عشر وما تلاه. وأعطي العلماء العرب أسماء لاتينية لكي يسهل على طلاب المعرفة حفظها وتمييزها.

يصل العرب بعد مجازفة قد تؤدي بهم الى الموت اليوم إلى شواطئ أوروبا على بواخر التهريب والموت. يأتون من بلدان لم يعد أحد يترجم علومها، ومن مدن وعواصم لم تعد جامعاتها معاهد للعلم وصروحا للمعرفة. نتوقف ونلطم، ماذا حدث لنا؟ بلاد لاجئة في الخارج ومحترقة في الداخل. مدن يحرقها العدو مرة ويحرقها الشقيق كل يوم. وشعب يفر إلى الخارج بالملايين، بأسماله أو أمواله، وعندما يصل إلى الشواطئ يتذكر أسماء أجداده.) انتهى

وكتبت الدكتورة المهندسة ريم عبد الغني[100] عن هجرة الشباب العربي ماسمته "موسم الهجرة الى الهلاك" مايلي:

" مجدعدنان رشا معاذ في الوسط... أنا وزوجي من الجانبين...
أتامل الصورة...
ابتسامات الأربعة متسعة... رسمها فرح حقيقي..
حقائب صغيرة فوق ظهورهم فيها قليل من الضروريات..
أحذية رياضية لسير رحلة طويلة متوقعة..
شلال شمس الصباح أم الإيمان بالآتي الجميل هو ما سكب في عيونهم ذاك البريق الملفت؟..
هو ما جمعهم هنا اليوم على كل حال...

[100] من كتاب شظايا غربة للكاتبة الدكتورة المهندسة ريم عبد الغني

محفظة تكاد تتسع لجواز سفر مشدودة بحزام حول وسط عدنان... ثلاثيني بارع في مجال الحاسوب... موهوب في مجال صناعة افلام الاطفال، تكاثف عمله حين بدأت سوريا تتسلق قمة الدراما والتلفزيونات العربية.... لكن كل شيء انهار بمجيء الحرب... توقفت كل المشاريع.. وتفرقت الخبرات.. وهربت رؤوس الأموال.. ومعها أصدقاؤه الذين هاجروا.. شجعوه أن يبحر مثلهم غرباً..

سماعات موسيقى حول رقبة رشا.. ابنة السابعة والعشرين ترى الحياة القادمة بتفاؤل من خلال نظارتها الطبية.. تمنحها مظهراً اكثر جدية من حقيقتها.. فياضة بالامل والحماس... كان صعباً لخريجة الأدب الإنكليزي في ظروف الحرب أن تجد عملاً مناسباً في دمشق... وبعد خيبة أمل من تجربة عمل أشهر في قطر ... قررت أن تتجه غرباً...

معاذ أخوها الأصغر.. خريج اقتصاد.. شاب وسيم.. يرتدي نظارات طبية هو الآخر.. قامته الممشوقة لا تتناسب وبراءة وجهه..... قليل الكلام ... لكنني فهمت من رشا أنه قرر مرافقتها غربا، لا لأنه لم يجد عملاً في البلد فحسب .. بل خوفا من رصاصة طائشة أو وشاية مغرض أو قذيفة تناست هدفها...

مجد أصغرهم في العشرين ويريد أن يكون رجلا بسرعة... خريج المعهد الهندسي يجسد بساطة وطيبة أهل اللاذقية... ورغم أن الحرب لم تطل اللاذقية نظرياً بعد والحمدلله.. لكنها لا تمنحه الأمل بأي مستقبل يتيح له تكوين دعامة بيت او أسرة... خاصة وغلاء الحرب الفاحش ..أضف إلى أنه سيطلب قريباً للخدمة العسكرية وهو لا يريد أن يموت الآن ... والأهم أنه لا يريد أن يموت في حرب غبية لن تنتهي إلا فوق أنقاض سورية...إذاً.. مجد قرر أن يبمم شطر الغرب ايضاً..

يبدون سعداء كأطفال على وشك البدء بنزهة تمنوها طويلا..

ولكن .. إلى أين في الغرب؟..

يجيبني عدنان "أي مكان يقبل السوريين الهاربين من هول الحرب وما أكثرهم.. السويد.. الدانمارك.. هولندا.. المانيا.. أوغيرها.. من وصل هناك أخبرنا..

قالوا ستصلون وتخبرونهم كيف أتيتم وسيمنحونكم المأوى ورواتب شهرية في مجمعات متواضعة.. كلها بضعة اشهر.. ثم.. ستزهر الدنيا أمامكم... جوازات سفر اجنبية واقامات قد تعقبها جنسية غربية.. وعمل ..و..و.

أقاطعه بقلق ولكن.. الله اعلم كم يكون ذلك حقيقياً.. وكم نسبة من انطبق عليهم هذا ممن هاجروا ووصلوا أرض الميعاد...

ونسبة من" وصلوا" حقاً... ففي الطريق أهوال تبتلع كثيراً منهم ..

عدنان قائد الفريق الذي – بالإضافة لرشا ومعاذ ومجد– يضم اثنين آخرين كنان وخالد ينتظرونهم في مطار بيروت ليغادروا معاً... يتكلم بثقة وكأنها رمية حجر,, "

أخبرنا الوسطاء –والوسطاء هنا هم مهربو البشر– أن كل شيء مرتب ومدروس.. ولذا سنعطيهم المال الذي طلبوه..

سنستقل الطائرة أولا إلى الجزائر.. ما زالت الجزائر دون غيرها تسمح بدخول السوريين دون تأشيرات دخول وانتظار مذل امام السفارات... الشرط الوحيد أن تملك حداً معلوماً من المال وورقة تثبت حجز فندق ولو كان وهمياً ..

"ومن هناك سينقلوننا بباصات مريحة عبر صحراء ليبيا كي لا نعبر تونس التي لا تمنح تأشيراتها لنا.. ومن ميناء زوارة سنبحر فوق مركب إلى شواطئ ايطاليا.. الصليب الأحمر سينقلنا إلى ميلانو....

ومن هناك سيتجه كل منا إلى البلد الذي يريد...

سمعت جدتي رحمها الله تجيب بصوتي: "انشالله يجي حساب الحقل عحساب البيدر"

****

نودعهم عند الباب...الله معكم.. لترافقكم السلامة...

رشا تحضنني بمحبة حقيقية... أشعر بنبضها موجات القلق ... يتولاني مزيج من الإعجاب بشجاعتها والخوف عليها.. والحسرة على بلدي الذي يفقد المزيد من أولاده كل يوم...

أشد على يد مجد اذكره ان لا ينقاد في طرق لا توصله الى حيث يأمل والديه الذين دفعا كل ما اقتصداه عشرين عاما.. ثمنا لعبوره الى البر الذي سيرمي منه اطواق النجاة لهما ولاخيه الاصغر..

امازح عدنان ان لا يدع شقراوات اوروبا ينسينه زوجته الصغيرة وابنه الذي لم يتجاوز العام وامه واخته .. رجل البيت ليس لهما سواه منذ توفي والده قبل سنوات..

معاذ انتبه على رشا... عدنان اوصيك بهم انت اكبرهم...

السيارة تغيب وراء الدموع.. قبل ابتعادها...

***

عبثاً احاول التركيز على الكتاب امامي..

لا تفارقني صور وجوههم... ترى أين وصلوا ؟؟

مضت أيام... أخيرا.. رسالة قصيرة على جوالي طمأنتني ...وصلوا الجزائر...وتحركوا نحو الصحراء الليبية خلسة...

يا لسخرية القدر... نحن؟ أبناء بلد رفض فرض تأشيرات دخول على أي عربي... فتح قلبه لكل العرب... نتحول إلى جرذان تتسلل خلسة عبر حدودهم؟ وليس للمأوى، بل للعبور فقط.. يا حسرتي..

أتصل بندى.. أم مجد.. لعل لديها اخباراً جديدة.. من بين شهقات بكائها أفهم أنها لم تعرف أكثر هي الأخرى ...

ماذا لو ابتلعتهم الصحراء أو قتلهم الحادي أو غرق بهم المركب ؟ لا

لا...لا اريد أن أتخيلهم يموتون في ذروة الشباب بينما ينتهي ذووهم في قاع الحزن..

*****

"روزانات" الموت

لم أعرف معنى كلمة الروزانا.. إلا قبل سنوات فقط.. واليوم... أشعر بنبض لحنها المتوارث الحزين .. فقد نكست أخبار رحلة مجد ورفاقه وتداعياتها جرح الروزانا الكامن في لاوعيي.. سكنتني.. ووجدتني أدندن في سري: عالروزانا ع الروزانا, كل الهنا فيها

شو عملت الروزانا , الله يجازيها

دندنتها ليلة البارحة ودندتها.. بصوت خفيض.. دندنتها حتى بكيت مع هؤلاء. الذين كانوا ينتظرون بلهفة سفينة "روزانا" الإيطالية تقترب ببطء من شاطيء بيروت., قبل اكثر من قرن.. آملين أنها ستحمل الفرج والقمح بعد المجاعة القاسية التي حلت بهم .. وأن اطفالهم سيملؤون أخيراً بطونهم الخاوية .. بكيت معهم انكسارهم لحظة وصول الروزانا الملأى.. بالتفاح.. ظلوا جياعاً وكسد محصولهم من التفاح.. ومنع أصحاب المصالح تصديره.. فهربوه الى حلب تحت عناقيد العنب..

من يومها وسفينة "الروازنا" تعني الغربة، فقد كانت وسيلة نقل رئيسية لهجرة شبان بلاد الشام إلى الغرب وامريكا... ضمن دفقات هجرة من قبلها وبعدها هرباً من الحروب والمجاعات والفقر...

مـات كثيـرون قبـل أن يصـلوا..ومن وصـلوا نجحـوا غالبـاً.. فـأولاد بلادنـا عمومـاً مشـهود لهـم بالكفاءة.. حتى ترأس أحفادهم بعض دول أمريكا أو مؤسساتها الضخمة..

أثمرت بذورهم في أرض الغرباء... وذبلت للأسف في أرضنا أشجارهم الأم....

من حنين الغربة وحرقة الأشواق وألم الفراق... ولدت مواويل "العتابا" و"الروزانا"، وتجذرت في لاوعينا، حتى صرنا "نشعرها" ولو لم نعرف بدقة معاني كلماتها..

دندنتها كأنني أستحضرهم... مجد وعدنان ورفاقهم ركاب "روزانات" الموت الذين يهربهم تجار البشر كل يوم عبر الجزائر وليبيا ومصر وتونس إلى سواحل أوروبا... في الحلق غصة مستقبلي ال" روزانا" قبل مئة سنة... مقرونة بالقهر والأسى بعد ما حل بمجد ورفاقه...

****

تابعت الضغط على مفتاح الحاسوب بتردد... كنت أقلب الصور المنشورة تحت عنوان: "الناجون من غرق مركب للمهاجرين السوريين غير الشرعيين في المياه الإقليمية الإيطالية". 24-8-2014 ".

هل نجوا؟ هل سأجد صورهم يحملون أرقاما كبقية الذين أُنقذوا من الغرق مساء البارحة ؟ غرق 150 شخص... معظمهم من السوريين..

يعلـق "لا أحـد" بغبـاء: " خبـر جيـد...نجا 350 مـنهم"... كـم صـارت حياتنـا نحـن السـوريون رخيصة..

بكيت طويلا عندما عثرت على صورهم أخيراً... وجوههم متورمة من البكاء وساعات الانتظار في مياه البحر... قبل ان تنقذهم البوارج الإيطالية التي استنتجدوا بها...

أصدقاء الرحلة الستة بقي منهم أربعة... هاهي صور عدنان ومجد ورشا ومعاذ.. أما كنان وخالد وحيد أبويه، فما زالا في عداد المفقودين... حتى كتابة هذه السطور...

صبر الله أهاليهم...

بوصول البارجة تعالى الصياح وانهمرت الدموع!! دموع فرح من وجد أقرباءه,,, ودموع حزن من لم يجدهم... وللأسف كنا من الفريق الثاني.... البعض أغمي عليه... كأبي سامر الذي فقد كل

أولاده.. والبعض أخذ يضرب نفسه.. كان معنا شاب فقد أخواته البنات... وآخر فقد زوجته... الكثيرون فقدوا أولادهم... حالات يُدمى لها القلب...

لأيام انتظرنا.. لعلّ قوارب أخرى تحمل المزيد من الناجين... لكن... للأسف لم يأت أحد... وسائل الإعلام تناقلت صور وحكايات الكارثة... لكنها لم ترو إلا القليل.. كقصة الطفلة ميرا التي فقدت كل عائلتها... والرجل الدمشقي الذي فقد زوجته وبناته الثلاث... والطفل عمر كرمو الذي بحث بين الجثث عن الشاب الذي أنقذه قبل أن يبتلعه الموج... قصص تقشعر لها الأبدان.. روت شجاعة الشباب السوريين، الذين تحول بعضهم إلى فرقة انقاذ... وغرق معظمهم... رحمة الله عليهم.. ما كان أشجعهم..

كنان وخالد في الوسط هم الذين فقدو في الرحلة

بعد أن أخذت الشرطة الإيطالية الصور والمعلومات، تم نقلنا إلى مخيم للمبيت... وبعد أيام غادر كل منا حيث شاء... غادرت ورشا ومعاذ إلى روما بالباص (يعتلي الباص عبّارة في البحر بين جزيرة صقلية وشبه الجزيرة الإيطالية) ثم إلى ميلانو بالقطار.. ثم إلى الدانمارك بسيارة أجرة.. وهناك استقر عدنان.. ثم بالقطار إلى السويد حيث نسكن الآن في تجمعات خاصة باللاجئين، نتعلم اللغة.. ونستعد لبدء حياة جديدة.. بإنتظار أن نُمنح في الشهور القادمة إقامة وعملاً.. وحين تنتهي الحرب... بالتأكيد سنعود..

" انتهى الاقتباس

رحم الله العرب

ورغم أن نزار قباني توفي –لحسن حظه– قبل عواصف الشتاء العربي، لكنه كان"يرى" عصر الانحطاط العربي الحديث..الذي طال حتى ليبدو بلا نهاية...

ومع أنه لم يرافق المهاجرين السوريين في تلك الرحلة المرعبة بين الجزائر وصحراء ليبيا إلى الشاطيء الذي سيبحرون منه إلى إيطاليا بصورة يدعونها غير شرعية (والأدق "غير إنسانية") فقد كان "يرى" بالتأكيد حين قال:

لا تسافر بجوازٍ عربي.. بين أحياء العرب
فهم من أجل قرش يقتلونك..
وهم –حين يجوعون مساء– يأكلونك
لا تكن ضيفًا على حاتم طي
فهو كذاب.. ونصاب..
فلا تخدعك آلاف الجواري..
وصناديق الذهب ..
يا صديقي :
لا تسر وحدك ليلًا ..
بين أنياب العرب ..
يا صديقي :
رحم الله العرب!!!

وبعد هذه الذكريات عن الهجرات الحديثة نعود الى الحديث الذي بدأناه عن رحلتنا الى ميلانو:

أما على ضفاف القنوات في قلب المدينة فتنتشر المطاعم التي تقدم الوجبات الوطنية المكونة من الرز واللحم والكمة على الطريقة الميلانية... وكان فندق "جراند فسكاونت بلاس" الذي يعد تحفة رائعة من الفن المعماري القديم، يقع في أطراف المدينة، ويطل على حديقة جميلة..

أثناء تناولنا للطعام في أحدها التقيت بشاب مغربي من مدينة الرباط برفقة صديقته الإيطالية، بمجرد أن راءنا وعرف أننا عرب أخذ بالحديث إلينا عن البلاد العربية.. يبدو أن الحنين قد شده إليها، فهو كما أخبرني من مواليد هولندا، لكنه لا يزال يتكلم العربية وإن بطريقة ركيكة، إذ يجد صعوبة في نطق بعض الأحرف والكلمات, وقد رأيته يجهد نفسه كثيراً وهو يحاول تذكر بعض الكلمات والجمل ليواصل الحديث بالعربية معنا.. ولكنه كان سعيداً وفخوراً بانتمائه العربي برغم الصعوبة التي يجدها في التعبير بلغته الأم، وبرغم آلاف الكيلومترات التي تفصله عن الرباط...

بعد تناول العشاء تجولنا سيرا على الاقدام لأكثر من ساعة ونصف في أحياء المدينة الملتهبة بحماسة الشباب.. يرقصون.. يغنون... يضحكون.. يتحدثون بأصوات صاخبة على الطريقة –الايطالية– العربية، مزهوين بأنفسهم وبالحياة التي يعيشونها دون أن تغادر وجوههم ابتسامات الرضا وضحكات المرح. وأنا أراهم أتحسر على حال الشباب في بلادنا، باحباطاتهم ومعاناتهم وانسداد الأفق أمامهم بسبب الفساد والمحسوبية والمناطقية والحروب وأحلامهم التي لا تتحقق في الغالب، والحكومات اللاهية عنهم بتكديس المليارات المسروقة بالبنوك الأجنبية، والبطالة التي يعيشونها وفرص العيش الكريم التي تضيق أمامهم بل تنعدم.. الأمر الذي يدفع كثيرين منهم الى الهجرة بحثاً عن حال أفضل.

زيارة كاتدرائية ميلانو

في الصباح انطلقنا في جولة جديدة إلى بعض أحياء المدينة للتعرف إلى معالمها.. زرنا كاتدرائية ميلانو[101] أو Duomo di Milano.. تحفة معمارية في غاية الجمال والروعة.. أجمل من كنيسة "نوتردام" في باريس.. و تفوقها جمالاً وكمالاً وروعة وكيف لا تكون كذلك وايطاليا كرسي الكاثوليكية وبها الفاتيكان، وترمز إلى عصر النهضة والقوة وجبروت الحكام في تلك الفترة المزدهرة من حياة ايطاليا.

كاتدرائية ميلانو

[101]– **كاتدرائية ميلانو – Duomo di Milano:** كنيسة كاتدرائية في ميلانو في لومبارديا في شمال إيطاليا .مخصصة لسانتا ماريا ناسينتي و هي مقر رئيس أساقفة ميلانو الحالي الكاردينال ديونيجي تيتامانزي. بدأ بناؤها في العام 1386م ولم ينته البناء بشكله الكامل إلا عام 1856م حين توج فيها نابليون بونابارت ملكاً لايطاليا..

هذه الأوابد والآثار العظيمة التي تبقى مدى الدهر لايبنيها الا رجال دولة يشجعون العلم والفن ودول ذات قوة وبأس وقوم أشداء.. فأهرامات مصر خلدت الفراعنة بصروح لايزال العالم حائرا أمام أسرارها.. وسور الصين العظيم الذي بناه أباطرة الصين كي يحموا بلدهم من غزو المغول القادمين من الشرق وهو البناء الوحيد من صنع البشر الذي يمكن أن تراه من سطح القمر.. وحتى الحب يستطيع الإنسان أن يخلده ببناء عظيم كتاج محل[102] الذي هو ضريح ممتاز محل زوجة الامبراطور المغولي شاه جيهان الذي بناها تخليداً لذكراها.. وهنا اتذكر ما قاله الشاعر المرحوم حسين المحضار عند زيارتنا لتاج محل عام 1981م وكان متأثراً بهذا الصرح الجميل وجاء في قصيدته التي ارتجلها مباشرة وهو يشير باصبعه الى التاج:

التاج أعظم أثر في الهند خالد

من حب حد سار له راكع و ساجد

وإن مات يبني على مثواه مبنى رفيع

يقول لؤي صالح بهذا الشأن بأن الإنسان يخلد بطريقتين.. أعماله الصالحة والأولاد الصالحين الذين يحملون اسمه.

مالم ؟!.. مالم فإنهم سينتهون من الذاكرة ومن التاريخ !

الكاتدرائية تعج بالزوار الذين جاءوا مثلنا لمشاهدة (الفرجة) على جمالها المعماري الفريد، وبالمصلين، وبالتائبين الذين جاءوا لتنظيف ضمائرهم من ذنوبهم.. البعض في حالة جلوس يقرأ الانجيل والبعض جالس على ركبتيه ويرفع يده إلى السماء طلباً للتوبة والمغفرة.. وآخرون يشعلون الشموع تقرباً إلى الله.. أن يسامحهم على أخطائهم، ويغفر لهم ذنوبهم..

[102]– تاج محل: بدأ بناؤه في العام 1630م وانتهى 1658م يتعرض تاج محل لحملة كراهية تقوم بها عناصر هندوسية يمنية متطرفة ترى في احدى عجائب العالم السبع رمزا لفترة اذلال اسلامي للهند وبالقرب من تاج محل تبني منظمات هندوسية متطرفة بناء ينافس تاج محل في عمارته وعظمته ولكن سيكون للتاريخ القول والفصل.

وكعادته فإن لؤي حتى في مثل هذه اللحظات الروحانية يجد نكته ليرويها، قال إنه سمع البعض يتداولها في سورية عن خوري كان ينصح النساء عندما يأتينه للإعتراف بخيانتهن الزوجية ألا يلفظن كلمة "خيانة" أثناء الاعتراف، بل يستبدلنها بكلمة (زحطت[103]) أي تزحلقت وذلك تخفيفاً لهن من الشعور بالذنب وعظم الجريمة. بعد مدة مات الخوري وخلفه في منصبه الكنسي خوري جديد لم يكن على علم بالسر الذي بين سابقه ونساء القرية، فجاء إليه بعض النسوة للاعتراف له بأنهن زحطنَّ، أو تزحلقن.. استغرب الخوري الجديد الأمر، ولم يفطن إلى ما كانت النسوة يرمين

[103] - زحطت: قريبة من الكلمة اليمنية سحطت.

إليه من أنهن يزنين ويخن أزواجهن.. جمع سكان القرية ومدير البلدية وقال لهم: إن النساء يتزحلطن، فلماذا لا تصلح الطرقات يا مدير البلدية؟!

ضحك الجميع، بما فيهم رئيس البلدية الذي كان يعلم ما تعنيه كلمة زحلطة .. غضب الخوري وقال لرئيس البلدية:

- لماذا تضحك...؟ فزوجتك تزحلطت ثلاث مرات خلال هذا الأسبوع فقط ؟!!

بحيرة كومو – ايطاليا وهي تشبه حرف (Y) بحيرة الارستقراطيين والمشاهير

من ميلانو الى ميونخ

الواحدة والنصف ظهراً، من جديد ينطلق بنا القطار من ميلانو الى زيورخ، ومنها إلى ميونخ.. وقد مررنا ببحيرة "كومو"[104] على الحدود الايطالية السويسرية التي دخلناها بعد ساعة وأربعين دقيقة... كل شيء جميل.. الأرض، الطقس، الجبال الخضراء، البيوت على جانبي الطريق.. بحيرة "مندريو" وعلى ضفتيها تنتصب الفلل والمنازل الجميلة متوجة بالقرميد الأحمر.. اتتبع المناظر والأمكنة بخطى طفل مسحور.. والقطار يجتاز بنا جسراً معلقاً على البحيرة، وهنا تذكرت قصيدة شاعر "الجندول" علي محمود طه التي تحمل عنوان "بحيرة كومو" نسبة الى هذه البحيرة الرائعة ويقول فيها :

هيئي الكأس و الـوتـر　　تلك كومو مدى النّظر

فإلى الــنّجـم مــرتقى　　و إلى السّحب منحدر

البحيــرات و الــجبال　　توشّـــحن بالشّـــجر

و عـبـرنا رحـــابـها　　فأشـــارت لـمن عبـر

شاعر النّيل طف بها　　غـنّـهـا كـلّ مـبتكـر

أما نحن فلم نطف بها وانما عبرنا رحابها فاشارت لمن عبر كما قال الشاعر علي محمود طه.

وعلى اليمين تمتد مدينة "لوجانو"[105].. الأخ الاريتيري الجالس بالقرب منا قال إن الضفة الأخرى الواقعة على اليمين، تابعة لايطاليا، وأنه جاء لزيارة أحد أقاربه في "لوجانو".. وهذا الإسم

---

[104] – **بحيرة كومو Lago di Como:** بحيرة جليدية في لومبارديا بإيطاليا تبلغ مساحتها 146 كيلومتر مربع ، مما يجعلها ثالث أكبر بحيرة في إيطاليا، بعد بحيرة غارداو وبحيرة ماجيوري ويبلغ عمق البحيرة أكثر من 400 متر (1320 قدما) وهي واحدة من أعمق البحيرات في أوروبامنها أكثر من 200 متر (656 قدم) تحت مستوى سطح البحر. ترجع شعبية بحيرة كومو أساسا للأرستقراطيين والأغنياء الذين قدموا إليها منذ العصور الرومانية، وهي الآن نقطة جذب سياحي شهير وتضم العديد من الأحجار الكريمة والفنية والثقافية. ضفاف البحيرة شهيرة بالفلل والقصور العديدة مثل فيلا أولمو فيلا كارلوتا وحاليا العديد من المشاهير يمتلكون أو امتلكوا في السابق منازل على ضفاف بحيرة كومو أمثال مادونا، جورج كلوني، رونالدينهو، سيلفستر ستالون، ماثيو بيلامي، جياني فيرساتشي، بين سبايز. وبحيرة كومو تعتبر على نطاق واحدة من أجمل البحيرات في إيطاليا.

[105] – **لوغانو:** مدينة في سويسرا أيضا تبعد عن مدينة ميلانو الايطالية 70 كم و من انتر لاكن 120 كم و من جنيف حوالي 300 كم مدينة تتسم بالهدوء بالإضافة إلى جمال شوارعها و أزقتها وهي المدينة الأكبر في المنطقة لقضاء العطلات وهي ثالث أهم مركز مالي

يشبه اسم بحيرة في اثيوبيا تسمى لنجانو التي تكثر فيها الطيور ويجب أن يغادرها الزائر قبل حلول الظلام لئلا يصاب بمكروه بشري وهي من أجمل البحيرات في الهضبة الاثيوبية. لم يتح لنا الوقت لندخل معه في تفاصيل تلك المناطق التي يبدو أنه يعرفها إذ نزل من القطار بعد أن ودعنا..

لوغانو ... "حسناء جبال الالب"

بين فينة وأخرى يتوقف القطار، لكن دون أن نشعر بالملل.. كل شيء متوفر فيه.. الأكل، الشرب، الانترنت، الأصدقاء، والبعض من الركاب يصطحبون صديقاتهم... أعداد كبيرة من الإيطاليين والسويسريين متوجهين الى ميونخ[106] لحضور عيد البيرة أو (أكتوبر فيستيفال)[107]،

وتنظم فيها المعارض الدولية والمؤتمرات بالاضافة الى أنها تتمتع بطبيعة خلابة وفيها العديد من حدائق الزهور، والفيلات والمباني المقدسة. ويخدم المدينة مطار داخلي هو مطار لوغانوالذي لا يبعد عنها سوى 4 كيلومترات.

[106]– **ميونخ أو ميونيخ München مينشن بالالمانية:** ثالث أكبر مدن ألمانيا وعاصمة ولاية بافاريا. تقع المدينة في جنوب ألمانيا على نهر إيزار على بعد حوالي ساعة بالسيارة من جبال الألب. تدعى أحيانا بالعاصمة الخفية لألمانيا. يبلغ عدد سكانها الذين يعيشون ضمن حدود المدينة حوالي 1.31 مليون نسمة. موقعها المميز في وسط أوروبا، جعلها عبر التاريخ محطة ومركزاً مهماً في القارة . اليوم تشكل ميونخ باقتصادها، إحدى أغنى مدن ألمانيا وأقواها اقتصاداً. بها مقر عدد من الشركات والمصانع الألمانية المهمة، أهمها شركة السيارات بي إم دبليو (BMW) ، وشركة التأمين "أليانز"، شركة سيمينز للكهربائيات والاتصالات وشركة "مان" لصناعة المركبات الثقيلة. هي أيضا مركز مهم للموضة والثقافة والأدب في ألمانيا، حيث بها مقر عدد من محطات التلفزة والإذاعة وحوالي 300 دار نشر. يزورها سنويا حوالي ستة ملايين سائح. حسب الإحصاءات بالألمانية، فإن ميونخ تعد المدينة المفضلة الأولى للمعيشة في ألمانيا.

[107]– **مهرجان أكتوبر، اكتوبر فيستيفال** (أو مهرجان البيرة) في ميونيخ – معروف من قبل السكان المحليين باسم "Wiesn"، هو أكبر مهرجان للعامة في العالم، بدأ كل شيء عندما قرر ولي العهد لودفيج، الذي سيصبح في وقت لاحق الملك لودفيغ الأول، الزواج من

وهي احتفالات سنوية يأتي إليها الملايين من كل أنحاء أوربا.. يقدر عدد الذين يزورون ميونخ بنحو 6 ملايين سائح في السنة..

صور من احتفالات اكتوبر والتي يرتدي فيها الناس الزي التقليدي للشباب والفتيات

الطريق تمتد كأنها بلا انتهاء، والقطار يمر بمنطقة أو محطة بلنسويا.. يتوقف للحظات ثم يواصل رحلته الى ميونخ..

لؤي لم يتوقف عن الحديث عن النساء، الشعر، الخمر، وبين وقت وأخر يطعم حديثه بأبيات من الشعر حتى وصولنا إلى ميونخ...

سبق وأن زرت هذه المدينة الجميلة عام 1993م وهي نفس المدينة التي شهدت "عملية ميونخ" الشهيرة وهي عملية احتجاز رهائن إسرائيليين حدثت أثناء دورة الأولمبياد الصيفية المقامة في ميونخ في ألمانيا في عام 1972م, استمرت ليوم واحد من 5 إلى 6 سبتمبر ونفذتها منظمة أيلول الأسود (بقيادة أبو اياد صلاح خلف)[108].

الأميرة تريز من ولاية سكسونيا في 12 أكتوبر 1810. و دعى جميع المواطنين في ميونخ لحضور الاحتفالات التي عقدت في الساحات أمام أبواب المدينة للمشاركة في الاحتفال بهذا الحدث السعيد للأسرة المالكة. وفي نهاية الاحتفال نظم سباق الخيل واعتبر عيدا لكامل ولاية بافاريا. و قد أدى قرار تكرار سباقات الخيل في السنة اللاحقة أدى إلى ظهور التقليد الذي أصبح الآن مهرجان اكتوبر.

[108] وكان مطلبهم الإفراج عن 236 معتقلاً في السجون الإسرائيلية معظمهم من العرب بالإضافة إلى كوزو أوكاموتو من الجيش الأحمر الياباني. انتهت العملية بمقتل 11 رياضياً إسرائيلياً و5 من منفذي العملية الفلسطينيين وشرطي وطيار مروحية المانيين، ويقال أن "كارلوس" السالف الذكر قد ساهم في تنظيم هذه العملية.

طاهر مصطفى... ابوك من سورية

اخترنا لإقامتنا فندقاً جميلاً خارج ميونخ، يعج برجال الأعمال من كل أنحاء العالم.. في البوفيه المفتوح عندما نزلنا صباحاً لتناول الإفطار تقدم مني رجل وقال بعربية ضعيفة وهو يقدم لي نفسه:

- طاهر مصطفى.. أبوك من سورية.!

بالكاد تمالكت نفسي حتى لا أضحك في وجهه.. ولكنني أدركت بعد برهة أنه يريد أن يقول أن اسمه طاهر مصطفى، وأن أباه من سورية.. وقد نصحنا بعدم تناول الطعام من أحد الصحون التي يقدمها البوفيه لأنه يحتوي على لحم خنزير.. وكان يردد بين الفينة والأخرى "أَبوك من سورية" وكأنه يفتخر بأصله العربي السوري..

فهمت منه أنه تركي، وقد هاجر إلى ألمانيا، وأن والده سوري انتقل إلى تركيا وعاش فيها حيث أنجبه و اكتسب الجنسية التركية، لكنه يعتز بأصوله السورية إذ أن أباه وجده لأبيه عربيان، لهذا كان يردد دون أن يعرف كيف يعبر عن ذلك بالعربي " أنا طاهر مصطفى.. أبوك من سورية.. "

ويذكرني موقفه هذا بما رواه لي الشاعر المرحوم محمد سعيد جرادة عن التقائه شخصاً عندما كان يحضر مؤتمراً في طشقند فقدم له نفسه قائلاً: أنا روسي من طشقند تعلمت القراءة والكتابة وسائر فنون البيان، فاجابه الجرادة: تشرفنا، فاجابه أنا روسي من طشقند تعلمت القراءة والكتابة وسائر فنون البيان، فسأله الجرادة: ألم تقرأ قصيدة علي محمود طه عن لينينغراد فاجابه أيضاً: أنا روسي من طشقند تعلمت القراءة والكتابة وسائر فنون البيان ، فعرعر له الجرادة على الطريقة العدنية فأجابه مرة اخرى أنا روسي من طشقند..... الخ، قال الجرادة فعرفت انه لا يعرف من العربية سوى تلك الجملة التي يرددها كالببغاء.

شكرنا طاهر مصطفى على نصيحته، ولم نتناول شيئاً من الطبق الذي قال أنه يحتوي على لحم الخنزير، وأخترنا طعاماً آخر ثم غادرنا الفندق للقاء السيد يحيى الحوثي المقيم في بون منذ سبع سنوات.

اللقاء مع يحيى الحوثي

التقينا الساعة الثالثة بعد الظهر بالسيد يحيى الحوثي[109] الذي سبق وأن قابلته لأول مرة في دمشق عام 2009م على طعام الافطار، فى يوم من أيام شهر رمضان المبارك، مع كل من الأمير علي بن ابراهيم سيف الحق ابراهيم بن يحيى حميد الدين الذي تمرد على حكم ابيه يحيى حميد الدين وهرب الى عدن[110]) ونبيه محسن ابو نشطان ولكنهم لم يفطرا على صوت آذان المغرب في دمشق.. بل بعد مشاهدة النجوم كما تقتضي الطقوس الشيعية.. وهو مايسري في إيران ولدى شيعة السعودية والبحرين ولبنان وغيرها ولكن بعض اتباع المذهب الزيدي في اليمن يفطرون عند سماع الآذان مع اخوانهم الشوافع. وعندما كنت في شهر رمضان في لبنان نسمع أذانين وقت الإفطار و أتذكر أن أحد المرافقين عندما حجز لنا في أحد المطاعم سألوه إذا كان يريد الإفطار على الاذان الأول أو الثاني.. يقال ان بعض الزيود فى صنعاء، وهم فرع من الشيعة يفطرون مع الشوافع، وأحياناً قبلهم.. ويستخدمون المذهب للضحك على الذقون ولا يلمون بطقوسه وآدابه!! فالحاكم عند المذهب الزيدي يجب أن يتوفر فيه أسس ومواصفات هي أن يكون: "مكلفا، ذكراً، حراً، علوياً، فاطمياً، سليم الحواس والأطراف، مجتهداً، عادلاً، سخياً، مدبراً، مقداماً، ورعاً، بالغاً، عاقلاً، أفضل زمانه، لم يمارس مهنة مرذوله، لم يشرب الخمر قط، ولم يمارس الزنى، وكلها شروط لا تنطبق على حكام مابعد فترة الإمام يحيى بن حميد الدين 1918م – 1948.

---

[109]– يحيى بدر الدين الحوثي: برلماني يمني، قيادي في جماعة الحوثيين (أنصار الله) انتخب عضواً في مجلس النواب، عن الدورة البرلمانية 2003–2009 والكتلة البرلمانية لنواب حزب المؤتمر الشعبي العام عن الدائرة الإنتخابية رقم (269 (بمحافظة أبين، عاد إلى الى العاصمة اليمنية صنعاء يوم 25–7–2013 وذلك بعد سنوات من اللجوء السياسي في المانيا بسبب تداعيات حرب صعدة وعاد بموجب ضمانات من الرئيس هادي للمشاركة في مؤتمر الحوار بعد تعيينه عضواً فيه وقد عين لاحقا وزير التربية والتعليم فيما يسمى بحكومة الامر الواقع في صنعاء التي تتنازع الشرعية مع الرئيس عبد ربه منصور هادي المقيم هو وحكومته في الرياض منذ مارس 2015 تاريخ بدء عاصفة بعاصفة الحزم.

110 – **علي بن ابراهيم**: له قصة محزنة نتيجة ضيق الافق والتعصب الأعمى ، فهو سبق وان انضم الى الاحرار وعندما نشبت ثورة 26 سبتمبر ايدها لان والده كان من ضمن من اعدمهم الإمام احمد بعد انتصاره على انقلاب 1948م ولكنه صدم عندما تم اعتقاله بحجة أنه من اسرة حميد الدين وقضى بالفعل عدة ايام مسجوناً لولا تدخل الشهيد عبد الله الحمدي شقيق الشهيد ابراهيم الحمدي لاطلاق سراحه، بعد ذلك قرر الانضمام الى الجانب الملكي، والده الثائر لم تعترف له ثورة سبتمبر بدوره وتقديمه حياته من اجل القضية الوطنية لانه من بيت حميد الدين ايضاً وهكذا تسير الأمور في اليمن، فالزبيري أهم من النعمان لانه من المرتفعات ومن المركز المقدس بينما النعمان من الرعية، منتهى نكران الجميل والانحياز الاعمى للمناطقية والشوفينية، ويمتد ضيق الأفق ونكران الدور الوطني الى السيد عبد الله الوزير امام 1948م الذي تنكر لدوره وتضحيته نظام السلال ونظام الارياني اللذان كان لهما دور في هذا الانقلاب والسبب انه هاشمي والنكران يطال قامات وطنية اخرى كالسيد حسين الكبس الذي شارك في الانقلاب واعدمه الامام احمد وغيره كثير.

في سجن حجة كان الجدل والنقاش حول الامامة ورئاسة الدولة ومن يتولاها والشروط الاربعة عشر في المذهب الزيدي وقد اتفق الجميع على الشروط كلها لكنهم اختلفوا حول الشرط الرابع عشر وهو ان يكون الامام علوياً فاطمياً وقالوا ان هذا الشرط غير ضروري ولكن السيد احمد الشامي تمسك بهذا الشرط وبعد سنوات اتصل من كِنْت (KENT) بضواحي لندن بصديقه الاستاذ احمد عبد الرحمن المعلمي في دمشق وقال له قل للقاضي عبد الرحمن الارياني إنني اليوم مقتنع بان الشرط الرابع عشر غير ضروري وانني تنازلت عنه وعندما نقل هذا الكلام للقاضي الارياني قال : قولوا للسيد احمد الشامي لقد تنازلنا عن الشروط كلها[111].

قال لي الأمير علي ابراهيم ان الرئيس صالح الزيدي المذهب يضم يديه أثناء الصلاة ولا يسربل كالزيود أئنائها ويفطر مع الشوافع لإقناعهم بأنه معهم.

ويحيى الحوثي الذي التقيناه هو ابن العلامة الكبير بدر الدين الحوثي[112]، وشقيق الشهيد حسين الحوثي مؤسس الحركة الحوثية المعروفة "بأنصار الله" الذي سلمت السلطات اليمنية جثته لأهله في منتصف عام 2013 [113] استشهد في عام 2004م في عهد صالح الذي رفض تسليم جثته كما رفض تحديد موقع دفن 25 قياديا ناصريا أعدمهم عقب انقلابهم الفاشل عام 1978م ولم يريقوا فيه قطرة دم واحدة، وأخ عبد الملك بدر الدين الحوثي[114] الذي قاد وخاض ست حروب شنها نظام علي عبد الله صالح في صنعاء (2004 – 2010).

---

[111] - "خمسون عاماً في الرمال المتحركة – قصتي مع بناء الدولة الحديثة في اليمن" ، الميثاق للنشر – محسن العيني - 2006

[112]– **العلامة بدر الدين أمير الدين الحوثي:** مواليد 1345هـ أحد أبرز المراجع العلمية للزيدية ، دخل بدر الدين في خلافات شديده مع علماء الزيدية المناهضين للإمامية والإثني عشرية، واشتهر بمعارضتة لبيان علماء المذهب الزيدي الذي أصدروه في1990 والذي يتعلق بموضوع الإمامة، والذي أعلن فيه الموقعون أن مسألة الإمامة وحصرها في قريش أو في البطنين لم يعد لها مبررات في هذا الزمان، رفض الحوثي الفتوى وزادت الخلافات تعمقاً، بعدها هاجر بدر الدين الى العاصمة الإيرانية وظل فيها سنوات ولم يعد إلى صعدة الا بعد وساطات من علماء اليمن مع الرئيس علي عبد الله صالح. بعد حرب صيف 1994ضد الجنوب في اليمن اراد الحوثي الهجرة لإيران بعد قصف منزلة في مران عقب خلافات، الا انه تم تسوية الوضع وسمح له بإقامة مركز وعوضته الدولة عن منزلة.

[113]– أعلن الجيش قتله لحسين بدر الدين الحوثي في الحرب الأولى عام 2004 م، إلا أن جثته لم تسلم لذويه الا بتاريخ 5-6-2013م واقاموا له جنازة مهيبة وحضرها مئات الالاف من مختلف محافظات الجمهورية اليمنية ومن خارج اليمن وقبر بمران. وكان الرئيس السابق علي عبد الله صالح قد أمر بدفن الحوثي في السجن المركزي بصنعاء كي لا يتحول القبر إلى مزار للشيعة من أتباع الطائفة الزيدية.

[114]– **عبد الملك بدر الدين الحوثي:** هو القائد الحالي السياسي والميداني لجماعة "أنصار الله" وتتخذ جماعته عدة مسميات مثل "أنصار الحق" أو "أنصار الله" ولكنهم اشتهروا بمسمى "الحوثيون" الذي تطلقه عليهم وسائل الإعلام عادة نسبة إلى مؤسس الجماعة حسين بدر الدين الحوثي الذي قتل عام 2004. وكلمة الحوثي نسبة إلى منطقة "حوث" في محافظة عمران التي نزحوا منها الى محافظة صعدة.

الملصق الاعلامي لذكرى تشييع الشهيد حسين بدر الدين الحوثي عام 2013م

أَخبرني يحي الحوثي خلال لقائنا بأنه عاد لتوه من الدوحة عاصمة قطر حيث أبرم أتفاقية صلح مع نظام الرئيس علي عبد الله صالح، لوقف الحرب بين الحوثيين والقوات النظامية التي تشن حروب على صعدة منذ عدة سنوات...

وفي وقت لاحق استضافنا يحي في المانيا على وجبة سمك شهية لأنه يخشى تناول اللحوم التي قد تكون مطبوخة بالكحول، الويسكي أو النبيذ، أو أن لا يكون أسم الله قد ذكر على الذبيحة، كما تقتضي بذلك التعاليم الإسلامية.. العرب والمسلمون عموماً يفضلون (اللحم الحلال) المذبوح على الطريقة الاسلامية. وقد فطن الأوروبيون، وخاصة مصانع اللحوم ، فصاروا يكتبون على علب اللحوم (لحم حلال – مذبوح على الطريقة الإسلامية) حتى لا يخسروا أسواقهم في الوطن العربي والبلدان الاسلامية ومستهلكين بالملايين في الدول الغربية.. لكن لا أحد على وجه التحديد متيقن أنها كذلك فعلاً . إن بعض المطاعم في أوروبا تكتب على مدخل المطعم لحم حلال لجذب الانتباه لدخول العرب والمسلمين الى هذه المطاعم .

المهم أننا أكلنا سمكاً حلالاً (مذبوحاً) على الطريقة الحوثية.. لأن السمك لا يحتاج إلى ذبح كبقية الحيوانات.. وهناك حديث ينسب الى الرسول (ص) يقول : "احلت لكم ميتتان صيد البحر والجراد".

مضيفنا يحيى الحوثي شاب مهذب، جم الأدب، وقد جاء خصيصاً لزيارتنا من بون وحيداً من دون أي مرافق (ولو أنه كان في صعدة أو صنعاء لاحتاج الى عدد من السيارات والمرافقين المسلحين لحمايته حاله كغيره من المسؤولين في اليمن اليوم[115] وهو ماحادث اليوم وهو في منصب وزير التربية والتعليم) ولقد أخبرني بأنه استعان بجهاز GPS الموجود في سيارته

---

[115] - اليوم اصبح الامن مفقود في كل شبر من اليمن فالخطف والاغتيالات والدراجات النارية أصبحت تهدد الحياة وتخطف الارواح في كل شارع وعلى باب كل منزل او مسجد، بينما كان الامن والامان يعم الجنوب من العاصمة عدن الى اخر نقطة من حدودها مع الدول المجاورة ، وكان بامكان الناس ان يناموا على الطريق امنين على حالهم ومالهم وعيالهم.

للوصول إلى المكان الذي التقينا فيه بالتحديد، برغم زحمة الطريق، هنا توجد زحمة وليس مزاحمة كما هو الحال في البلدان العربية.. النظام هو النظام، والكل يمتثل له هنا ومن يخالف قواعد المرور يعاقب بالغرامة.. أو بسحب رخصة القيادة منه (السواقة) اذا تكررت مخالفته... فالقانون هو سيد الجميع.. استغرقت رحلته نحو سبع ساعات.. وبعد لقائناعاد الحوثي الى بون في نفس اليوم، مستعيناً بخارطة الـ GPS... وقد وصل إلى بون العاصمة السابقة لالمانيا الاتحادية عند الساعة الثانية صباحاً كما أخبرني بالموبايل فور وصوله إليها.

مع السيد يحيى الحوثي في ميونخ

حتى الآن الحادي والعشرين من سبتمبر مضت رحلتنا بالقطار سلسة وبصورة طبيعية، الرحلات تتحرك بانتظام في مواعيدها المحددة ولم يحدث أي تأخير...

من ميونخ الى براغ

عواقب التأخير

بعد تناول طعام الغداء مع السيد يحيى الحوثي توجهنا إلى محطة القطار.. كانت العاصمة التشيكية براغ وجهتنا هذه المرة ومحطتنا الأخيرة في رحلتنا الطويلة.. ونحن في الطريق كنانشاهد الالاف يحتسون البيره وهم يضحكون ويرقصون مرتدين ملابسهم الشعبية كما هي

العادة في مثل هذه المناسبات، والسيد الحوثي يحدثني بين حين واخر "ابسر ابسر وهو يشير الى البارات والشباب" ابسر باللهجة الصنعانية تعني شوف.

المفاجأة إن مرافقي ماهر الذي اتفقنا معه أن نلتقي في المحطة ومعه حقائبنا لم يكن هناك... بدأنا نشعر بالقلق... الدقائق تمر بسرعة... جلنا في أرجاء المحطة بحثاً عنه... لم نجد له أثراً... موعد الرحلة يقترب... عيوننا لا تتوقف عن البحث دون جدوى... اعتقدنا انه ربما استقل القطار ونقل الحقائب إلى قطار الرحلة... مازلنا قلقين وموعد الاقلاع يقترب ولا نستطيع أن نتأخر عن السفر... قبل الصعود إلى القطار طلبت من لؤي صالح أن يقوم بمحاولة أخيرة للبحث عنه... ربما يكون داخل القطار... ربما جاء قبل الموعد وصعد إليه... لم يسفر بحثه عن شيء.. لم تعد هناك جدوى من الانتظار.

وصل القطار إلى المحطة والساعة تشير الى الخامسة إلا خمس دقائق... لم نجد بداً من صعوده، لانه لايستطيع الانتظار، فمواعيده معلنة ومحددة سلفاً، رجوت السيد يحيى الحوثي، الذي كان في وداعنا أن ينتظر لمدة عشرين دقيقة في المحطة للتأكد من وصول ماهر حداد اليها، وإشعاره إذا وصل بأننا قد سافرنا إلى براغ وعليه أن يلتحق بنا في أقرب فرصة.

بعد نصف ساعة اتصلنا بالحوثي، فأكد لنا أنه لم يأت إلى المحطة، فتوقعنا أنه قد يكون معنا على نفس القطار... قمنا بالبحث عنه لكننا لم نجده... زاد هذا قلقنا عليه... اتصلنا مجدداً بالحوثي... هذه المرة حمل إلينا النبأ السار الذي كنا ننتظره ماهر حداد وصل الآن إلى المحطة، وقد أخرته زحمة الطرق من الوصول في الموعد المحدد للرحلة...

تنفسنا الصعداء... لكن لم تكن تلك النهاية... كانت هناك مشكلة أُخرى ، جوازات سفري معه، وحقيبتي ومقتنياتي الشخصية...

طلبنا من ماهر أن يلحق بنا بقطار آخر إلى براغ ... لكن القطار الذي اختاره لسوء الحظ، كان خط سيره عبر درزدن، ورحلته تستغرق نحو 15 ساعة كاملة لأنه يتوقف في محطات كثيرة على الطريق..

ذكريات لاتنسى في ختام الرحلة

قبل المحطة الأخيرة إلى الحدود التشيكية... كان ضباط الشرطة في المنطقة الحدودية قد طلبوا منا إبراز وثائق سفرنا... أخبرهم الدكتور لؤي صالح مُرافقي في الرحلة بأنني لا أملك وثيقة سفري، وأخبرهم بما حدث مع مرافقي ماهر حداد، ولكنهم لم يقتنعوا بالقصة التي رويناها لهم... وكذلك لم يصدقوا لؤي صالح عندما أخبرهم من أكون..

اضطررنا للنزول من القطار ريثما يتم حل المشكلة، وإحضار جواز سفري الذي يثبت شخصيتي كان ضابط برتبة نقيب هو الذي أصر على نزولنا... وقد لاحظ لؤي صالح أن في سلوكه وتصرفه نوعاً من العنصرية تجاه الملونين، ففي نظره هم مصدر المشاكل والإرهاب الذي يصدرونه إلى بلاده، ومصدر الهجرة غير الشرعية بالآلاف إلى المانيا وبقية اوروبا.. وكما يبدو فإن الشحن الإعلامي الاميركي والغربي والصهيوني وخاصة بعد احداث الحادي عشر من سبتمبر ضد المسلمين قد ساعد على تعميق الكراهية ليس اتجاه المسلمين فقط بل أيضاً تجاه الملونين.

لؤي صالح لم يتحمل تصرفات وعنجهية ذلك الضابط الألماني، ودخل معه في مشادة كلامية وطالب بمحاسبته على تصرفاته...

طلبت اليه الهدوء، فالخطأ ليس خطأه.. نحن الذين أخطأنا عن غير قصد، وهو يطبق القانون وان كان يتصرف بعنجهية لا تخلو من العنصرية... نحن الذين نتحمل المسؤولية لأَن وثائق سفرنا ليست معنا، ربما اعتقدوا في النقطة الحدودية أننا من أولئك المهاجرين غير الشرعيين الذين يهربون الى اوروبا لطلب اللجوء السياسي أو الانساني، ومهما قلنا لهم أو حاولنا إقناعهم فإن ذلك لا جدوى منه ما لم نأت لهم بجوازات سفرنا.

ما العمل ونحن بدون وثائق سفر... حتماً أن المشاكل تنتظرنا لدى رجال الجوازات... ؟!

شعرت بأنني في مشكلة بل في ورطة حقيقية.. هذه هي المرة الأولى التي أتعرض فيها لمثل هذا الموقف في نهاية رحلة القطار حيث لم تكتمل الفرحة بهذه الزيارة الطويلة والمفيدة والممتعة في معظم الأحيان..

ماذا بوسعي أن أفعل ، هل أتصل بالسفارة السورية كوني مقيماً في سوريا منذ سنين طويلة ؟ أم بالسفارة اليمنية؟.. أم أتصل بصديق..؟ بدأ الموقف يزداد احراجاً ، نافذة الحل التي كنت أرجوها قد سدت في وجهي...

حاولت الاتصال بسكرتيري ماهر حداد، لكنني وجدت هاتفه المحمول مغلقاً (علمت منه فيما بعد أن خط هاتفه فرنسي والشبكة الالمانية لا تستوعبه) ليس هذا فقط... بل انه لا يملك وحدات (رصيد) في هاتفه حتى يتصل بي.. حررت له عدة رسائل SMS أطلب فيها الاتصال بي، لكن لم يكن بوسعه تلقي تلك الرسائل ناهيك عن الرد عليها..

ماذا بوسعي أن أفعل... كيف أتصرف ؟!

فكرت قليلاً وعلى طريقة السيد جورج قرداحي الذي كان يقدم برنامج من سيربح المليون على شاشة تلفزيون MBC ويعطي المتسابق 3 طرق للمساعدة الأولى كانت بحذف إجابتين والثانية بطلب مساعدة الجمهور والثالثة هي الاتصال بصديق، ولكنني هنا كنت محصوراً بخيار واحد فلا جمهور لدي ولا إجابات كي احذف منها. استقر رأيي على الاتصال بالصديق يحيى الحوثي وذلك لأنني لا أريد أن يتسرب خبر ما حصل إلى أي جهة قد تستغل ذلك.. فهنالك بعض اليمنيين الذين أصبح شغلهم الشاغل هو التشهير ببعضهم البعض والمزايدات تحت شعار الوطنية الشمالية والجنوبية والعدنية وذلك على شاشات الفضائيات والصحف والمواقع الالكترونية..

أتصلت بالسيد يحيى الحوثي... كان لدي احساس داخلي بأني سأجد عنده مخرجاً لهذه الورطة فهو مقيم في المانيا منذ سنوات... ويعيش فيها كلاجئ سياسي، وفي حماية الألمان، ولا يستطيع التحرك أو السفر إلى الخارج إلا بموافقتهم لأنه مطلوب من الأنتربول بسبب ملاحقة نظام صنعاء له رغم أنه عضو في البرلمان اليمني(نزع صالح حصانته البرلمانية لتسهيل ملاحقته من الانتربول)... (على سبيل المثال فإنه عندما سافر إلى الدوحة وقابل وفد الحكومة اليمنية أثناء وساطة قطر بين الحكومة والحوثيين فإنه سافر بمعرفتهم وموافقتهم) وخلال إقامته الطويلة في المانيا سيكون قد كَّون حتما علاقات مع بعض المسؤولين الألمان... وهذا ما كنت أعول عليه.

عندما اتصلت به، كان في طريقه الى بون التي لم يصل اليها بعد ان ودعنا في محطة ميونخ بالقطار.

شرحت له الموقف باختصار... وطلبت منه ألاّ يتحدث إلى أي أحد ما عدا الجانب الألماني المعني فقط الذي سيحل معه المشكلة.

أجابني: أبشر! ... سوف اتصل بالمسؤولين الأَلمان... ومن ثم اتصل بك

كان الوقت يمر ثقيلاً... بطيئاً... لاشيء أسوأ من الانتظار، خاصة عندما تكون في موقف كالذي كنت فيه، وأعين الشرطيين الالمان الشرسة ترقب كل حركاتي وسكناتي ...

بعد نحو عشر دقائق رن جرس هاتفي الخليوي، بلهفة سارعت إلى النظر في شاشته... كان الرقم (004917663601714) الظاهر عليها غريباً ومع ذلك رددت عليه .

كان المتصل شخص أسمه أبو جعفر وهو من أصول لبنانية ومن جنوب لبنان.. أخبرني أن السيد يحيى الحوثي اتصل به وأخبره بالمشكلة.. قال إنه سوف يساعدنا على حلها بالتعاون مع وزارة الداخلية والأمن الألماني..

قلت له: ابحث عن ماهر حداد في كافة القطارات المتجهة إلى براغ ، فهو الوحيد الذي إن استطعت العثور عليه بوسعه وضع حد لهذه المشكلة لأن وثائق سفري معه.

في الوقت الذي كان هذا الحديث يدور بيني وبين أبو جعفر لم يكن ماهر حداد قد غادر (محطة ميونخ) كما علمت منه فيما بعد ، كما لم يكن بوسعه تلقي مكالماتي الهاتفية أو رسائلي الـ SMS لكنه بعد نحو خمس ساعات تقريباً من بدء رحلتنا من ميونخ تلقى رسالتي ورسائل من لؤي صالح الذي كان يرافقني على نفس القطار ومن أبو جعفر يسأل فيها عن جواز سفري، والاتصال به لأمر هام من أقرب هاتف.. وفي أقرب محطة

كان ثمة مسافر ألماني إلى جانب ماهر حداد في عربة القطار.. سمح له باستخدام هاتفه.. فاتصل برقم (أبو جعفر[116]) الذي سأله عن مكانه بالتحديد... لكنه لم يكن يعرف أين هو

[116]– كان أبو جعفر عندما اتصل بي قد رحب بي ترحيبا حاراً جداً وقال انه سمع كثيراً عني عن طريق والدته التي قال بأنها زارت عدن أيام كنت رئيساً فيها حتى أني لم أعرف أسمه إلا ان أبو جعفر هذا الصديق الذي ظهر من العدم وقال بأنه سيخدمني (بعيونه)

فالقطار منطلق بسرعة ولا يستطيع تمييز أي شيء أو علامة تدله على موقعه... كما إنه لا يجيد اللغة الالمانية حتى يسأل أحد الركاب وحتى إجادته اللغة الانكليزية لم تسعفه لأن الألمان معتزون بلغتهم الألمانية ويرفض بعضهم الحديث بأية لغة أخرى حتى ولو كانوا يجيدونها.

كان موقفه هو الآخر لا يحسد عليه... وزاد من سوء الموقف أن الراكب الألماني الذي سمح له باستخدام هاتفه غادر القطار في المحطة التي كان يقصدها فبقي بدون مُعين

نحن قلقون ومنتظرون على أحر من الجمر... ماهر حداد الذي بيده حل المشكلة واقع هو الآخر في بحر من الصعوبات التي تحتاج إلى الفطنة والتصرف بسرعة في محيط غريب، وداخل قطار... ولكننا لم نفقد الأمل.

ذهب ماهر –كما اخبرني– إلى مراقبة الخط، وطلب منها إجراء اتصال هاتفي..

أخبرته أن ذلك ممكن ولكن ضمن الحدود الألمانية فقط... ولم يكن يحتاج إلى أكثر من هذا... أجرى اتصالين... واحد بي... والآخر بأبي جعفر.

طلبت منه أن يغادر القطار في أول محطة يقف فيها ويستقل سيارة أجرة على جناح السرعة إلى المحطة التي كنا موجودين فيها وأخبرته أين نحن بالضبط.

تنفيذ الطلب الذي طلبته كان مستحيلاً... فالمسافة التي تفصلنا عنه بعيدة جداً

أخبرني فيما بعد أنه كان يحتاج نحو عشر ساعات كاملة لكي يتمكن من الوصول إلى المحطة التي كنا فيها...

هنا اشتغلت "الماكينة الألمانية" المشهورة بدقتها كأنها الساعة.. أبلغت أجهزة الأمن الألمانية كافة القطارات المتجهة إلى براغ والمحطات التي تقف فيها البحث عن شخص اسمه "ماهر حداد" من بين ركابها... فيما طلب منه أبو جعفر أن يذهب إلى مسؤول الأمن في القطار

على حسب التعبير اللبناني.. وبعد هذا الموقف تأكد لي أن العمل الصالح مع الناس لا يذهب سدى مع رب العالمين على حسب قول الاخوة في بلاد الشام. وفي فبراير عام 2014 زرت قريته قناريت في جنوب لبنان وتعرفت إلى والدته وعائلته تقديراً له ولموقفه وتكريماً لاسرته رغم انني لم اعرف السيد موسى ابو جعفر وانما عرفته فقط بالهاتف وعبر صورته التي كانت في منزل والدته الفاضلة ذات الشخصية القوية والشجاعة.

ويعَّرف عن نفسه.. في لحظة ما عثر أحد رجال الأمن الذين تلقوا الإشارة على ماهر حداد في عربة القطار الذي كان يستقله.

طلب منه النزول في المحطة، وكانت تلك هي المحطة التي عليه أن يستبدل فيها القطار بآخر متجه إلى براغ... وفي المحطة كان رجال الأمن الذين تواصلت معه مراقبة خط القطار بعد حديثها مع أبو جعفر... وهناك في المحطة طلب رجال الأمن منه أن يعطيهم جواز سفري، فقاموا بتصويره وتصوير تأشيرة الدخول (الفيزا) وأعادوه إليه وطلبوا منه مواصلة رحلته..

عندها تم ارسال صورة جواز سفري وصورة الفيزا عبر البريد الالكتروني الى المخفر الحدودي الذي كنا ننتظر فيه بعد زمن من الانتظار وكأنه الدهر كله... وفي انتظار وثائق السفر طلبنا من الشرطيين الدخول على الانترنت، فتح موقع (جوجل) الذي وجدوا فيه مئات الصور والمعلومات عني، بما فيها زيارتي الأخيرة إلى لندن ومن خلالها عرفوا شخصيتي ومن أكون.. هنا تغيرت معاملتهم لي 360 درجة.. احضروا كرسياً متحركا، لم يكن سوى الكرسي الخاص بمدير مركز شرطة (فورت ام قاله).. وقدموه لي فجلست عليه.

وكان ماهر حداد قد استقل القطار الجديد، ولكنه لشدة ارتباكه وضيق الوقت في فترة استبدال الخط استقل عربة غير المخصصة له، ولم ينتبه إلى خطئه إلا بعد أن نبهه مفتش القطار إلى ذلك... ولكن المشكلة لم تكن هنا فقط... بل فيما سيأتي لاحقاً... مقطورته ستنفصل في إحدى المحطات ويقطرها قطار آخر إلى جهة أخرى غير التي يقصدها... أخذ حقائبه وحقائبنا.. وأخذ يركض بها وهو يتعثر بها... لينقلها إلى المقطورة المخصصة في العربة التي ستتجه إلى براغ واخذ يصطدم بالركاب النائمين ويترنح يميناً وشمالاً فقد كانت الساعة الثانية أو الثالثة بعد منتصف الليل... وسمع صوت أحد الركاب يطلق شتيمة بالعربية في جوف الظلام (هاد.. ما رح يتركنا ننام)

وأثناء نقله لآخر حقيبة ووضعها في العربة المخصصة له طلبت منه موظفة المحطة أن يدفع عن كل حقيبة خمسين يورو ....

من أين يأتي بهذا المال؟

كل مافي جيبه 38 يورو فقط

أصبح موقفه حرجاً، وقد علت الضحكات من المسؤولين عن الشحن وكأن أصابتهم الدهشة من هذا الراكب الذي يحمل كل هذه الحقائب ولا يملك المال الكافي لدفع أجرة الشحن؟

لكن النهاية لم تكن سيئة...

أدركوا أنه غريب من عدم إجادته للغة الألمانية وانه في ورطة

عطفوا عليه.. واعفوه من دفع أجرة الشحن واكتفوا بالضحك والابتسامات والتعجب.

توجه الى مكانه وجلس بقرب حقائبه الستة... واكمل طريقه إلى براغ التي سيصلها في الحادية عشر صباحاً...

بعد أن وصلت أوراقي الثبوتية إلى المخفر... سألوني إن كنت قد زرت لندن بتاريخ 2010/8/25م.

أجبتهم: نعم... لكن لماذا هذا السؤال!!

أجابني الضابط "سيباستيان" الذي يتحدث الفرنسية انهم دخلوا إلى الانترنت وعرفوا معلومات كثيرة عني... ومن أكون.. واعتذر بلطف وتهذيب على عكس ذلك النقيب الذي تصرف معنا بعنجهية.. وقد شاهدته وهو يغادر مكسور الخاطر لأنه اعتقد بأنه حقق نصراً أمنياً يستحق الترقية عليه..

شكرت الضابط "سيباستيان" على لطفه.. وأكثر منه شكرت في نفسي ثورة وتقنية الاتصالات الحديثة التي جعلت العالم في متناول اليد... وإلا مالذي كان سيحل بنا في ذلك المخفر الحدودي؟!

قالوا لي إن صورة الجواز والفيزا قد لا تؤهلانك لاجتياز بقية الحدود... نحن نخشى أن تتعرض لموقف مماثل كالذي حدث لك هنا خاصة في الحدود التشيكية..

- والحل؟!
- سنعطيك وثيقة سفر لتجنبك موقفاً كهذا...

اعطوني الوثيقة ولكني لم استخدمها حتى وصولنا الى براغ بدون مشاكل..

عودة الى براغ بعد 27 عاما

بعد انتهاء هذه الاجراءات انتقلت مع ضابط الشرطة الى فندق صغير تديره أسرة وكان المطبخ قد اغلق ابوابه، لكنهم طلبوا ان يفتح المطعم حيث اقام حفل عشاء على شرفي وبتنا ليلتنا في

نفس الفندق (هوهنبوكن)... وفي الصباح جاءوا لوداعنا وفي الساعة الحادية عشرة وخمسين دقيقة، استقلينا القطار المتجه الى براغ التي وصلنا اليها عند الساعة الخامسة من مساء الثاني والعشرين من سبتمبر

اخترنا فندق (اوبراغا) لاقامتنا... مبنى قديم بدون مصاعد يعود بناؤه الى نحو أكثر من 200 عاماً... ويقع في قلب مدينة براغ... زرت مدينة براغ ثلاث مرات، كانت الأولى عام 1973م والثانية عام 1982م وهذه زيارتي الثالثة لها والتي بدأت للتو... خلال الزيارتين السابقتين تعرفت الى بعض قادة تشيكوسلوفاكيا السابقة قبل انهيار النظام الاشتراكي وانقسام البلد الى دولتين... جمهورية التشيك وجمهورية سلوفاكيا. منهم الجنرال سوفوبودا رئيس الدولة والرئيس جوستانف هوساك الذي زار عدن عام 1982م عندما كنت رئيساً لجمهورية اليمن الديمقراطية وقد قدمت لنا تشيكوسلوفاكيا مساعدات اقتصادية وعسكرية وفنية وعلمية... كما قدمت السلاح لمصر عام 1955م أو ما سمي حينها (بصفقة السلاح التشيكي) والتي أثارت غضب اميركا والغرب بأسره كما قدمت لمصر الجسور المتحركة التي عبرت عليها الدبابات والجنود المصريون في حرب اكتوبر 1973م إلى الضفة الشرقية لقناة السويس التي كان يحتلها الاسرائيليون منذ عام 1967م... من صفقة السلاح التشيكي التي كسر فيها جمال عبد الناصر احتكار السلاح بدأ عهد العلاقات المصرية السوفيتية... كانت موسكو وراء الصفقة التشيكية العسكرية التي غيرت موازين القوى وطبيعة العلاقات في المنطقة... وكان ذلك اثناء سنوات الحرب الباردة بين المعسكرين الاشتراكي والامبريالي الغربي.. ولكن...

كل شيء تغير في المدينة التي سبق أن زرتها... ها أنذا هنا مرة أُخرى... لقد اصطخبت، وتغيرت الأمكنة والأمزجة، المحلات التجارية، الأسواق، المطاعم، السياحة، الناس... اختفت المعالم الجميلة التي التصقت بذاكرتي.

أحزنني ما آلت إليه المدينة المعروفة بفنها المعماري الفريد... سكانها الهادئون بطبعهم تحولوا مع التحول الذي شهدته من الاشتراكية الى الرأسمالية، والمدينة الهادئة تحولت الى مدينة صاخبة... لكن بعض أحيائها التاريخية القديمة لاتزال تحتفظ بمعالمها، خاصة ساعة أورلوي[117]

[117] ساعة «أورلوي» الفلكية الموجودة على جدار دار البلدية وسط العاصمة التشيكية لها مكانة مهمة بين الأماكن الأثرية والتاريخية في براغ، ويشاهدها عشرات الآلاف من السياح والزوار المحليين يومياً ولاسيما على رأس كل ساعة، وضبط أوقاتهم مع وقت هذه الساعة

المشهورة والتي صممت وعلقت على جدار منذ عام 1410م.. ولا تزال تعمل بنفس الدقة الى يومنا هذا ويقال انها لا تتوقف أبداً..

كان السواح والمارة يلتفون حولها كالعادة بعد أن تحولت مع الوقت الى أَثر يحرص الزائر الى براغ على رؤيتها... كما إن أهل المدينة يصطحبون زوارهم إليها... خلال كل ساعة زمنية تُفتح في الأعلى نافذتان، ثم تظهر تماثيل لأثني عشر راهباً ، وتمثال آخر يلوح بجرس.. وديك يصيح؟!

وعندما يرى الجمهور ذلك المشهد تغمره سعادة يعبر عنها بالتصفيق.

يقال أن المهندس يان هانوش الذي أعاد إصلاح وترميم هذه الساعة العجيبة في القرن السادس عشرأمر الملك بعد مشاهدته لها بفقأ عيني المهندس حتى لا يصنع مثلها لأحد غيره..

بعد عدة سنوات عاد المهندس الأعمى وطلب مقابلة الملك الذي أمر بفقأ عينيه...

عندما قابله الملك قال للملك لقد صنعت ساعة أخرى رغم أنني أعمى وأقدمها هدية لك.

التي تضبط أيضاً وقت سكان براغ منذ عشرات السنين نظراً لدقتها ولوجودها وسط المدينة.تضم الساعة ثلاثة أجزاء رئيسية، الأول يشكله الجزء الفلكي الذي يشير إلى مواقع الأجسام السماوية، والثاني يتضمن روزنامة أو تقويماً على شكل دائرة قام بتركيبها الرسام يوزيف مانيس في القرن التاسع عشر، فيما يتضمن الجزء الثالث تماثيل خشبية صغيرة للحواريين تتحرك بشكل دائري كل ساعة، إضافة إلى تماثيل أخرى. وتوجد في أعلى المكان المعلقة عليه الساعة نافذتان تفتح أبوابهما عند رأس كل ساعة ليطل الحواريون منها بترافق مع قرع للأجراس وحركات تؤديها تماثيل لهياكل عظمية صغيرة، أما عند الانتهاء من التنبيه إلى الوقت فيخفق ديك بجناحيه معلناً اكتمال الساعة كما كان يحدث ذلك قبل عدة قرون. أول إشارة إلى هذه الساعة ظهرت في عام 1410. وقد توارى الشكل الأصلي لساعة «أورلوي» خلال الحرب الهوسية، غير أن الساعة عادت للظهور مجدداً في منتصف القرن الخامس عشر بعد أن أصلحها وطورها يان هانوش ومن بعده يان تابورسكي وأخذت الشكل الأقرب إلى الشكل الحالي. وقد تضررت الساعة خلال الحرب العالمية الثانية، لكن أعيد إصلاحها. وها هي صامدة حتى الآن. ساعة أورلوي عمرها 600 سنه تم صناعتها على يد مهندس عبقري وهي تحسب الوقت والايام والتاريخ بطريقة غريبة ويقال انها منذ ذلك الوقت وهي تدق بشكل يومي بدون ان تتعطل او تتوقف وان علماء هذا العصر احتاروا في طريقة صنعها وهي تدق في الأعدادالفردية فقط وليس في كل ساعة ويظهر منها 12 تمثال يقال انهم الحواريون الذين كانو مع سيدناعيسى عليه السلام..

شعر الملك بالندم على ما فعله بمهندسه العبقري، وأمر وزيره بتكريمه وعلاجه على حساب الدولة تقديراً لاخلاصه للملك بعد أن فقد بصره ولم يفقد بصيرته، حيث لم يهرب ويصنع ساعة مماثلة لدولة أُخرى أو ملك آخر.

علمت إن الذي يقوم بصيانة الساعة الشهيرة، أسرة تشيكية توارثت هذه الصنعة أباً عن جد منذ تاريخ صناعة الساعة... وظلت تمارس هذه المهنة حتى في فترة النظام الاشتراكي في تشيكوسلوفاكيا وأنه سمح لها بالسفر الى الخارج لإحضار قطعة للساعة عندما تعرضت للعطل لبعض الوقت. في ظل النظام الاشتراكي كان يسمح للمواطن التشيكي بالسفر الى الخارج مرة كل سنتين ولم يكن يخلو الامر من استجواب متكرر للبعض منهم خاصة الذين كانوا يسافرون الى اميركا.

ساعة براغ

بنى ذلك الملك نفسه نحو مائة برج وتمثال في براغ لاتزال صامدة حتى اليوم... أي منذ بنائها في القرن السادس عشر الميلادي...

بعض تلك التماثيل توجد على جسر (شارل العاشر) ذهبنا لزيارتها .. ورأيت البعض يلامسون اجزاء من تلك التماثيل خاصة كلب في لوحة بديعة يودون منحه بعضاً من حنانهم.

هذه التماثيل تحولت الى مركز جذب سياحي ومصدر دخل مهم للحكومة وللشعب بعد الانفتاح الذي حصل بعد انهيار المعسكر الاشتراكي.. هذا الانفتاح غير الكثير من معالم المدينة وطبيعة شعبها ولكنني لا أستطيع أن أنكر أن له آثاره الايجابية أيضا.. بقيت هذه التماثيل شاهدة على التغيير الدراماتيكي الذي حل بالمدينة وأهلها.. من هذه المدينة أنطلقت الأصوات المطالبة بإصلاح النظام الاشتراكي أو ما سمي حينها بربيع براغ[118] اغسطس 1968م والذي قاده ألكسندر دوبتشيك زعيم الحزب الشيوعي أنذاك والذي أتهم بالانحراف وبتغيير النهج السياسي للبلاد.. استمر هذا الربيع لشهور سبعة وبعد ذلك دحرته دبابات الاتحاد السوفيتي وبلدان حلف وارسو الموالية له في ساعتين كما حدثني بذلك وزير الدفاع الروسي المارشال جريشكو في احد لقاءاتي معه في سبعينيات القرن الماضي .. وعادت تشيكوسلوفاكيا كما كانت.. ولكن رياح هذا الربيع العاصفة عصفت في نهاية الأمر بالجميع ووصلت حتى موسكو واسقطت المنظومة الاشتراكية كلها.. نفس هذا المصير لقيته الاصلاحات السياسية والاقتصادية التي حاولت القيام بها في اليمن الديمقراطية عندما أصبحت رئيساً لها بين عامي 1980 – 1986 حينها أيضا اتهمت بالخروج من الدائرة الحمراء إلى الدائرة العربية.

---

[118] – في يناير/كانون الثاني عام الف وتسعمائة وثمانية وستين، قرر "الكسندر دوبتشيك" زعيم الحزب الشيوعي في جمهورية تشيكوسلوفاكيا الإشتراكية أن يغير النهج السياسي للبلاد جذرياً. فاشرك ممثلي الأحزاب والحركات الأخرى في ادارة الدولة، والغى الرقابة. واطلق مصطلح "ربيع براغ" على الشهور السبعة التي جرت فيها تلك التحويلات الحازمة. قوبلت التبدلات في تشيكوسلوفاكيا برد فعل سلبي من جانب قيادة الإتحاد السوفيتي. فالموقف في تشيكوسلوفاكيا كان مرشحاً لتقويض منظومة الأمن العسكري القائمة في اوروبا الشرقية. ولذا قرر الإتحاد السوفيتي في السادس عشر من اغسطس/آب عام الف وتسعمائة وثمانية وستين أن يزج بقوات بلدان معاهدة وارشو في تشيكوسلوفاكيا لتنحية دوبتشيك من رئاسة الحزب الشيوعي وإعادة هذه البلاد الى مجرى التطور السابق. في ليلة الحادي والعشرين من اغسطس/آب اجتازت الحدود التشيكوسلوفاكية، مع صمت محطات اللاسلكي، قوات الإتحاد السوفيتي وبولندا والمانيا الديمقراطية والمجر وبلغاريا في اربعة اتجاهات من عشرين موقعا. فمن جنوب المانيا الديمقراطية تحركت القوات السوفيتية المرابطة هناك.

ربما إن تردد الناس على تلك التماثيل هي نوع من الحنين الى ما يتجاوزها.. الى ماض عريق، وحاضر مكتض، ومستقبل لا أحد يعرف إلى أين يؤدي... وفي عدن بعد الاستقلال نقل تمثال الملكة فكتوريا من حديقة الملكة بالتواهي الى مبنى السفارة البريطانية بعدن لانه كان رمزاً لعهد الاحتلال والاستعمار وقد قال لي المؤرخ سلطان ناجي مؤلف "التاريخ العسكري لليمن" أنه كان مصنوعا من الحديد المصهور من اسلحة المقاومة ضد الكابتن هنس عام 1839م. وجود التمثال يتعارض مع الثقافات السياسية المعادية للاستعمار وحل محله النصب التذكاري لشهداء ثورة 14 اكتوبر الذي كتب عليه "من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا". وبعد الوحدة أعاد النظام التمثال مرة اخرى الى مكانه في حديقة الملكة بالتواهي بهدف كسب الدعم السياسي والاقتصادي من بريطانيا لحكام صنعاء ويبدو أن المواطنين لم يعترضوا على عودته لانهم كانوا يحنون الى عهود ما قبل الوحدة من اشتراكيين وسلاطين واستعمار بريطاني، وينطبق هذا الحنين مع المثل وبيت الشعر الذي يقول :

رُب يومٍ بَكيتُ منهُ فلما صِرتُ في غَيرِهِ بَكيتُ عليه

تمثال الملكة فكتوريا التواهي – عدن

مع الجواهري من موطن الثلج زحافاً الى عدن:

زيارتي الثالثة لبراغ أحيت ذكريات نائمة جميلة خاصة منها لقائي فيها لأول مرة بالشاعر العراقي الكبير محمد مهدي الجواهري[119] الذي لجأ إليها بعد تعرضه عام 1980م للاضطهاد كغيره من المفكرين العراقيين. زارني الجواهري في دار الضيافة في براغ 1983م، وزرته في شقته المتواضعة وقرأ لي بعضاً من قصائده عن عدن وبائعة السمك في براغ واخبرني أنه عندما ركب الطائرة في طريقه إلى عدن بدأ يكتب قصيدته من موطن الثلج زحافاً إلى عدن كما أسماها.

في عام 2010م قدمت اذاعة العراق الحر برنامجاً عن الشاعر الكبير جاء فيه:

"ما كاد الجواهري ينيخ في براغ 1980م، مغترباً عن بلاده من جديد، بعيداً عن دجلة الخير، بسبب الأوضاع الارهابية التي سادت العراق آنذاك، حتى تكررت دعوات رسمية عديدة له لاستضافته، رمزاً ومبدعا رائداً ، ومن بينها دعوة رئيس جمهورية اليمن الديمقراطية علي ناصر محمد، التي تقبلها بسرور، ولباها عام 1981، وفي عدن احتفي به بما يستحقه من دولة شابة لم تبخل على الثقافة برغم قلة ماباليد, قلّ نظيرها هناك، كما ينقل شهود عيان[120] ...

ومن ضمن برنامج الزيارة أقيم على شرف الشاعر الخالد احتفال جماهيري حاشد في عدن، القى فيه، إلى جانب مختارات من قصائده القديمة (وكل قديمه جديد بحسب تعبيره)... نونية عصماء نظمها بالمناسبة، ولم ينس أن يوثق في مطلعها، انطلاق رحلته الى اليمن، من براغ، موطن الثلج كما أسماها:

من موطن الثلج زحافا الى عدن تسري بي الريح في مهر بلا رسنِ

كاسي على صهوة منه يصفقها، ما قيّض الله لي من خلقه الحسن

---

[119] الجواهري :هو محمد بن عبد الحسين مهدي الجواهري، ولد في النجف في العراق (26 يوليو 1899) وتوفي في (1 يناير 1997)، لقب بشاعر العرب الأكبر، غادر العراق عام 1961 إلى لبنان ومنها إلى براغ التي استقر فيها سبع سنوات، وصدر له فيها في عام 1965ديوان جديد سمّاه " بريد الغربة "، عاد إلى العراق في نهاية عام 1968 بدعوة رسمية من الحكومة العراقية، بعد أن أعادت له الجنسية العراقية، وخصصت له الحكومة، بعد عودته، راتباً تقاعدياً قدره 150 ديناراً في الشهر، تنقل بين سوريا، مصر، المغرب، الأردن، ولكنه استقر في دمشق ونزل في ضيافة الرئيس الراحل حافظ الأسد. كرمه الرئيس الراحل «حافظ الأسد» بمنحه أعلى وسام في البلاد، وقصيدة الشاعر الجواهري "دمشق جبهة المجد" .

[120] - يتذكر الاخ علي محسن حميد أنه ومعه السفير طه غانم التقى الشاعر الكبير في برنامج عام 1985م وانه تحدث عن زيارته للجنوب بدعوة من الرئيس علي ناصر محمد وانه احتفى به واهداه فيديو كان وقتها من العجائب وقد عبر البشاعر وقتها عن دهشته من رؤية نفسه في شاشة التلفزيون نقلاً عن كاميرا ترسل الصورة اليه فوراً .

من موطن الثلج من خضر العيون به، لموطن السحر، من سمراء ذي يزن

من كل ملتفة الكشحين ناعمة، ميادة مثل غصن البانة اللدن

يا للتصابي اما ينفك يجذبني، على الثمانين جذب النوق بالعطن

قالوا اما تنتشي إلا على خطرٍ فقلت ذلك من لهوى ومن ددني

سبحان من ألف الضدين في خلدي، فرط الشجاعة، في فرط من الجبن

لا اتقي خزرات الذئب ترصدني، واتقي نظرات الاوعج الشدنِ

ثم تستمر قصيدة الواحد والأربعين بيتاً، ليشبك فيها الجواهري –كعادته– في محاور متعددة بين العام والخاص والايحاءات والوصف والاستعارة، وغيرها كثير، فراحت أبياتها تتهادى على ايقاعات محسوبة باتقان متفرد:

خبت بي الريح في ايماض بارقة... تلغي مسافة بين العين والاذنِ

لم ادرها زمناً تطوى مراحله، أم أنها عثرات العمر بالزمن

والله ما بعدت دارٌ، وإن بعدت، ما اقرب الشوط من أهلي، ومن سكني

واختتم الشاعر في ابيات تالية، التحية بمثلها، وأكثر، للمحتفين به، والحاضرين الذين كانوا كفاء تكريم شاعرهم الأخلد:

القي اليكم بما انتم أحق به، مما ينفس عن شجوٍ وعن حزنِ

وناقل التمر عن جهل الى هجر كناقل الشعر موشياً إلى اليمن

(نقل هامش) ص260

وفي هذه المرة أيضاً، لم يفوّت الجواهري "مقامته" اليمنية الجديدة فراح يتباهى، بشعره وعطائه، وبرؤىً اختطها مسارات ثابتة في حياته الرحيبة بالتمرد والشموخ والمواقف... فقال:

ويا أحبايّ صفحاً عن مكابرة من ملهمٍ بغرور النفس مرتهن

تغفو على الخطر الملتف خاطرتي كأنها نشوة العينين بالوسن

ويستبد بنفسي وهي حالمة، من كبرياء القوافي، زهو مفتتن

ما أرخص الموت عندي اذ ينذُ فمي، بما تحوك بنات الشعر من كفني

وما ارق الليالي وهي تسلمني... يوم النضال، لظهر المركب الخشن

حسبتني وعقاب الجو يصعد بي... الى السمواتِ محمولاً إلى وطني

لقد حرصت على ادامة علاقات وطيدة مع الشاعر الرمز، على عقدين تقريبا، ومن بينها لقاءات وزيارات أخرى عديدة في دمشق في الثمانينات والتسعينات من القرن الماضي، حين كان أيضا مثلي يستقر في دمشق،ضيفا سياسيا مكرما، لسنوات عديدة ...

وكنت قد استعدت سماع هذه القصيدة من الأديب والشاعر والسفير والحفاظة محمد عبد الواسع حميد رحمه الله وكما علمت منه أنه يحفظ أكثر من خمسة ألف بيت من الشعر.

الشاعر العراقي الكبير محمد مهدي الجواهري

رسالة الى الاسد:

بعد سنوات من هذا اللقاء شاءت الظروف أن نلتقي ونقيم في دمشق في ضيافة الرئيس حافظ الأسد، وكنا نلتقي من حين لأخر وساءت حالته واتذكر أنه كان يرغب ان يدفن في العراق وحاول الذهاب الى هناك ليموت فيه ولكن اسرته رفضت وفي إحدى الليالي زارتني ابنته خيال وزوجها بعد منتصف الليل وطلبا مني أن أزور الوالد بناءا على طلبه لانه يرفض النوم وبالفعل تحركت إلى منزله ووجدته جالساً وشاكياً من الأصوات المزعجة لأنه كلما حاول أن ينام يسمع دقات مسامير في اذنه ولا يعرف من هو هذا المتآمر عليه، ولهذا فقد كتب رسالة إلى الرئيس حافظ الأسد شعراً ونثراً يشكو حالته ويطالب بمعالجته ووضع حد لهذه المشكلة التي يتعرض لها قبل النوم، وقدم لي الرسالة وطلب مني تسليمها إلى الرئيس الأسد مساء هذا اليوم وقلت له استاذ أن الرئيس سيكون نائماًالان وانا أعرف أنه لا ينام إلا متأخراً وبعد أن ينام كبار القوم في دمشق، وكانت ابنته تغمز بعينها وتشير بيدها وبصوتها أن اذهب بالرسالة الى الرئيس فورا وفهمت الرسالة وقلت "على راسي" كما يقولون في بلاد الشام ورفض أن اغادر قبل أن يهدي لي دواوينه وعلى الصفحة الأولى شعراً وشكرته وانصرفت، وفي الصباح اتصلت بمدير مكتب الرئيس محمد دعبول المعروف باسم "ابو سليم" الذي تعرفت اليه لاول مرة في حفل زفاف بنت اخي زينب عوض ناصر التي تزوجت من احد اقاربه، والمعروف لدى الجميع بكنية ابو سليم والذي كان شخصية مركزية في النظام الجديد- وهو من دير عطية البلدة الصغيرة التي تقع بين حمص والشام والتي دبت فيها الحياة وتطورت بعد أن اسس ابنه سليم جامعة القلمون- وكان ينام الى جوار الهاتف في المكتب وقد أصبح الرجل المتحكم بالوصول الى الرئيس قويا جدا بل اقوى بكثير من معظم الوزراء، وكان من بين مهام دعبول غربلة بريد الرئيس وايصال القضايا الهامة الى الاسد طلبا لتعليماته بشأنها، وكان الاسد يوقع على الرسائل بخطه وغالبا ما كان يكتب ملاحظات وتعليقات ذكية على الهامش تدل على حضور بديهيته كما علمت-

خدم محمد ديب دعبول في رئاسة الحكومة السورية من فترة حكم الرئيس خالد العظم[121] بداية الخمسينيات وأصبح مديراً لمكتب

[121] خالد العظم (1965 -1903) الرئيس الحادي عشر بصفة مؤقتة للدولة السورية بين 4 أبريل و16 سبتمبر1941 ، وأحد أبرز الزعماء السياسيين خلال فترة الجمهورية الأولى من تاريخ سوريا .رأس الحكومة في سوريا ستة مرات، وتولى كرسيًا وزاريًا أكثر من عشرين مرة.[2] بعد انقلابحزب البعث على السلطة في سوريا، انتقل إلى لبنان وعاش فيها حتى وفاته، وقد صادر" مجلس قيادة الثورة "أملاكه داخل البلاد، التي ورثها عن آبائه إذ إن آل العظم هم من الأسر الدمشقية العريقة .تميّز خلال فترة نشاطه السياسي بتقديم نموذج عن الوسطية السياسيّة، فاستطاع

حافظ الأسد عندما كان الأخير رئيساً للحكومة بعد ماسمي بالحركة التصحيحية عام 1970م. بقى مع الأسد الأب من عام 1970 حتى وفاته في 10 حزيران 2000 واستمر في عمله في عهد الرئيس بشار الاسد منذ ذلك الوقت وحتى عام 2018 .

التقطت هذه الصورة عام 2013 وهو لايظهر في اي مقابلة مع الرؤساء

مع السيد محمد دعبول "ابو سليم"

محمد دعبول المعروف ب"أبو سليم" الذي عاصر عدداً من الرؤساء في سوريا وهو كاتم أسرار الرؤساء وصندوقهم الاسود وعبره تمر كل الاتصالات والتوجيهات وكثير من الناس يسمعونه ولكنهم لا يعرفونه شخصياً وقد سماه أحد الأصدقاء بـ "الجبلاوي" بطل رواية نجيب محفوظ – أولاد حارتنا

الحفاظ على نفسه خارج الاصطفاف بين حزب الشعب والكتلة الوطنية وشكلّ حكوماته خلال حكمهما على حد السواء، كما كان نموذجًا عن الرأسمالية السوريّةوالليبرالية السياسية والإسلام المعتدل، خلال تلك الفترة. كان خالد العظم واحدًا من كبار الإقطاعيين وملاك الأراضي سيّما في الجزيرة السورية وهو ما دفع الأحزاب اليساريّة إلى تلقيبه «المليونير الأحمر» و«الكولونيالي»، و"رغم كفاءاته العديدة كرجل دولة، إلا أنه كان متعجرفًا، فخورًا بالأرستقراطية الإقطاعية التي ينتمي إليها"؛[3] في جهة المقابلة فقد وصف بأنه «صاحب شخصية جذابة» و«ذي بال طويل» و«ذكي»،[4] كما كان ذو شعبية في دمشق وانتخب لعدة دورات نائبًا عنها فيالبرلمان بصفة مستقل.

أخبرته ما جرى مع الجواهري، وقلت له انني سأرسل له الرسالة ليسلمها إلى الرئيس فقال : "هل هو يشكو من الطنين ومن أذنه ومن المسامير قلت له "نعم" فشعرت أنه على علم، وقال الرسالة وصلت ولا تزعج نفسك ونزعج الرئيس بها"، فادركت أن الجواهري أرسل نفس الرسالة وفي نفس الوقت تأكد لي أن الاجهزة تسمع الطنين والحنين والأنين للضيوف والمواطنين حتى في مرضهم. واتذكر حديثا لمحسن ابراهيم القيادي في حركة القوميين العرب عندما كان ضيفاً في مصر، وكان المصريون يسمعون كل ما يدور في غرفة نومه وقد فقد تقريراً عن حزب البعث العربي الاشتراكي في دمشق بعد الانفصال وعندما التقى بعبد الناصر قال له:"سيادة الرئيس كنت سأحضر لك محضراً هاماً وقد فقدته ارجو أن يكون قد وصلك" فضحك عبد الناصر ولم يعلق.

وقد كتب الجواهري قصيدته المشهورة "سلامٌ أيها الأسد سلمت ويسلم البلد" التي غنتها الفنانة أصالة والتي عبر من خلالها عن امتنانه للرئيس الاسد الذي استضافه في سوريا بعد أن ترك بلاده العراق مضطراً

سلاماً أيها الأسدُ ** سلمت وتسلم البلدُ

وتسلم أمة فخرت ** بأنك فخر من تلد

لها من حافظ سند ** ومنه الزند والعضد

يميناً أنك الأسد ** له عن غابة رصدُ

صموداً أيها الأسد ** رعاك الواحدُ الأحدُ

منتجع كارلو في فاري

غادرنا براغ الى (كارلو في فاري[122]) التي تبعد 120 كيلومتراً عن مدينة براغ، وتشتهر بحماماتها المعدنية التي يلاحظ الانسان بسهولة تصاعد البخار والأدخنة من الينابيع الحارة

[122]– كارلو في فاري: مدينة في جمهورية التشيك يسميها البعض "فينيسا التشيك" وذلك لكثرة القنوات المائية فيها لأنها تقع على نقطة التقاء نهرين هما إيجر وتيبلى (أو الدافئ) وهي مدينة تكثر فيها المنتجعات الصحية وويناابيع المياه المعدنية.. اسسها الملك شارل العاشر في 14 اغسطس من العام 1370م.. فيها 13 عيناً كبيراً للماء تختلف في فوائدها العلاجية واكثر من 300 نبع صغير.. بالاضافة الى المياه الدافئة من نهر تيبلى.

المنتشرة فيها... حين وصلنا المنتجع الشهير الذي عرفته من زيارات سابقة أيام كانت كارلو في فاري ضمن جمهورية تشيكوسلوفاكيا الاشتراكية وكان ضيوف الدولة حينها يذهبون الى كارلو في فاري على نفقة الدولة.. ثمة أناس أو مستشفون يتحركون هنا وهناك، حاملين أباريق صغيرة، يشربون منها ما تحتويه من مياه معدنية، المياه تحمل الأرقام من 1 إلى 12 حسب رقم النبع الذي جاءت منه، وكل منها له خصائصه وفوائده العلاجية...

داخل المنتجع أو فندق امبريال علاجات متعددة بالطين... الماء.... الحقن... الاكسجين... وغيرها... وكل نوع من العلاج له ثمن.

أما الطعام فحسب الطلب... فهناك سعر محدد للوجبات العادية.... وأسعار أخرى للذين يتبعون الحمية أو "الريجيم". ويدفع النزيل تكلفة باهظة لقاء الطعام والعلاج والاقامه وخلافه، طبعاً ليس الكل بقادرين على تحمل تكاليف مماثلة... لكن من يأتي للعلاج من بعض ما يعاني منه من أمراض مضطر لدفعه حتى لو اضطر للإستدانه طالما كان هناك أَمل بالشفاء.

في مثل هذه الأماكن التي يأتيها الناس من كل مكان للعلاج، أو التشافي يمكنك أن تلتقي بأشخاص لايمكنك توقع اللقاء بهم، او الرغبة في التعرف اليهم.. مثل صاحبنا زهير التجار الذي قال لنا بأنه يعرف الملياردير اليهودي الروسي ألكسندر إبراموف الذي سجنه الرئيس فلاديمير بوتين وصادر ممتلكاته من الغاز ولقد رأيته أكثر من مرة بملابس الرياضة وعلى ظهر جاكيتته شعار روسيا الاتحادية، كما أخبرني بذلك السيد زهير الْتُجاَر المقيم بين براغ و(كارلو في فاري) وهو وكيل شركة الخطوط الجوية التشيكية، وهو يتبع للوكيل في الشام سليم دعبول نجل مدير مكتب الرئيس السوري محمد دعبول، من مدينة دير عطية... الذي عاصر حكم عدد من الرؤساء السوريين (نور الاتاسي 1970 ، د. أحمد الخطيب 1971، الفريق حافظ الاسد 1971 – 2000، الدكتور بشار الاسد 2000 –2018 وذلك بحكم كفاءته وخبرته الطويلة في هذا المجال) قبل وبعد حافظ الأسد الذي دام حكمه لسوريا أكثر من ثلاثين عاماً، واليوم لايزال مديراً لمكتب الرئيس بشار الأسد وبدعم من أبيه أنشأ سليم جامعة خاصة في مسقط رأس أبيه دير عطية وسماها (جامعة القلمون) وهي جامعة خاصة تضم أكثر من 4500 طالب يأتون إليها من مختلف أنحاء سوريا والوطن العربي، وطلاب سوريين من المهجر وخاصة من امريكا اللاتينية حيث يوجد ملايين المغتربين السوريين.. كانت دير عطية مجرد منطقة عبور بين الشام والمنطقة

الوسطى من سوريا والمناطق الساحلية، اما اليوم فقد غدت محطة للعلوم والمعرفة الثقافية، كانت هذه المنطقة مجرد قرية فقيرة شحيحة المياه، وزراعتها محدودة، وطقسها بارد أكثر من المناطق الآخرى خاصة عندما تنزل فيها الثلوج في الشتاء معتدل في الصيف فإن دعبول استطاع أن يضخ الحياة في هذه المنطقة حتى غدت اليوم محط أنظار المهاجرين السوريين الذين يرسلون أبناءهم للدراسة في جامعة القلمون الخاصة في دير عطية التي أصبحت عصب حياة هذه المدينة.. وبالإضافة إلى الجامعة أسس دعبول أكبر مركز تسوق في منطقة القلمون وريف دمشق.. وهو يقع على الطريق الدولي الذي يربط دمشق والمحافظات الجنوبية في سوريا بالساحل السوري وشمال سوريا.

مع زهير التجار وحسام ملحم في كارلو في فاري

اليوم تستقبل (كارلو في فاري) نحو ثمانين ألف سائح وزائر يومياً، معظمهم يأتون للراحة والعلاج وحول كارلو يوجد عدد من المنتجعات الأُخرى، وأكثر الذين يأتون للعلاج فيها هم من العرب والروس.. وسبق وأن زرت هذا المنتجع وغيره من المنتجعات قبل انهيار النظام الاشتراكي وتقسيم تشيكوسلوفاكيا، وكانت الدول الاشتراكية تقدم منح علاجية للدول الصديقة والزعماء لقضاء فترات من الراحة والعلاج في هذه البلدان الجميلة ومنهم جمال عبد الناصر وغيره من الزعماء. واتذكر أن افضل الاجازات التي قضيتها كانت في سوتشي جنوب الاتحاد السوفيتي حيث يقدم هناك افضل الخدمات وافضل انواع الطعام، وفي احد الزيارات اختار وزير الدفاع

المارشال "جريشكو" شخصياً افضل طباخة في الجيش السوفيتي للاهتمام بنا وتلبية طلباتنا من المأكولات وكانت بالفعل من امهر من رأيتهم في حياتي من الطهاة فقد قدمت لنا خلال 21 يوماً اكثر من 150 نوعاً من اصناف الطعام وكانت كل وجبة تختلف عن الاخرى، ولم اعرف تلك الطاهية الا في اخر يوم عند وداعهم لنا وانها جاءت لخدمتنا بتكليف من وزير الدفاع وكانت تشعر بالنشوة والفخر انها الطباخة الأولى في الجيش السوفيتي.

أهمية مثل هذه الرحلات انها تتيح لك فرصة التعرف إلى أشخاص جدد لم تكن لك بهم سابق معرفة ، تعرفت في المنتجع على الدكتور أيمن قوادري ، ومحمد رستم، ورهيف الأتاسي وبعقيلاتهم وكلهم من رجال الأعمال السوريين، كما تعرفت الى أسامة ديب وهو رجل أعمال يمتلك عدة شاحنات ومن أقرباء الرئيس الراحل حافظ الأسد، وإلى الدكتور عبد الرحمن خلوف الذي درس في براغ، وأقام بعد تخرجه في إحدى هذه المنتجعات كطبيب خاص للأعصاب والتجميل، ويقيم منذ عشرين عاماً في التشيك... وهو من مدينة بانياس الساحلية، ومنذ وقت قام بزيارة إلى أهله في سوريا وطلب الى والدته أن تبحث له عن عروس... أخبرني أنه التقى هناك بفتاة محجبة وتقدم لخطبتها، ولكنها اشترطت عليه أن تظل على حجابها بعد الزواج، وقد رفض طبعاً، وقال: كيف أَتزوج من امرأة ترفض أن تقلع الحجاب، غداً سترفض السلام على أصدقائي

في بلاد التشيك!! بلد الانفتاح والحرية الشخصية، ولايزال الدكتور خلوف يتطلع الى الزواج من سورية، وقد طلب من أحد أصدقائه أن يساعده في ذلك... لكن كما يبدو فان الزواج (قسمة ونصيب) كما يقول أُخوتنا في مصر...

في اليوم الرابع من وصولنا هطلت الأمطار بغزارة وخَّيم الضباب والسحاب على المرتفعات والغابات، أخذ الدخان والبخار يتصاعدان من الغابات أَوقات الظهيرة... خاصة بعد توقف المطر وظهور الشمس من بين السحب..

في التاسع والعشرين من سبتمبر زرنا مصحة في "مافي موف"، الواقعة على بعد 20 كيلومتراً من كارلو في فاري... التي بنيت عام 1912م ومعظم روادها من السعودية وبقية دول الخليج العربي. للعلم لم يكن يقصد هذه المصحات قبل سقوط النظام الاشتراكي من مواطني دول الخليج سوى الكويتيون الذين كانوا يقصدون بيتشان في سلوفاكيا.

بعد عودتنا تناولنا طعام العشاء في مطعم مميز يقدم وجبات خاصة من لحوم الظباء والوعل ويرتاده كثيرون من محبي أكل هذا النوع من اللحوم.. رغم أن الصيد في هذه المناطق محظور إلا في أوقات محددة من السنة وبموافقة المسؤولين فيها، ولا يسمح بأي خرق أو تجاوز لهذا القرار حفاظاً على الثروة الحيوانية من الانقراض.. والسكان يحترمون النظام والقانون في هذه البلاد وهذا سر قوة وتطور أي بلد في العالم، بينما نحن في اليمن وفي العديد من البلدان العربية والعالم المسمى بالثالث لا نقيم وزناً لا للقانون ولا للسلطة ولا للبيئة لأن الرشوة والفساد يعطلان القانون ويشلان فاعليته ومعهما التساهل كما يقول روبرت كوبر مؤلف كتاب "تكسير الأمم" والمنظر لتوني بلير رئيس وزراء بريطانيا شريك الرئيس جورج بوش في تدمير العراق وعودته الى الخلف عشرات السنين لكي تظل اسرائيل هي الوحيدة التي تملك مفاتيح التقدم والصناعة والبحث العلمي. كل واحد يستطيع مخالفة القوانين وهو يعلم بأنه يستطيع الالتفاف عليها، ولهذا تعاني بلداننا من الإختلالات الأمنية والاقتصادية والعدلية وعدم الاستقرار.. وبعض المشائخ والمسؤولين يتصرفون وكأنهم دولة داخل الدولة، بل فوق الدولة أحياناً!!

وعلى عكس توقعات اليمنيين هذا ما حدث ويحدث بعد قيام الوحدة اليمنية بين شمال اليمن وجنوبه ، حيث عمم النظام في صنعاء كل مساوئ وسلبيات نظام الجمهورية العربية اليمنية

(التي لم تكن تملك من اسم الجمهورية سوى الاسم دون الروح والمضمون) على الجنوب وقوض أركان الدولة الجنوبية بما كانت تمثله من حداثة ونظام وقانون وإدارة حديثة بدلاً من تعميم النموذج الجنوبي في دولة الوحدة تطبيقاً لاتفاق الوحدة الذي نَصَ على الأخذ بالأفضل في النظامين السابقين على نظام دولة الوحدة وجرى الاخذ بالأسوأ، وانتشر الفساد والافساد المنظم لبعض القادمين من الجنوب.. واتذكر ان علي عبد الله صالح سأل احد الجنوبيين : كم تملك اليوم ؟ ، فأخبره عما يملك، وقال له نريد ان نلتحق بكم ... فرد عليه علي عبد الله صالح : نحن جمعنا هذه الثروات خلال أكثر من عشر سنوات ، وانتم جمعتموها باقل من سنة

الجنوب كان يتصدر الدول العربية في منظومة الشفافية فلم يكن هناك فساد ولا رشوة ولامحسوبية.

كارلو في فاري منتجع سياحي يسيطر عليه الروس... لاحظت في فندق الامبريال مقر إقامتي، إن تسعين بالمائة من نزلائه من الروس تقريباً... كما أن مالك الفندق نفسه روسي... وأطلق هذا الوضع العنان للتعليقات بأن كارلو في فاري أصبحت مستعمرة روسية

وقد شيد الروس لهم مساكن خاصة حول المطار... وقد يتساءل البعض هنا من أين للروس كل هذه الأموال التي يشترون بها الأراضي والعقارات في أرقى وأعلى المناطق سعراً في التشيك وجنوب فرنسا وفي مناطق عديدة حول العالم؟!

والجواب بسيط في جزء منه وهو يتعلق بالفساد والثاني أنهم حرموا من حق التملك في النظام الاشتراكي الذي ساد الاتحاد السوفيتي السابق طوال سبعين عاماً... وهم يأخذون الآن حقهم الذي حرموا منه بأثرٍ رجعي في روسيا وخارجها[123] !! لقد حول المال ونفوذه علاقة الكراهية التي كانت واضحة ضد السوفييت قبل سقوط النظام الاشتراكي في تشيكوسلوفاكيا الى علاقة مصالح مشتركة وربما علاقة مودة.

[123] - وهنا يدرك المرء قيمة المال وتأثيره، فعندما كانت تشيكوسلوفاكيا جزء من المنظومة كان الروس مكروهين فيها واذا تحدثت بالروسية لن يرد عليك احد حتى لو كان يعرف التحدث بها، وينقل الأخ علي محسن عن المرحوم عمر الجاوي أنه تحدث مع مسؤولة في مكتبة براغ بالروسية وقال انها لم ترد عليه بالروسية لانها تعرف – او تظن أنه شيوعي. واضاف أيضاً ان الحادثة أيضاً وقعت مع نسيبه الدكتور عبد الاله ابو غانم -وهو خريج الاتحاد السوفيتي- لم يكن احد يجيب على اسئلته عندما يتحدث بالروسية والعكس عندما يتواصل مع الناس بالانجليزية.

لكن هذا ليس حال كل الشعب الروسي، فروسيا (صاحبة إرث الاتحاد السوفييتي سابقا) التي كانت يوماً أحد قطبي الصراع الأقوى في تاريخ العالم المعاصر وصاحبة أكبر مساحة لدولة في العالم والغنية بالنفط والغاز والموارد الطبيعية والثروة البشرية التي لا تنضب من مهندسين وعلماء وأطباء ومعماريين.. والتي أرسلت أول مركبة إلى الفضاء الخارجي و أول رجل إلى الفضاء (يوري جاجارين[124]) الذي كان تمثاله منصوبا في كارلو في فاري نفسها. . وفالنتينا تريشكوفا التي زارت عدن عام 1983م ومنحتها وسام الصداقة مع الشعوب..

أصبحت اليوم مليئة بعصابات المافيا التي نهبت البلاد بعد انهيار النظام الشيوعي... التي اشتغلت بالتهريب والتجارة غير المشروعة وحتى بتجارة الدعارة والرق الأبيض في كل أنحاء العالم.. وباعت صناعات استراتيجية وغير استراتيجية بتراب الفلوس كان الكثير من نصيب اليهود..

العودة الى براغ:

اليوم الأخير لزيارتي إلى براغ... والأخير في رحلة القطار الأوروبي التي استغرقت نحو الشهرين مضت فيها الأيام بسرعة قطعنا فيها اكثر من 5000كم بالقطار في بعض البلدان الاوروبية...

ظهر هذا اليوم التقيت بالسفير اليمني في براغ عبد الرحمن الحمدي، شقيق الرئيس الشهيد المغدور ابراهيم الحمدي الذي تعرفت إليه قبل استلامه رئاسة الدولة في صنعاء عام 1974م كما تعرفت إلى اخيه الأكبر محمد الحمدي عام 2000م، لقائي في براغ هو استمرار للقاءات سابقة معه في القاهرة ودمشق والامارات وقد تحدث السفير الحمدي بمرارة عن الوضع في اليمن، وعن الرئيس علي عبد الله صالح، متحللاً من صفته الدبلوماسية، وصفه بأنه ليس رئيساً للدولة، ولا حتى شيخاً لقبيلة... وان القبيلة دولة داخل الدولة في اشارة الى قبيلة ومشايخ حاشد.

[124] - يوري غارغارين: رائد فضاء سوفيتي 9 مارس 1934 – 27 مارس 1968م يعتبر جاجارين أول إنسان يتمكن من الطيران إلى الفضاء الخارجي والدوارن حول الأرض في 12-أبريل 1961 - على متن مركبة الفضاء السوفيتية، وكان تمثاله يقع في وسط ساحة منتجع كارو في فياري وازيل بعد الثورة المخملية التي قادها فاسلاف هافل وانتهت بسقوط النظام الاشتراكي.

وعبر لي عن ارتياحه لبيان القاهرة الذي وقعناه مع أحزاب اللقاء المشترك و الذي اكدنا فيه على ضرورة تغيير النظام، ودعم الحراك الجنوبي، ونقل الحراك الى الشمال، وحل قضية الجنوب العادلة بالفيدرالية... أي عبر دولة اتحادية من اقليمين شمالي وجنوبي.

وقال إنه منذ تعيينه سفيراً في براغ لم يلتق بالرئيس صالح أو حتى يتصل به مجرد الاتصال، فهو يعتبر نفسه منفياً في التشيك، أو في إجازة لأن العلاقة سيئة بين البلدين... وتوقع أن تغلق التشيك سفارتها في صنعاء في بداية يناير 2011م ولكن الرئيس التشيكي سيزور صنعاء للمجاملة في إطار زيارة يقوم بها إلى الكويت، حتى لا يشعروا النظام بأنهم يقطعون علاقتهم معه..

وكشف لي السفير الحمدي أنه يلتقي بالأميركان بصورة منتظمة منذ عامين، وأنهم مستاؤون من الرئيس علي عبد الله صالح ومقتنعون بضرورة تغييره، ولكن سؤالهم الدائم هو "من هو البديل؟". فما حصل ويحصل اليوم في الصومال التي تمزقها الفوضى والحروب منذ عام 1991م بعد الإطاحة بالرئيس (سياد بري) دليل على أن اليمن قد تواجه المصير نفسه في حال أطيح بعلي عبد الله صالح والصومال اليوم دولة بدون قانون... بل فيها أكثر من دولة.

كما أن الأميركان غارقون في العراق وافغانستان وغير قادرين على السيطرة على أعمال العنف الجارية هناك، ويخشون أن تتحول اليمن إلى مشكلة في المنطقة، لأن حدوث أي اضطراب فيها سيهدد الأمن والاستقرار في الخليج والبحر الأحمر والقرن الافريقي والمحيط الهندي وهي منطقة استراتيجية حيوية للمصالح الاميركية والعالم.

السفير الحمدي وخلال لقاءنا قال: علينا أن نتوحد جميعاً من أجل إحداث التغيير المنشود... وتحدث عن الطائفية والكراهية التي زرعها النظام في النفوس بين أبناء الشمال والجنوب، وأخبرني أن والده ولد في الضالع ولم يحدث في تاريخ اليمن مثل هذه الأحقاد والكراهية التي هي من صنع "العليين" علي عبد الله صالح وعلي سالم البيض!!.

وأشاد السفير الحمدي بصمود رئيس لجنة الحوار الوطني الأستاذ محمد سالم باسندوه الموجود حينها في الإمارات... وقال انه نصحه بألا يستعجل في العودة إلى اليمن...

ومعروف أن باسندوه كان مستشاراً للرئيس صالح، ولكنه مستشار لا يستشار كما يتندر هو بذلك مثله مثل كثيرين غيره يعدون بالعشرات... وهو اليوم من أشد المعارضين للرئيس صالح الذي هدد باسندوه ما لم يعد إلى اليمن –كما أخبرني بذلك السفير الحمدي– لكن باسندوه لم ينصع لهذا التهديد والوعيد، وقد أكد للحمدي أنه مصمم على التغيير مهما كانت التضحيات وهورجل عاطفي ويبكي عندما يحس بالظلم على نفسه وعلى الاخرين. وقال ان باسندوة يحلم بان يصبح رئيسا لليمن كما أكد له ذلك بعض المنجمين والعرافين في الهند وتونس ولبنان وهو مؤمن بأنه سوف يصل يوما الى رئاسة الدولة ويتحدث في كل مجالسه عن ذلك دون خجل .

4 اكتوبر 2010م

بعد اللقاء مع السفير الحمدي توجهنا الى المطار مباشرة، كان في وداعنا في المطار السيد زهير.. يبدوأن عادة تأجيل مواعيد اقلاع الطائرات ليس قاصراً على الخطوط الفرنسية... فها هي الخطوط الجوية التشيكية تفاجئنا بتأجيل موعد رحلتنا المتجهة إلى دمشق نصف ساعة...

الرحلة سوف تستغرق ثلاث ساعات وعشر دقائق باذن الله.. وهذا من عندي وليس من عند المضيف التشيكي الذي لا يعرف العربية ...

اقلعت الطائرة في العاشرة و15 دقيقة بعد تأخر دام نصف ساعة...

مازلنا في بداية الرحلة... ومعي على متنها الأصدقاء الذين تعرفت إليهم في كارلو في فاري، محمد رستم، والدكتور أيمن قوادري، ورهيف الأتاسي وزوجاتهم.

الطائرة تمر في أجواء بودابيست عاصمة المجر... وبعض المدن الأخرى كمدينة اسطنبول عاصمة الباب العالي في عهد الدولة العثمانية، وعاصمة تركيا الحديثة اليوم.

نشاهد أضواء اسطنبول وبحر مرمرة وقرى كثيرة متناثرة حول مضيق الدردنيل... يبدو كل شيء من هنا في منتهى الجمال... الرؤية... الطقس.... الإضاءة.... لا سحب... لا مطبات..

تلوح في الأسفل عشرات بل مئات من القرى المتناثرة كالنجوم في الهضبة التركية... وتبدو أَنقرة من بعيد على يساري، بينما المضيفون والمضيفات يقدمون للركاب ما يرغبون فيه من طعام أو شراب.

خدمات الخطوط الجوية التشيكية لا تختلف كثيراً عن مثيلاتها العربية أو الافريقية، وهي بشكل عام مقبولة لكن لا يمكن مقارنتها بخدمات الخطوط القطرية أو الاماراتية وشركة الاتحاد التابعة لحكومة أبو ظبي أو الشركات العالمية الأخرى كالسنغافورية وكاثي باسيفيك التابعة لهونغ كونغ.

هذه هي المرة الأولى التي استقل فيها طائرة تابعة للخطوط الجوية التشيكية...

البعض من حولي استغرق في النوم... والبعض بالقراءة... وآخرون بالحديث، أَو بمتابعة المناظر ومستمتعون بأجواء الرحلة الجميلة...

عبر الشاشة الصغيرة التي توجد عادة في الطائرات شاهدت بعض الأضواء حول بحيرات صغيرة في الهضبة التركية كما نبهتنا الى ذلك إحدى المضيفات... لعلها أحد منابع نهر الفرات الذي يواصل جريانه إلى سوريا والعراق ويصب في شط العرب و قد بنت تركيا سدود سيؤثر حتماً على كمية تدفق المياه الى سوريا والعراق وعلى مستقبل الزراعة والحياة فيها. وكجزء ثان من سياسة تعطيش العرب تبني إثيوبيا سد النهضة وتقول الاخبار ان سدودا اخرى ستتبعه وهذه كلها ستحد من تدفق المياه مستقبلا الى مصر والسودان ومالم يتم احترام اتفاقية تقاسم مياه النيل أو وضع اتفاقيات جديدة للمياه بين هذه البلدان فإن البديل هو حروب المياه من اجل الحياة وهي حروب المستقبل التي تتمنى اسرائيل حدوثها. لقد اعلنت تركيا قبل قدوم حزب اردوغان الى السلطة عام 2002 ان مياهها تساوي في قيمتها قيمة النفط ثم واصل اردوغان نفس السياسة بدون تسييس وفي الحالة الاثيوبية فقد عقدت عدة جلسات للمفاوضات بين مصر والسودان واثيوبيا لخلق اطمئنان لدى مصر والسودان بان السدود الاثيوبية لن تلحق الأذى بمصر على وجه الخصوص ولكن لا نتيجة ايجابية لذلك وهو ماتعبر عنه مصر بأدب واعتدال بأن الوضع مقلق.

عودة الروح

في نهاية الرحلة ونحن نقترب من الاراضي السورية شعرت بعودة الروح عندما بدأت أضواء الساحل السوري تشع كانت وهاجة... جميلة.. متلألئة... وأخيراً هبطنا في مطار دمشق الدولي، وكانت الساعة الثالثة والنصف من صباح الخامس من أكتوبر 2010 .أنا لا أشعر بالأمان إلا عندما أصل إلى هنا .. هذا بلدي الثاني جواً أو براً أو بحراً.

هانحن نعود إلى دمشق عاصمةالامويين وعاصمة العرب التي يدخلها كل العرب بدون تأشيرة ويقيمون فيها بلا قيود واجراءات اقامة ويدرس الطلاب منهم فيها مجانا كأخوانهم السوريين والتي قال عنها شوقي:

اقسمت بالله واستثنيت جنته دمشق روح وجنات وريحان

وبالنسبة لي فالعودة إلى دمشق عودة للروح على أن العودة إلى عدن روح الروح التي انتظر بفارغ الصبر يوما ما لثم أرضها وتقبيل ترابها وليس ذلك ببعيد ولسان حالي يقول كما قال الشاعر الكبير الجواهري عن عدن

والله مابعدت دار، وان بعدت ما أقرب الشوط من اهلي ومن سكني

انتهى